الفوائد السنية

من

مجموع فتاوى ابن تيمية

جمعها ورتبها وأشرف عليها

خالد بن محمد بن عثمان المزاز

مكتبة دار الحكمة

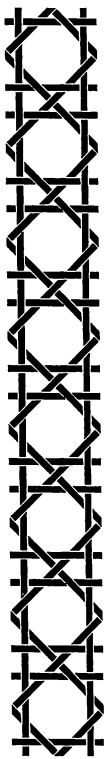

القواعد السنية

من

مجموع فتاوى ابن تيمية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع
٢٠١٤/٢٣٧١١م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-043-1

التوزيع بالمملكة العربية السعودية
مكتبة دار الحجاز
الإدارة والمبيعات جوَّال: ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧
E-Mail: dar_alhijaz@homail.com

الدار العالمية للنشر والتوزيع
ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية
محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+
E-mail: alamia_misr@hotmail.com

الفوائد السنية
من
مجموع فتاوى ابن تيمية

الفوائد السنية

من

مجموع فتاوى ابن تيمية

جمعها ورتبها وعلق عليها

خالد بن جمعة بن عثمان الزواز

الدار العالمية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله، نحمده ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرورِ أنفُسِنا، ومن سَيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه الله فلا مُضلَّ لهُ، ومن يُضلل فلا هادي لَهُ.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

أما بعد:

فإنَّ من نعم الله على هذه الأمة أن منَّ عليها برجال ذوي همةٍ تتقاصر دونها الهمم، استطاعوا ـ بعد الله ـ بإخلاصهم لله تعالى، وبإرادتهم الخيرة، وجهودهم الدؤوبة أن يعيدوها إلى طريق الحق، بعد أن كاد أهل البدعة أن يجنحوا بها إلى الانحراف عن الطريق المستقيم.

هؤلاء الرجال الذين جاؤوا امتدادًا عقائديًّا عمليًّا للقرن الأول من الصحابة الأجلاء، ومن جاء بعدهم، إذ أزاحوا الدخن والعوالق عن مسلك الحق، وأرشدوا الناس إليه بالحجة الناصعة، والمحجة البيضاء، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ[1] الذي كان بحرًا من بحور العلم، سخره الله سبحانه لخدمة هذه الأمة؛ يجدد لها دينها، ويجاهد في سبيله.

---

(١) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٨/ ١٤٢)، و«فوات الوفيات» (١/ ٧٤)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٩٦)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ١٤١)، و«الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» =

وكم لهذا الجهبذ من مؤلفات سارت بها الركبان، وإذا أردنا إحصاء مؤلفات هذا العالم الفذ لخرجنا بعدد كبير من الكتب، ولكن على رأسها (**مجموع الفتاوى**)، وهو الأشهر، وسمعت الكثير من الثناء على كتاب المجموع، ولكثرة ما سمعت وجدتني منغمسًا في قراءته عندما تيسر ذلك لتعدد أبوابه، وتنوع مواضيعه وأسلوبه الرصين، شغفت به، إذ وجدته بحرًا زاخرًا مليئًا بما ينفع المسلمين، ففيه لكل واردٍ ري، ولكل صادرٍ زادٌ من العلم النافع الذي يعالج شؤون حياة المسلمين أفرادًا ومجتمعات، فهو جليل في نفعه، ضخم في حجمه، وواسع في علومه، ومن قرأ مكابدة محققي الكتاب عرف أنه وقع على كنز نافع لكل قارئ، وأنه يستحق الجهود التي بذلت من أجله، وعذري في شغفي به عذر القائل:

إن تحمَدوا أو تذُمُّوا إنَّ شافعتي ... أنّي رأيتُ وما راءٍ كمَن سَمِعا

وأحسن العلامة ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول عن تصانيف هذا الإمام في (القصيدة النونية الكافية الشافية) (١٦٣):

فَاقْرَأْ تَصَانِيفَ الإمَامِ حَقِيقَةً ... شَيخِ الْوُجُودِ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

أَعْنِي أبَا الْعَبَّاسِ أحْمَدَ ذَلِكَ الْـ ... بَحْرَ المحِيطَ بِسَائِرِ الْخلْجَانِ

وَاقْرَأْ كِتَابَ العَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي ... مَا فِي الوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانِ

وَكَذَا فَتَاوَاهُ فَأَخْبَرَنِي الَّذِي ... أَضْحَى عَلَيهَا دَائِمَ الطَّوَفَانِ

هِي فِي الوَرَى مَبْثُوثَةٌ مَعْلُومَةٌ ... تُبْتَاعُ بِالْغَالِي مِنَ الأَثْمَانِ

ونظرًا لثقتي بهذا النفع العظيم ولجت بابه، وتجولت في رحابه، فوجدت فيه موسوعة زاخرة بالعلم والتربية، شاملة لكل جانب من جوانب الحياة؛ من عقيدة وعلوم

= لسراج الدين البزار، و«البدر الطالع» (١/ ٦٣)، و«الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير» (١/ ٢٣٣)، و«ابن تيمية وأعماله الخالدة» للدكتور عبد الرحمن الفريوائي، دار الصميعي. وغيرها.

قرآن وحديث وفقه وتربية وتاريخ أديان وفرق وسياسة شرعية، مما يدل على أن هذا العلامة العبقري لم يقتصر في علمه على منازلة أهل الكلام، أو الصوفية المنحرفة، والزنادقة، والفرق الباطنية بالحجة الدامغة والأدلة الساطعة، بل تعدى ذلك ليغطي بعلمه الغزير المستمد من الكتاب والسنة كل نشاط عملي وعقائدي للإنسان المسلم؛ لأنه أدرك شمولية هذا الدين العظيم، فإنك حين تتصفح كتبه تجد له ذراعًا علمية ممتدة إلى كل مجال من مجالات حياة المسلم العاجلة والآجلة، وبأدق التفاصيل، وكل ذلك في ظل الكتاب والسنة، كما أسلفت.

ومن الجدير بالذكر أنَّه قد أصاب مكتبتي ما يصيب الأشياء من عوادي الأيام، وقد حصل ذلك في سنة ١٤٢٩هـ حيث كنت قد نقلت كتبي من مكانها إلى مكان مكشوف لإتمام بناء التوسعة مما جعل الكتب تتعرض للمطر الغزير، فأسرعت بإدخالها أنا وأبنائي بعد عناء شديد، ولكن بعد أن أصابها ماء السماء، وكادت تتحول بسبب ذلك إلى كتلٍ ورقيه صماء، ولكن لطف الله أنفذ الجزء الأعظم منها، فحزنت وسررت في آن واحد، فأما الحزن فكان على ما عرى بعضها من تلف، وأما السرور فكان على سلامة الجزء الأعظم منها، ومن الكتب التي أصابها المطر وللأسف كتاب (مجموع الفتاوى) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولكن حرصي على ما حواه من فوائد عظيمة جعلني أجمع شتات الأوراق وقرأتها بحرص وعناية مع ما أصابها من التصاق والتواء كي أظفر بما أريد، وكنت مع مرور الأيام أقيد الفوائد في طره الكتاب، والحمد لله وفقني الله في عملي رغم هذه الصعوبة الطارئه، وإن هذه الأمور التي حصلت بكتبي هذه أو بكتب غيري إنما تعصف بثمرات العقول وزبده الأفكار التي ضمت في حناياها حكم تحميها لو أطعتها ولكني لم أخذ بها يومها، وذلك مثل (العاقل يحتال للأمور

قبل وقوعها)، وأقول ردًا عليها وقد ورد في كما الحديث المرفوع (صحيح الجامع) (٧٧٣٩) لشيخنا الألباني: «**لا يغني حذر من قدر**» وحسنه.

وقديمًا قيل: ومن المقدور لا ينجو الحذر.

وانصرف تفكيري إلى إصلاح ما فسد، وتم ذلك والحمد لله، ولكن بعد جهد وخسارة والله خير الرازقين.

وخلال قراءتي للكتاب المذكور لشيخ الإسلام شُدَّ بصري إلى لُمع ساطعة، تتدفق بالعطاء، فعزمت على الإفادة من خلال انتقاء بعضها، ثم جمعها في كتاب، على غرار ما قدمه تلميذه ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه (الفوائد)، وهذا ليس غريبًا، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية إذ ترك للأمة بحرًا زاخرًا من العلم، فقد رغّب محبيه ممن يقفون على الساحل بالغوص فيه لالتقاط بعض درره، وأنا قمت بذلك، وقد سبقني غيري، ولكن لكل لاقط نصيب، غير أني اخترت مجموعة من الفوائد، وجعلتها في كتاب مستقل يسهل الرجوع إليه لصغر حجمه إذا قيس بالأصل، وسميته (**الفوائد السنية من مجموع فتاوى ابن تيمية**)[1]، وإن تخيري لهذه الفوائد لا يعد انتقاصًا من باقي المادة العلمية للكتاب الأم؛ بل إن المجموع خير كله، ولا يتعدى ما تناولته في عملي هذا الجزء اليسير من منافعه الجمة -وما ذاك إلا تقريب لها وتخصيص لما لها من الأثر العظيم الذي ينتظر أن تتركه في نفوس القراء- إفرادها في كتاب خاص، وذلك بسبب حاجة الأمة إلى أمثاله، في وقتها الحاضر، ويمكن لكل من لديه الهمة

---

(١) قال ابن منظور في «لسان العرب» (٢/ ٣١٠٨): «**الفائدةُ**: ما أَفادَ الله تعالى العبدَ من خيرٍ يَسْتَفيدُه ويَسْتَحْدِثُه، وجمعها الفَوائِدُ. ابن شميل: يقال إِنهما لَيَتَفايَدانِ بالمال بينهما، أَي يُفِيدُ كل واحد منهما صاحبه. والناس يقولون: هما يتفاودان العِلْمَ. أَي: يُفيدُ كل واحد منهما الآخر. الجوهري: الفائدة ما استفدت من علم أَو مال، تقول منه: فادَتْ له فائدةٌ.

الغوص في أعماق المجموع لاستخراج ما يخدم به عامة المسلمين وخاصتهم، بما يغترفه لهم من هذا العلم الرصين المرتبط بالكتاب والسنة، بفهم سلف الأمة.

فالكتابُ مترع بكل ما هو نافع للأمة الإسلامية أفرادًا وجماعات، وقد تحريتُ في هذه الفوائد أن تكون عامة شاملة لجميع مجالاتِ الحياة، سواء كانت في العقيدة، أو التفسير، أو الفقه، أو السيرة، أو السلوك، أو التراجم، أو الدعوة، فجاء باقة من الزهور المتنوعة، ولم تنتظم، حرصًا على ذوق القارئ بعدم السآمة، وجعلت لكل فصل أو موضوع عنوانًا دالًّا عليه، مع تعليقات يسيرة، وفهارس نافعة، وفي الختام إذ أقدم خلاصة جهدي في هذا الكتاب الناظم لدرر سنية من المجموع؛ أرجو من الله سبحانه أن ينفع به المسلمين، وأن يتقبله مني، ويغفر لي ولوالدي، وذريتي، ولجميع المسلمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

وكتب

خالد بن جمعة بن عثمان الزاز

السبت ١ محرم ١٤٣٦هـ - ٢٥/ ١٠/ ٢٠١٤م

الفوائد السنية

من

مجموع فتاوى ابن تيمية

جمعها ورتبها وعلق عليها

خالد بن جمعة بن عثمان الخراز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جهود علماء الحديث

قام كُلٌّ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ ـ مَقَامَ أَهْلِ الْفِقْهِ الَّذِينَ فَقِهُوا مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ بِدَفْعِ مَا وَقَعَ فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَطَأِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ الظَّاهِرُ الْجَلِيُّ: الَّذِي لَا يَسُوغُ عَنْهُ الْعُدُولُ؛ وَمِنْهُ الْخَفِيُّ: الَّذِي يَسُوغُ فِيهِ الِاجْتِهَادُ لِلْعُلَمَاءِ الْعُدُولِ، وَقَامَ عُلَمَاءُ النَّقْلِ وَالنُّقَّادُ بِعِلْمِ الرِّوَايَةِ وَالْإِسْنَادِ، فَسَافَرُوا فِي ذَلِكَ إِلَى الْبِلَادِ، وَهَجَرُوا فِيهِ لَذِيذَ الرُّقَادِ، وَفَارَقُوا الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَأَنْفَقُوا فِيهِ الطَّارِفَ وَالتِّلَادَ[1]، وَصَبَرُوا فِيهِ عَلَى النَّوَائِبِ، وَقَنَعُوا مِنْ الدُّنْيَا بِزَادِ الرَّاكِبِ، وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ، وَالْقِصَصِ الْمَأْثُورَةِ، مَا هُوَ عِنْدَ أَهْلِهِ مَعْلُومٌ، وَلِمَنْ طَلَبَ مَعْرِفَتَهُ مَعْرُوفٌ مَرْسُومٌ، بِتَوَسُّدِ أَحَدِهِمْ التُّرَابَ، وَتَرْكِهِمْ لَذِيذَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَتَرْكِ مُعَاشَرَةِ الْأَهْلِ وَالْأَصْحَابِ، وَالتَّصَبُّرِ عَلَى مَرَارَةِ الِاغْتِرَابِ، وَمُقَاسَاةِ الْأَهْوَالِ الصِّعَابِ، أَمْرٌ حَبَّبَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ، وَحَلَّاهُ لِيَحْفَظَ بِذَلِكَ دِينَ اللهِ. (١/ ٨).

دعوة النبي ﷺ لأهل الحديث

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْأُمَّةَ أَنْ يُبَلِّغَ عَنْهُ مَنْ شَهِدَ لِمَنْ غَابَ، وَدَعَا لِلْمُبَلِّغِينَ بِالدُّعَاءِ الْمُسْتَجَابِ، فَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً؛ وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ؛ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[2].

---

(١) **الطارف**: المال الحديث المستفاد، ولم يكن أَصْليًّا من مِيراثٍ ولا اعتقار. **والتلاد**: المال القديم الأصلي الذي ولد عندك.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) في كتاب أحاديث الأنبياء، عن عبدالله بن عمرو.

وَقَالَ أَيْضًا فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»(١)، وَقَالَ أَيْضًا: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ؛ ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»(٢).

وَفِي هَذَا دُعَاءٌ مِنْهُ لِمَنْ بَلَّغَ حَدِيثَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَقِيهًا، وَدُعَاءٌ لِمَنْ بَلَّغَهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَمِعُ أَفْقَهَ مِنَ الْمُبَلِّغِ؛ لِمَا أُعْطِيَ الْمُبَلِّغُونَ مِنَ النَّضْرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ(٣): «لَا تَجِدُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَّا وَفِي وَجْهِهِ نَضْرَةٌ؛ لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

يُقَالُ: نَضَرَ وَنَضُرَ، وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ يُعَظِّمُونَ نَقَلَةَ الْحَدِيثِ حَتَّى قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِذَا رَأَيْت رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ فَكَأَنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وَإِنَّمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ هَذَا؛ لِأَنَّهُمْ فِي مَقَامِ الصَّحَابَةِ مِنْ تَبْلِيغِ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ أَيْضًا: «أَهْلُ الْحَدِيثِ حَفِظُوا فَلَهُمْ عَلَيْنَا الْفَضْلُ؛ لِأَنَّهُمْ حَفِظُوا لَنَا». (١/ ١١).

فائدة: سبب الاجتماع والافتراق

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى:١٤]، فَأَخْبَرَ أَنَّ تَفَرُّقَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ الَّذِي بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ؛ فَإِنَّ اللهَ مَا كَانَ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ، حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١) في كتاب الحج، ومسلم (١٦٧٩) في كتاب القسامة، عن أبي بكرة.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣)، وابن ماجه (٢٣٠)، عن زيد بن ثابت، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤٠٤).

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (٢٨).

وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا بَغْيًا، وَالْبَغْيُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ...[1]: الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ؛ وَهَذَا بِخِلَافِ التَّفَرُّقِ عَنْ اجْتِهَادٍ لَيْسَ فِي عِلْمٍ، وَلَا قَصَدَ بِهِ الْبَغْيَ، كَتَنَازُعِ الْعُلَمَاءِ السَّائِغِ، وَالْبَغْيُ إِمَّا تَضْيِيعٌ لِلْحَقِّ، وَإِمَّا تَعَدٍّ لِلْحَدِّ؛ فَهُوَ إِمَّا تَرْكُ وَاجِبٍ، وَإِمَّا فِعْلُ مُحَرَّمٍ؛ فَعُلِمَ أَنَّ مُوجِبَ التَّفَرُّقِ هُوَ ذَلِكَ.

وَهَذَا كَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة:١٤]، فَأَخْبَرَ أَنَّ نِسْيَانَهُمْ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ - وَهُوَ تَرْكُ الْعَمَلِ بِبَعْضِ مَا أُمِرُوا بِهِ - كَانَ سَبَبًا لِإِغْرَاءِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ، وَهَكَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي أَهْلِ مِلَّتِنَا، مِثْلَمَا نَجِدُهُ بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمُتَنَازِعَةِ فِي أُصُولِ دِينِهَا، وَكَثِيرٍ مِنْ فُرُوعِهِ، مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَمِثْلَمَا نَجِدُهُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَبَيْنَ الْعِبَادِ؛ مِمَّنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الموسوية أَوْ العيسوية، حَتَّى يَبْقَى فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ الْأُمَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَالَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ: لَيْسَتْ الْأُخْرَى عَلَى شَيْءٍ.

كَمَا نَجِدُ الْمُتَفَقِّهَ الْمُتَمَسِّكَ مِنَ الدِّينِ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَالْمُتَصَوِّفَ الْمُتَمَسِّكَ مِنْهُ بِأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَنْفِي طَرِيقَةَ الْآخَرِ، وَيَدَّعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ، أَوْ يُعْرِضُ عَنْهُ إِعْرَاضَ مَنْ لَا يَعُدُّهُ مِنَ الدِّينِ؛ فَتَقَعُ بَيْنَهُمَا الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَهَارَةِ الْقَلْبِ، وَأَمَرَ بِطَهَارَةِ الْبَدَنِ، وَكِلَا الطَّهَارَتَيْنِ مِنَ الدِّينِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَأَوْجَبَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦]، وَقَالَ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وَقَالَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]،

---

(١) بياض في الأصل.

وَقَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ [المائدة:٤١]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة:٢٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٣]، فَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَعَبِّدَةِ، إنَّمَا هِمَّتُهُ طَهَارَةَ الْبَدَنِ فَقَطْ، وَيَزِيدُ فِيهَا عَلَى الْمَشْرُوعِ اهْتِمَامًا وَعَمَلًا، وَيَتْرُكُ مِنْ طَهَارَةِ الْقَلْبِ مَا أُمِرَ بِهِ؛ إيجَابًا أَوْ اسْتِحْبَابًا، وَلَا يَفْهَمُ مِنْ الطَّهَارَةِ إلَّا ذَلِكَ.

وَنَجِدُ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ، إنَّمَا هَمَّتُهُ طِهَارَةُ الْقَلْبِ فَقَطْ؛ حَتَّى يَزِيدَ فِيهَا عَلَى الْمَشْرُوعِ اهْتِمَامًا وَعَمَلًا؛ وَيَتْرُكُ مِنْ طَهَارَةِ الْبَدَنِ مَا أُمِرَ بِهِ؛ إيجَابًا أَوْ اسْتِحْبَابًا، فَالْأَوَّلُونَ يَخْرُجُونَ إلَى الْوَسْوَسَةِ الْمَذْمُومَةِ فِي كَثْرَةِ صَبِّ الْمَاءِ، وَتَنْجِيسِ مَا لَيْسَ بِنَجِسٍ، وَاجْتِنَابِ مَا لَا يُشْرَعُ اجْتِنَابُهُ، مَعَ اشْتِمَالِ قُلُوبِهِمْ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنْ الْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَالْغِلِّ لِإِخْوَانِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ مُشَابَهَةٌ بَيِّنَةٌ لِلْيَهُودِ، وَالْآخَرُونَ يَخْرُجُونَ إلَى الْغَفْلَةِ الْمَذْمُومَةِ، فَيُبَالِغُونَ فِي سَلَامَةِ الْبَاطِنِ حَتَّى يَجْعَلُونَ الْجَهْلَ بِمَا تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ مِنْ الشَّرِّ الَّذِي يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ، مِنْ سَلَامَةِ الْبَاطِنِ، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ سَلَامَةِ الْبَاطِنِ مِنْ إرَادَةِ الشَّرِّ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَبَيْنَ سَلَامَةِ الْقَلْبِ مِنْ مَعْرِفَةِ الشَّرِّ الْمَعْرِفَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا، ثُمَّ مَعَ هَذَا الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ قَدْ لَا يَجْتَنِبُونَ النَّجَاسَاتِ، وَيُقِيمُونَ الطَّهَارَةَ الْوَاجِبَةَ، مُضَاهَاةً لِلنَّصَارَى، وَتَقَعُ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ بِسَبَبِ تَرْكِ حَظٍّ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَالْبَغْيِ الَّذِي هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، إمَّا تَفْرِيطًا وَتَضْيِيعًا لِلْحَقِّ، وَإِمَّا عُدْوَانًا وَفِعْلًا لِلظُّلْمِ، وَالْبَغْيُ تَارَةً يَكُونُ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي حُقُوقِ اللهِ، وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى:١٤]، فَإِنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ بَغَتْ عَلَى الْأُخْرَى، فَلَمْ تَعْرِفْ حَقَّهَا الَّذِي بِأَيْدِيهَا، وَلَمْ تَكُفَّ عَنْ الْعُدْوَانِ عَلَيْهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة:٢١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية:١٦] الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى فِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، وَقَالَ: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٠-٣٢]؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَعْبُدُ إلَهًا يَهْوَاهُ. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى:١٣]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥١-٥٣]، فَظَهَرَ أَنَّ سَبَبَ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ جَمْعُ الدِّينِ وَالْعَمَلُ بِهِ كُلِّهِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا أَمَرَ بِهِ بَاطِنًا، وَظَاهِرًا، وَسَبَبُ الْفُرْقَةِ: تَرْكُ حَظٍّ مِمَّا أُمِرَ الْعَبْدُ بِهِ، وَالْبَغْيُ بَيْنَهُمْ.

وَنَتِيجَةُ الْجَمَاعَةِ: رَحْمَةُ الله، وَرِضْوَانُهُ، وَصَلَوَاتُهُ، وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبَيَاضُ الْوُجُوهِ.

وَنَتِيجَةُ الْفُرْقَةِ: عَذَابُ الله، وَلَعْنَتُهُ، وَسَوَادُ الْوُجُوهِ، وَبَرَاءَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ. (١/ ١٧).

احرص على ما ينفعك

إِذَا كُنْتَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَصْلَحَتِكَ؛ وَلَا قَادِرٍ عَلَيْهَا؛ وَلَا مُرِيدٍ لَهَا كَمَا يَنْبَغِي؛ فَغَيْرُكَ مِنَ النَّاسِ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ عَالِمًا بِمَصْلَحَتِكَ؛ وَلَا قَادِرًا عَلَيْهَا؛ وَلَا مُرِيدًا لَهَا؛ وَاللهُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَلَا تَعْلَمُ؛ وَيَقْدِرُ وَلَا تَقْدِرُ؛ وَيُعْطِيكَ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ. (١/ ٣٣).

فائدة: الفرق بين الحاجتين

وَالْعَبْدُ كُلَّمَا كَانَ أَذَلَّ للهِ، وَأَعْظَمَ افْتِقَارًا إِلَيْهِ، وَخُضُوعًا لَهُ: كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ، وَأَعَزَّ لَهُ، وَأَعْظَمَ لِقَدْرِهِ، **فَأَسْعَدُ الْخَلْقِ: أَعْظَمُهُمْ عُبُودِيَّةً للهِ.**

وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ فَكَمَا قِيلَ: احْتَجْ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ، وَاسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ.

فَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ قَدْرًا وَحُرْمَةً عِنْدَ الْخَلْقِ: إِذَا لَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِمْ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِمْ مَعَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ كُنْتَ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ، وَمَتَى احْتَجْتَ إِلَيْهِمْ - وَلَوْ فِي شَرْبَةِ مَاءٍ - نَقَصَ قَدْرُكَ عِنْدَهُمْ بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ، وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ.

وَلِهَذَا قَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ[1]، لَمَّا سُئِلَ: فِيمَ السَّلَامَةُ مِنَ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَنْ يَكُونَ شَيئك لَهُمْ مَبْذُولًا وَتَكُونَ مِنْ شَيْئِهِمْ آيِسًا».

---

(١) هو حَاتِمٌ الأَصَمُّ بنُ عنوَانَ البَلْخِيُّ الزَّاهِد، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، الوَاعِظُ، النَّاطِقُ بِالحِكْمَةِ، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم، كان يقال له: لقمان هذه الأمة. وللإمام أحمد كلمة نحو كلمة حاتم، فقِيْلَ: إِنَّ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ خَرَجَ إِلَى حَاتِمٍ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ التَّخَلُّصُ مِنَ النَّاسِ؟ قَالَ: أَنْ تُعطِيَهُم مَالَكَ، وَلاَ تَأْخُذَ مِنْ مَالِهِم، وَتَقضِيَ حُقُوْقَهُم، وَلاَ تَستَقْضِيَ أَحَدًا حَقَّكَ، وَتَحْتَمِلَ مَكْرُوْهَهُم، وَلاَ تُكرِهَهُم عَلَى شَيْءٍ، وَلَيتَكَ تَسْلَمُ. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٨٤) للإمام الذهبي.

لَكِنْ إِنْ كُنْتَ مُعَوِّضًا لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَكَانُوا مُحْتَاجِينَ، فَإِنْ تَعَادَلَتْ الْحَاجَتَانِ تَسَاوَيْتُمْ كَالْمُتَبَايِعَيْنِ لَيْسَ لِأَحَدِهِمَا فَضْلٌ عَلَى الْآخَرِ، وَإِنْ كَانُوا إلَيْكَ أَحْوَجَ خَضَعُوا لَكَ.

فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ: أَكْرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ، وَأَفْقَرُ مَا تَكُونُ إلَيْهِ.

وَالْخَلْقُ: أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَيْهِمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ مُحْتَاجُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ حَوَائِجَكَ، وَلَا يَهْتَدُونَ إلَى مَصْلَحَتِكَ، بَلْ هُمْ جَهَلَةٌ بِمَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ، فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ إلَى مَصْلَحَةِ غَيْرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، وَلَا يُرِيدُونَ مِنْ جِهَةِ أَنْفُسِهِمْ، فَلَا عِلْمَ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إرَادَةَ.

وَالرَّبُّ تَعَالَى يَعْلَمُ مَصَالِحَكَ وَيَقْدِرُ عَلَيْهَا، وَيُرِيدُهَا رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَذَلِكَ صِفَتُهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ، لَا شَيْءَ آخَرَ جَعَلَهُ مُرِيدًا رَاحِمًا، بَلْ رَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ، لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا إلَّا لِحَاجَتِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ وَالْحِكْمَةُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ إلَّا ذَلِكَ، لَكِنَّ السَّعِيدَ مِنْهُمْ الَّذِي يَعْمَلُ لِمَصْلَحَتِهِ الَّتِي هِيَ مَصْلَحَةٌ، لَا لِمَا يَظُنُّهُ مَصْلَحَةً وَلَيْسَ كَذَلِكَ.

فَهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: ظَالِمٌ، وَعَادِلٌ، وَمُحْسِنٌ.

فَالظَّالِمُ: الَّذِي يَأْخُذُ مِنْك مَالًا أَوْ نَفْعًا، وَلَا يُعْطِيكَ عِوَضَهُ، أَوْ يَنْفَعُ نَفْسَهُ بِضَرَرِكَ.

وَالْعَادِلُ: الْمُكَافِئُ، كالبايع، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، كُلٌّ بِهِ يَقُومُ الْوُجُودُ، وَكُلٌّ منهما مُحْتَاجٌ إلَى صَاحِبِهِ، كَالزَّوْجَيْنِ وَالْمُتَبَايِعَيْنِ وَالشَّرِيكَيْنِ.

وَالْمُحْسِنُ: الَّذِي يُحْسِنُ لَا لِعِوَضٍ يَنَالُهُ مِنْكَ. فَهَذَا إِنَّمَا عَمِلَ لِحَاجَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ، وَهُوَ انْتِفَاعُهُ بِالْإِحْسَانِ، وَمَا يَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ مِمَّا تُحِبُّهُ نَفْسُهُ مِنَ الْأَجْرِ، أَوْ طَلَبِ مَدْحِ الْخَلْقِ وَتَعْظِيمِهِمْ، أَوِ التَّقَرُّبِ إِلَيْكَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَبِكُلِّ حَالٍ: مَا أَحْسَنَ إِلَيْكَ إِلَّا لِمَا يَرْجُو مِنَ الِانْتِفَاعِ، وَسَائِرُ الْخَلْقِ إِنَّمَا يُكْرِمُونَكَ وَيُعَظِّمُونَكَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْكَ، وَانْتِفَاعِهِمْ بِكَ، إِمَّا بِطَرِيقِ الْمُعَاوَضَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَبَايِعَيْنِ وَالْمُتَشَارِكَيْنِ وَالزَّوْجَيْنِ مُحْتَاجٌ إِلَى الْآخَرِ، وَالسَّيِّدُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَمَالِيكِهِ، وَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَالْمُلُوكُ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْجُنْدِ، وَالْجُنْدُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى هَذَا بُنِيَ أَمْرُ الْعَالَمِ، وَأَمَّا بِطَرِيقِ الْإِحْسَانِ مِنْكَ إِلَيْهِمْ، فَأَقْرِبَاؤُكَ وَأَصْدِقَاؤُكَ وَغَيْرُهُمْ إِذَا أَكْرَمُوكَ لِنَفْسِكَ، فَهُمْ إِنَّمَا يُحِبُّونَكَ وَيُكْرِمُونَكَ لِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ بِنَفْسِكَ مِنَ الْكَرَامَةِ، فَلَوْ قَدْ وَلَّيْتَ وَلَّوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا يُحِبُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَأَغْرَاضَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى مَنْ دُونَهُمْ تَجِدُ أَحَدَهُمْ سَيِّدًا مُطَاعًا، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ، وَإِذَا أُوذِيَ أَحَدُهُمْ بِسَبَبِ سَيِّدِهِ أَوْ مَنْ يُطِيعُهُ تَغَيَّرَ الْأَمْرُ بِحَسْبِ الْأَحْوَالِ، وَمَتَى كُنْتَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِمْ نَقَصَ الْحُبُّ وَالْإِكْرَامُ وَالتَّعْظِيمُ بِحَسْبِ ذَلِكَ، وَإِنْ قَضَوْا حَاجَتَكَ.

وَالرَّبُّ تَعَالَى: يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ مُكَافِيًا لَهُ، أَوْ مُتَفَضِّلًا عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ، إِذَا رُفِعَتْ مَائِدَتُهُ: «الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي أمامة[1]. بَلْ، وَلَا يَزَالُ اللهُ هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى الْعَبْدِ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي

(١) أخرجه البخاري (٥٤٥٩) في كتاب الأطعمة، باب: ما يقول إذا فرغ من طعامه.

ذَلِكَ؛ بَلْ مَا بِالْخَلْقِ كُلِّهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ؛ وَسَعَادَةُ الْعَبْدِ فِي كَمَالِ افْتِقَارِهِ إِلَى اللهِ، وَاحْتِيَاجِهِ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَشْهَدَ ذَلِكَ، وَيَعْرِفَهُ، وَيَتَّصِفَ مَعَهُ بِمُوجَبِهِ، أَيْ بِمُوجَبِ عِلْمِهِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَفْتَقِرُ وَلَا يَعْلَمُ، مِثْلَ أَنْ يَذْهَبَ مَالُهُ وَلَا يَعْلَمُ، بَلْ يَظُنُّهُ بَاقِيًا، فَإِذَا عَلِمَ بِذَهَابِهِ صَارَ لَهُ حَالٌ آخَرُ، فَكَذَلِكَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءُ إِلَى اللهِ، لَكِنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ فِي جَهْلٍ بِهَذَا وَغَفْلَةٍ عَنْهُ وَإِعْرَاضٍ عَنْ تَذَكُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَالْمُؤْمِنُ يُقِرُّ بِذَلِكَ وَيَعْمَلُ بِمُوجَبِ إِقْرَارِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ عِبَادُ اللهِ. (١/ ٤١).

الانحراف والغلو

وَكَانَ السَّلَفُ يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ انْحَرَفَ مِنْ الْعُلَمَاءِ عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ: فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ، وَمَنْ انْحَرَفَ مِنْ الْعُبَّادِ: فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى.

كَمَا يُرَى فِي أَحْوَالِ مُنْحَرِفَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ: مِنْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَقَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وَالْبُخْلِ بِالْعِلْمِ، وَالْكِبْرِ، وَأَمْرِ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَنِسْيَانِ أَنْفُسِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَمَا يُرَى فِي مُنْحَرِفَةِ أَهْلِ الْعِبَادَةِ وَالْأَحْوَالِ؛ مِنْ الْغُلُوِّ فِي الْأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ، وَالِابْتِدَاعِ فِي الْعِبَادَاتِ، والرهبانية، وَالصُّوَرِ وَالْأَصْوَاتِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١). وَلِهَذَا حَقَّقَ اللهُ لَهُ نَعْتَ الْعُبُودِيَّةِ فِي أَرْفَعِ مَقَامَاتِهِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، وَلِهَذَا يُشْرَعُ فِي

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) في كتاب أحاديث الأنبياء، من حديث عمر بن الخطاب، ورواه البخاري (٦٨٣٠) في كتاب الحدود عن ابن عباس.

التَّشَهُّدِ، وَفِي سَائِرِ الْخُطَبِ الْمَشْرُوعَةِ؛ كَخُطَبِ الْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ، وَخُطَبِ الْحَاجَاتِ عِنْدَ النِّكَاحِ وَغَيْرِهِ، أَنْ نَقُولَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَقِّقُ عُبُودِيَّتَهُ لِئَلَّا تَقَعَ الْأُمَّةُ فِيمَا وَقَعَتْ فِيهِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ؛ مِنْ دَعْوَى الْأُلُوهِيَّةِ، حَتَّى قَالَ لَهُ رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(١)، وَقَالَ أَيْضًا لِأَصْحَابِهِ: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، بَلْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»(٢)، وَقَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»(٣)، وَقَالَ: «**اللهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(٤)، وَقَالَ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»(٥).

.. فَمَنْ تَوَهَّمَ فِي نَبِيِّنَا أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ شَيْئًا مِنَ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ النَّصَارَى، وَإِنَّمَا حُقُوقُ الْأَنْبِيَاءِ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَنْهُمْ. قَالَ تَعَالَى فِي خِطَابِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة:١٢]، وَالتَّعْزِيرُ: النَّصْرُ وَالتَّوْقِيرُ وَالتَّأْيِيدُ. (١/ ٦٧).

---

(١) حسن. أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وابن ماجه (٢١١٧)، وانظر تخريجه في «الصحيحة» (١٣٩).

(٢) انظر تخريجه في «الصحيحة» (١٣٧) للألباني، وسوف يأتي أيضًا صفحة [٥٢].

(٣) حسن. أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود (٢٠٤٢) عن أبي هريرة.

(٤) صحيح. أخرجه مالك (١٧٣) عن عطاء بن يسار مرسلا، وانظر «التمهيد» (٥/ ٤١) لابن عبدالبر، وانظر تخريجه في «تحذير الساجد» (٢٥) للعلامة الألباني.

(٥) أخرجه مسلم (٥٣٢) في كتاب المساجد، باب: النهي في بناء المساجد على القبور، من حديث جندب البجلي.

مجاهدون

❁ الرَّادُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ مُجَاهِدٌ. (٤/ ١٣).

❁ مَنْ كَانَ قَدْ نَفَعَ الْمُجَاهِدِينَ بِنَفْعٍ اسْتَعَانُوا بِهِ عَلَى تَمَامِ جِهَادِهِمْ جُعِلَ مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَحْضُرْ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُسْلِمُونَ يَدٌ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيَرُدُّ مُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ**»(١)، فَإِنَّ الْمُتَسَرِّيَ إِنَّمَا تَسَرَّى بِقُوَّةِ الْقَاعِدِ، فَالْمُعَاوِنُونَ لِلْمُجَاهِدِينَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ. (١٧/ ٤٩٦).

❁ مَنْ سَلَكَ فِي دَفْعِ عَدَاوَتِهِمْ (الجن والشياطين) مَسْلَكَ الْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ، بَلْ هُوَ مُطِيعٌ للهِ وَرَسُولِهِ فِي نَصْرِ الْمَظْلُومِ وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفِيسِ عَنْ الْمَكْرُوبِ، بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شِرْكٌ بِالْخَالِقِ، وَلَا ظُلْمٌ لِلْمَخْلُوقِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا تُؤْذِيهِ الْجِنُّ؛ إِمَّا لِمَعْرِفَتِهِمْ بِأَنَّهُ عَادِلٌ؛ وَإِمَّا لِعَجْزِهِمْ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ الْجِنُّ مِنْ الْعَفَارِيتِ -وَهُوَ ضَعِيفٌ- فَقَدْ تُؤْذِيهِ، فَيَنْبَغِي لِمِثْلِ هَذَا أَنْ يَحْتَرِزَ بِقِرَاءَةِ الْعَوْذِ؛ مِثْلَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَالْمُعَوِّذَاتِ وَالصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُقَوِّي الْإِيمَانَ، وَيُجَنِّبُ الذُّنُوبَ الَّتِي بِهَا يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ، فَلْيَحْذَرْ أَنْ يَنْصُرَ الْعَدُوَّ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ فَوْقَ قُدْرَتِهِ؛ فَلَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، فَلَا يَتَعَرَّضْ مِنْ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْتَصِرُ بِهِ عَلَيْهِمْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ. (١٩/ ٥٣).

❁ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا؛ وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»(٢)، ثُمَّ الْقَائِلُ فِي ذَلِكَ بِعِلْمٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ، فَلَوْ تَكَلَّمَ بِحَقٍّ لَقَصْدِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، أَوْ الْفَسَادِ،

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود (٢٧٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٩) في كتاب البيوع، ومسلم (١٥٣٢) في كتاب البيوع، عن حكيم بن حزام.

كَانَ بِمَنْزِلَةِ الَّذِي يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَرِيَاءً. وَإِنْ تَكَلَّمَ لِأَجْلِ اللهِ تَعَالَى، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ كَانَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ خُلَفَاءِ الرُّسُلِ. (٢٨/ ٢٣٥).

فائدة: الدعاء

وَالدُّعَاءُ للهِ وَحْدَهُ، سَوَاءٌ كَانَ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ، أَوْ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨-٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:١٤]، وَقَالَ: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٣]، وَقَالَ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام:٥٢]، وَذَمَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ فَقَالَ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧].

رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ قَوْمًا كَانُوا يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَعُزَيْرًا، فَقَالَ اللهُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ يَخَافُونَ اللهَ، وَيَرْجُونَهُ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ كَمَا تَخَافُونَهُ أَنْتُمْ، وَتَرْجُونَهُ، وَتَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٦٧]، وَقَالَ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل:٦٢]، وَقَالَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان:٦٨].

وَتَوْحِيدُ اللهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ جِدًّا، بَلْ هُوَ قَلْبُ الْإِيمَانِ، وَأَوَّلُ الْإِسْلَامِ، وَآخِرُهُ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»(١)، وَقَالَ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عِنْدَ الْمَوْتِ أَحَدٌ إِلَّا وَجَدَ رُوحُهُ لَهَا رَوْحًا**»(٢)، وَقَالَ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»(٣)، وَهُوَ قَلْبُ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ. وَسَائِرُ الْأَعْمَالِ كَالْجَوَارِحِ لَهُ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ: فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ. وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(٤)، فَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ النِّيَّةَ عَمَلُ الْقَلْبِ، وَهِيَ أَصْلُ الْعَمَلِ. وَإِخْلَاصُ الدِّينِ للهِ، وَعِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ، وَمُتَابَعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا جَاءَ بِهِ؛ هُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَلِهَذَا أَنْكَرْنَا عَلَى الشَّيْخِ يَحْيَى الصرصري مَا يَقُولُهُ فِي قَصَائِدِهِ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الِاسْتِغَاثَةِ بِهِ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: بِكَ أَسْتَغِيثُ، وَأَسْتَعِينُ، وَأَسْتَنْجِدُ. وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ اسْتِنْجَادِ الصَّالِحِينَ والمتشبهين بِهِمْ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، فَإِنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِكَ فِي مَجَالِسَ عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، وَبَيَّنْتُ لِلنَّاسِ التَّوْحِيدَ، وَنَفَعَ اللهُ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ. (١/ ٧١).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥) في كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) في كتاب الإيمان، من حديث ابن عمر.

(٢) **صحيح بطرقه**. أخرجه أحمد (١/ ٣٧)، والبيهقي في السنن الكبرى، من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) **حسن**. أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٧٩٨) وغيرهما، من حديث معاذ بن جبل.

(٤) أخرجه البخاري (١) في كتاب بدء الوحي، من حديث عمر بن الخطاب.

فائدة: أصول العبادة

الْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى الشَّرْعِ وَالِاتِّبَاعِ، لَا عَلَى الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَالثَّانِي- أَنْ نَعْبُدَهُ بِمَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، لَا نَعْبُدَهُ بِالْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الْآيَةَ [الجاثية:١٨-١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، لَا يَعْبُدُهُ بِالْأُمُورِ الْمُبْتَدَعَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ العرباض بْنِ سَارِيَةَ.

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»(١).

وَفِي مُسْلِمٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «خَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٢).

وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَا يُصَلِّي إِلَّا للهِ، وَلَا يَصُومُ إِلَّا لله، وَلَا يَحُجُّ إِلَّا بَيْتَ الله، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى الله، وَلَا يَخَافُ إِلَّا الله، وَلَا يَنْذِرُ إِلَّا لله، وَلَا يَحْلِفُ إِلَّا بِاللَّه. (١/ ٨٠).

---

(١) **صحيح**. ولفظه: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين..» أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، والحاكم (١/ ٩٦) وصححه، ووافقه الذهبي، والألباني، وانظر تخريج الحديث بتوسع في «الصحيحة» (٩٣٧)، ثم «النصيحة» (٣١) للعلامة الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧) في كتاب الجمعة، من حديث جابر.

أعمال شيطانية

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ النَّذْرَ لِلْمَخْلُوقِينَ يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةً، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً، فَهُوَ مِنْ الضَّالِّينَ، كَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ عِبَادَةَ الْمَخْلُوقِينَ تَجْلِبُ لَهُمْ مَنْفَعَةً، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ مَضَرَّةً.

وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَدْ تَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيَاطِينُ، وَقَدْ تُخَاطِبُهُمْ بِكَلَامٍ، وَقَدْ تَحْمِلُ أَحَدَهُمْ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ تُخْبِرُهُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، وَقَدْ تَأْتِيهِ بِنَفَقَةٍ، أَوْ طَعَامٍ، أَوْ كِسْوَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا جَرَى مِثْلُ ذَلِكَ لِعُبَّادِ الْأَصْنَامِ مِنْ الْعَرَبِ، وَغَيْرِ الْعَرَبِ، وَهَذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَغَيْرِ هَذَا الزَّمَانِ، لِلضَّالِّينَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إمَّا بِعِبَادَةِ غَيْرِ الله، وَإِمَّا بِعِبَادَةٍ لَمْ يَشْرَعْهَا الله.

وَهَؤُلَاءِ إذَا أَظْهَرَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ أَنْ يَكُونَ حَالًا شَيْطَانِيًّا، أَوْ حَالًا بهتانيًّا، فَخَوَاصُّهُمْ تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ، كَمَا يَقَعُ لِبَعْضِ الْعُقَلَاءِ مِنْهُمْ، وَقَدْ يَحْصُلُ ذَلِكَ لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ، لَكِنْ لَا تَقْتَرِنُ بِهِمْ الشَّيَاطِينُ إلَّا مَعَ نَوْعٍ مِنْ الْبِدْعَةِ، إمَّا كفر، وَإِمَّا فِسْق، وَإِمَّا جَهْل بِالشَّرْعِ.

فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَصْدُهُ إغْوَاءٌ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، فَإِنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُمْ كُفَّارًا جَعَلَهُمْ كُفَّارًا، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ إلَّا عَلَى جَعْلِهِمْ فُسَّاقًا أَوْ عُصَاةً، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ إلَّا عَلَى نَقْصِ عَمَلِهِمْ وَدِينِهِمْ بِبِدْعَةٍ يَرْتَكِبُونَهَا يُخَالِفُونَ بِهَا الشَّرِيعَةَ الَّتِي بَعَثَ اللهُ بِهَا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْتَفِعُ مِنْهُمْ بِذَلِكَ.

وَلِهَذَا قَالَ الْأَئِمَّةُ: لَوْ رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا وُقُوفَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلِهَذَا يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، وَتَكُونُ الشَّيَاطِينُ هِيَ الَّتِي تَحْمِلُهُ، لَا يَكُونُ مِنْ كَرَامَاتِ أَوْلِيَاءِ الله الْمُتَّقِين.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ: مَنْ يَحْمِلُهُ الشَّيْطَانُ إِلَى عَرَفَاتٍ فَيَقِفُ مَعَ النَّاسِ، ثُمَّ يَحْمِلُهُ فَيَرُدُّهُ إِلَى مَدِينَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَيَظُنُّ هَذَا الْجَاهِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ أَوْلِيَاءِ الله.

وَلَا يَعْرِفُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ مِنْ هَذَا، وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا طَاعَةٌ وَقُرْبَةٌ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ؛ لِأَنَّ الْحَجَّ الَّذِي أَمَرَ الله بِهِ وَرَسُولُهُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنَ الْإِحْرَامِ، وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ، وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَنْ يَطُوفَ بَعْدَ ذَلِكَ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، فَإِنَّهُ رُكْنٌ لَا يَتِمُّ الْحَجُّ إِلَّا بِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ بمزدلفة، وَيَرْمِيَ الْجِمَارَ، وَيَطُوفَ لِلْوَدَاعِ.

وَعَلَيْهِ اجْتِنَابُ الْمَحْظُورَاتِ وَالْإِحْرَامُ مِنَ الْمِيقَاتِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الْحَجِّ.

وَهَؤُلَاءِ الضَّالُّونَ الَّذِينَ يُضِلُّهُمُ الشَّيْطَانُ، يَحْمِلُهُمْ فِي الْهَوَاءِ، يَحْمِلُ أَحَدَهُمْ بِثِيَابِهِ فَيَقِفُ بِعَرَفَةَ، وَيَرْجِعُ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، حَتَّى يُرَى فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ بِبَلَدِهِ وَيُرَى بِعَرَفَةَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَصَوَّرُ الشَّيْطَانُ بِصُورَتِهِ، وَيَقِفُ بِعَرَفَةَ فَيَرَاهُ مَنْ يَعْرِفُهُ وَاقِفًا فَيَظُنُّ أَنَّهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَقَفَ بِعَرَفَةَ، فَإِذَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الشَّيْخُ أَنَا لَمْ أَذْهَبْ الْعَامَ إِلَى عَرَفَةَ ظَنَّ أَنَّهُ مَلَكٌ خُلِقَ عَلَى صُورَةِ ذَلِكَ الشَّيْخِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ تَمَثَّلَ عَلَى صُورَتِهِ، وَمِثْلُ هَذَا وَأَمْثَالِهِ يَقَعُ كَثِيرًا، وَهِيَ أَحْوَالٌ شَيْطَانِيَّةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]، وَذِكْرُ الرَّحْمَنِ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]، وَنِسْيَانُهَا هُوَ تَرْكُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِهَا، وَإِنْ حَفِظَ حُرُوفَهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ». وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

فَمَنْ اتَّبَعَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ هَدَاهُ اللهُ وَأَسْعَدَهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ ضَلَّ وَشَقِيَ وَأَضَلَّهُ الشَّيْطَانُ وَأَشْقَاهُ.

فَالْأَحْوَالُ الرَّحْمَانِيَّةُ وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ يَكُونُ سَبَبُهُ:

١- الْإِيمَانَ، فَإِنَّ هَذِهِ حَالُ أَوْلِيَائِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

٢- وَتَكُونُ نِعْمَةً للهِ عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَتَكُونُ الْحُجَّةَ فِي الدِّينِ، وَالْحَاجَةَ فِي الدُّنْيَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِثْلَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَتْ الْحُجَّةَ فِي الدِّينِ، وَالْحَاجَةَ لِلْمُسْلِمِينَ، مِثْلُ الْبَرَكَةِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، كَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، وَمِثْلُ نُزُولِ الْمَطَرِ بِالِاسْتِسْقَاءِ، وَمِثْلُ قَهْرِ الْكُفَّارِ، وَشِفَاءِ الْمَرِيضِ بِالدُّعَاءِ، وَمِثْلُ الْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ وَالنَّافِعَةِ بِمَا غَابَ عَنْ الْحَاضِرِينَ، وَأَخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ لَا تَكْذِبُ قَطُّ.

وَأَمَّا أَصْحَابُ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ فَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ، يَكْذِبُونَ تَارَةً، وَيَصْدُقُونَ أُخْرَى، وَلَا بُدَّ فِي أَعْمَالِهِمْ مِنْ مُخَالَفَةٍ لِلْأَمْرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢].

وَلِهَذَا يُوجَدُ الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ مُلَابِسًا الْخَبَائِثَ مِنْ النَّجَاسَاتِ وَالْأَقْذَارِ الَّتِي تُحِبُّهَا الشَّيَاطِينُ، وَمُرْتَكِبًا لِلْفَوَاحِشِ، أَوْ ظَالِمًا لِلنَّاسِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ حَرَّمَ: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ [الأعراف:٣٣].

وَأَوْلِيَاءُ الله هُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِضَاهُ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ، وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَهَذِهِ جُمْلَةٌ لَهَا بَسْطٌ طَوِيلٌ لَا يَتَّسِعُ لَهُ هَذَا الْمَكَانُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١/ ٨١).

لله الأمر من قبل ومن بعد

قَالَ الْفُضَيْل بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ عَرَفَ النَّاسَ اسْتَرَاحَ». يُرِيدُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ. (١/ ٩٣).

فائدة: محركات القلوب

وَلَابُدَّ مِنْ التَّنْبِيهِ عَلَى قَاعِدَةٍ تَحَرُّكِ الْقُلُوبِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَتَعْتَصِمُ بِهِ، فَتَقِلُّ آفَاتُهَا، أَوْ تَذْهَبُ عَنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ.

فَنَقُولُ: اعْلَمْ أَنَّ مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثَلَاثَةٌ: الْمَحَبَّةُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ. وَأَقْوَاهَا الْمَحَبَّةُ، وَهِيَ مَقْصُودَةٌ تُرَادُ لِذَاتِهَا، لِأَنَّهَا تُرَادُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِخِلَافِ الْخَوْفِ فَإِنَّهُ يَزُولُ فِي الْآخِرَةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وَالْخَوْفُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ الزَّجْرُ وَالْمَنْعُ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْ الطَّرِيقِ، فَالْمَحَبَّةُ تَلْقَى الْعَبْدَ فِي السَّيْرِ إِلَى مَحْبُوبِهِ، وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وَقُوَّتِهَا يَكُونُ سَيْرُهُ إِلَيْهِ.

وَالْخَوْفُ يَمْنَعُهُ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ طَرِيقِ الْمَحْبُوبِ، وَالرَّجَاءُ يَقُودُهُ، فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ، فَإِنَّهُ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُبُودِيَّةُ بِدُونِهِ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ لَا لِغَيْرِهِ. فَإِنْ قِيلَ فَالْعَبْدُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَدْ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ مَحَبَّةٌ تَبْعَثُهُ عَلَى طَلَبِ مَحْبُوبِهِ، فَأَيُّ شَيْءٍ يُحَرِّكُ الْقُلُوبَ؟ قُلْنَا: يُحَرِّكُهَا شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا- كَثْرَةُ الذِّكْرِ لِلْمَحْبُوبِ؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ ذِكْرِهِ تُعَلِّقُ الْقُلُوبَ بِهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِالذِّكْرِ الْكَثِيرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وَالثَّانِي- مُطَالَعَةُ آلَائِهِ وَنَعْمَائِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تَسْخِيرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهَا مِنْ الْأَشْجَارِ وَالْحَيَوَانِ، وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِ مِنْ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ؛ مِنْ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عِنْدَهُ بَاعِثًا.

وَكَذَلِكَ الْخَوْفُ تُحَرِّكُهُ مُطَالَعَةُ آيَاتِ الْوَعِيدِ وَالزَّجْرِ، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ وَنَحْوِهِ، وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ يُحَرِّكُهُ مُطَالَعَةُ الْكَرَمِ، وَالْحِلْمِ وَالْعَفْوِ، وَمَا وَرَدَ فِي الرَّجَاءِ، وَالْكَلَامُ فِي التَّوْحِيدِ وَاسِعٌ. (١/ ٩٥).

درر ذات عبر

❁ أَنْفَعُ الدُّعَاءِ وَأَعْظَمُهُ وَأَحْكَمُهُ دُعَاءَ الْفَاتِحَة. (٨/ ٢١٦).

❁ الْمُؤْمِنُ الْمَحْمُودُ الَّذِي يَصْبِرُ عَلَى مَا يُصِيبُهُ وَيَرْحَمُ النَّاسَ. (١٠/ ٤٧).

❁ مَحَبَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَأَكْبَرِ أُصُولِهِ، وَأَجَلِّ قَوَاعِدِهِ؛ بَلْ هِيَ أَصْلُ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ. (١٠/ ٤٨).

❁ الْعَبْدُ دَائِمًا بَيْنَ نِعْمَةٍ مِنْ اللهِ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى شُكْرٍ، وَذَنْبٍ مِنْهُ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ. (١٠/ ٨٨).

❁ كُلُّ مَا وَقَعَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَوَاطِرِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ فَكَرِهَهُ وَأَلْقَاهُ ازْدَادَ إِيمَانًا وَيَقِينًا، كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِذَنْبٍ فَكَرِهَهُ وَنَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ وَتَرَكَهُ للهِ ازْدَادَ صَلَاحًا وَبِرًّا وَتَقْوَى. (١٠/ ٧٦٧).

❁ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الدِّينِ بِلَا عِلْمٍ كَانَ كَاذِبًا وَإِنْ كَانَ لَا يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ. (١٠/ ٤٤٩).

❁ لَا تَنْظُرْ إِلَى كَثْرَةِ ذَمِّ النَّاسِ الدُّنْيَا ذَمًّا غَيْرَ دِينِيٍّ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْعَامَّةِ إِنَّمَا يَذُمُّونَهَا لِعَدَمِ حُصُولِ أَغْرَاضِهِمْ مِنْهَا. (٢٠/ ١٤٨).

❁ شَيْطَانَ الْجِنِّ إِذَا غَلَبَ وَسْوَسَ، وَشَيْطَانَ الْإِنْسِ إِذَا غَلَبَ كَذَبَ. (٢٢/ ٦٠٨).

❁ مَنْ كَانَ مُسْتَتِرًا بِمَعْصِيَةٍ، أَوْ مُسِرًّا لِبِدْعَةٍ غَيْرِ مُكَفِّرَةٍ فَإِنَّ هَذَا لَا يُهْجَرُ. (٢٤/ ١٧٥).

❁ الشَّرِيعَةُ مَبْنَاهَا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا. (١٠/ ٥١٢).

❁ [إن آخر آيتين من سورة البقرة]، فِيهِما مِنْ الْمَعَارِفِ وَحَقَائِقِ الْعُلُومِ مَا تَعْجِزُ عُقُولُ الْبَشَرِ عَنْ الْإِحَاطَةِ بِهِ. (١٤/ ١٤١).

❁ خَفَاءُ الْعِلْمِ بِمَا يُوجِبُ الشِّدَّةَ قَدْ يَكُونُ رَحْمَةً، كَمَا أَنَّ خَفَاءَ الْعِلْمِ بِمَا يُوجِبُ الرُّخْصَةَ قَدْ يَكُونُ عُقُوبَةً. (١٤/ ١٥٩).

❁ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالِمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِ الله. (١٥/ ٢٥).

❁ وَالنَّاسُ إِذَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ أَبْغَضَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. (١٥/ ١٢٨).

❁ [الله سبحانه] يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ، وَلَوْ عَلَى قَتْلِ الْحَيَّاتِ، وَيُحِبُّ السَّمَاحَةَ وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ تَمَرَاتٍ. (١٦/ ٣١٧).

❁ الشِّرْكُ أَعْظَمُ الْفَسَادِ، كَمَا أَنَّ التَّوْحِيدَ أَعْظَمُ الصَّلَاحِ. (١٨/ ١٦٢).

❁ نُورَ الْعَيْنِ لَا يُرَى إِلَّا مَعَ ظُهُورِ نُورٍ قُدَّامَهُ، فَكَذَلِكَ نُورُ الْعَقْلِ لَا يَهْتَدِي إِلَّا إِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ. (١/ ٦).

❁ جِمَاعُ الْحَسَنَاتِ الْعَدْلُ، وَجِمَاعَ السَّيِّئَاتِ الظُّلْمُ. (١/ ٨٦).

❁ تَجِدُ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ كُلَّمَا ظَهَرَ وَقَوِيَ كَانَتْ السُّنَّةُ وَأَهْلُهَا أَظْهَرَ وَأَقْوَى. (٤/ ٢٠).

❁ لَوْ لَمْ يَكُنْ الْعَفْوُ أَحَبَّ إلَيْهِ لَمَا ابْتُلِيَ بِالذَّنْبِ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ. (٤/ ٣٧٨).

❁ الَّذِي يَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَا يَتَّبِعُهُ غَاوٍ يُشْبِهُ الْيَهُودَ؛ وَالَّذِي يَعْبُدُ الله مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَشَرْعٍ: هُوَ ضَالٌّ يُشْبِهُ النَّصَارَى. (٧/ ٦٣٣).

❁ دَوَامُ النَّظَرِ بِالشَّهْوَةِ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ الْعِشْقِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَالْمُبَاشَرَةِ قَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ بِكَثِيرِ مِنْ فَسَادِ زِنًا لَا إصْرَارَ عَلَيْهِ. (١٥/ ٢٩٣).

❁ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ يُحْتَجُّ لَهَا بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، لَا يُحْتَجُّ بِهَا عَلَى الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ. (٢٦/ ٢٠٢).

❁ إذَا عُدِمَ الظِّلُّ فَسَدَ الْأَمْرُ كَعَدَمِ سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي بِهَا قِيَامُ الْأُمَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ[1]. (٣٥/ ٤٦).

❁ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ إلَّا قَوْلَ عَالِمٍ وَاحِدٍ وَحُجَّتَهُ، دُونَ قَوْلِ الْعَالِمِ الْآخَرِ وَحُجَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ الْعَوَامِّ الْمُقَلِّدِينَ؛ لَا مِنْ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يُرَجِّحُونَ وَيُزَيِّفُونَ. (٣٥/ ٢٣٣).

الأسباب

الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ. (١/ ١٣١).

---

(١) يشير لحديث: «السلطان ظل الله في الأرض». أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٧و١٠٢٤)، وحسنه العلامة الألباني، وانظر «الصحيحة» (٢٢٩٧).

تفاضل الكفار في كفرهم

الْكُفَّارَ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَتَفَاضَلُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي الْإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٣٧]. (١/ ١٤٤).

مفاسد سؤال المخلوقين

سُؤَالَ الْمَخْلُوقِينَ فِيهِ ثَلَاثُ مَفَاسِدَ:

١- مَفْسَدَةُ الِافْتِقَارِ إِلَى غَيْرِ اللهِ، وَهِيَ مِنْ نَوْعِ الشِّرْكِ.

٢- وَمَفْسَدَةُ إِيذَاءِ الْمَسْئُولِ، وَهِيَ مِنْ نَوْعِ ظُلْمِ الْخَلْقِ.

٣- وَفِيهِ ذُلٌّ لِغَيْرِ اللهِ، وَهُوَ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ.

فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْوَاعِ الظُّلْمِ الثَّلَاثَةِ، وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ رَسُولَهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. (١/ ١٩٠).

فائدة: حكم القيام للقادم وغيره

لَمْ تَكُنْ عَادَةُ السَّلَفِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ: أَنْ يَعْتَادُوا الْقِيَامَ كُلَّمَا يَرَوْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ بَلْ قَدْ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لَهُ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ[1]؛ وَلَكِنْ رُبَّمَا قَامُوا لِلْقَادِمِ مِنْ مَغِيبِهِ تَلَقِّيًا لَهُ، كَمَا «رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَامَ لِعِكْرِمَةَ، وَقَالَ لِلْأَنْصَارِ، لَمَّا قَدِمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»[2]، وَكَانَ قَدْ قَدِمَ لِيَحْكُمَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، لِأَنَّهُمْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ. وَالَّذِي يَنْبَغِي لِلنَّاسِ: أَنْ يَعْتَادُوا اتِّبَاعَ السَّلَفِ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد (٣/ ١٣٢و١٣٤و١٥١و٢٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦)، والترمذي في «الشمائل» (٣٣٥) عن أنس، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٦٥ـ ٧/ ١٢٣و٤١١ـ ١١/ ٤٩ فتح)، ومسلم (١٧٦٨).

فَإِنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَخَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا يَعْدِلُ أَحَدٌ عَنْ هَدْيِ خَيْرِ الْوَرَى، وَهَدْيِ خَيْرِ الْقُرُونِ، إِلَى مَا هُوَ دُونَهُ، وَيَنْبَغِي لِلْمُطَاعِ أَلا يُقِرَّ ذَلِكَ مَعَ أَصْحَابِهِ، بِحَيْثُ إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لَهُ إِلَّا فِي اللِّقَاءِ الْمُعْتَادِ.

وَأَمَّا الْقِيَامُ لِمَنْ يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ تَلَقِّيًا لَهُ؛ فَحَسَنٌ.

وَإِذَا كَانَ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ إِكْرَامُ الْجَائِي بِالْقِيَامِ، وَلَوْ تُرِكَ لَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ لِتَرْكِ حَقِّهِ أَوْ قَصْدِ خَفْضِهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ الْعَادَةَ الْمُوَافِقَةَ لِلسُّنَّةِ، فَالْأَصْلَحُ أَنْ يُقَامَ لَهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَصْلَحُ لِذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِزَالَةِ التَّبَاغُضِ وَالشَّحْنَاءِ.

وَأَمَّا مَنْ عَرَفَ عَادَةَ الْقَوْمِ الْمُوَافَقَةَ لِلسُّنَّةِ؛ فَلَيْسَ فِي تَرْكِ ذَلِكَ إِيذَاءٌ لَهُ، وَلَيْسَ هَذَا الْقِيَامُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1]، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْ يَقُومُوا لَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ، لَيْسَ هُوَ أَنْ يَقُومُوا لِمَجِيئِهِ إِذَا جَاءَ؛ وَلِهَذَا فَرَّقُوا بَيْنَ أَنْ يُقَالَ: قُمْت إِلَيْهِ، وَقُمْت لَهُ. وَالْقَائِمُ لِلْقَادِمِ سَاوَاهُ فِي الْقِيَامِ، بِخِلَافِ الْقَائِمِ لِلْقَاعِدِ. وَقَدْ نَهَاهُمْ عَنْ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ وَهُوَ قَاعِدٌ، لِئَلَّا يَتَشَبَّهَ بِالْأَعَاجِمِ الَّذِينَ يَقُومُونَ لِعُظَمَائِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ[2].

وَجِمَاعُ ذَلِكَ كُلِّهِ الَّذِي يَصْلُحُ اتِّبَاعُ عَادَاتِ السَّلَفِ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَالِاجْتِهَادُ عَلَيْهِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، فَمَنْ لَمْ يَعْقِدْ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ الْعَادَةُ وَكَانَ فِي تَرْكِ مُعَامَلَتِهِ بِمَا اعْتَادَ مِنْ النَّاسِ مِنْ الِاحْتِرَامِ مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ: فَإِنَّهُ يَدْفَعُ أَعْظَمَ الفسادين بِالْتِزَامِ أَدْنَاهُمَا، كَمَا يَجِبُ فِعْلُ أَعْظَمِ الصلاحين بِتَفْوِيتِ أَدْنَاهُمَا. (١/ ٢٧٤).

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٥٧)، من حديث معاوية.

(٢) المعنى السابق إشارة لحديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إِنْ كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ، يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ فَلَا تَفْعَلُوا..». أخرجه مسلم (٤١٣).

فوائد جليلة؛ من أقوال السلف

❁ احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ، وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ، فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ. (١/ ١٩٧).

❁ قُوَّةُ الْمُؤْمِنِ فِي قَلْبِهِ، وَضَعْفُهُ فِي جِسْمِهِ، وَقُوَّةُ الْمُنَافِقِ فِي جِسْمِهِ، وَضَعْفُهُ فِي قَلْبِهِ. (٢/ ٢٩٥).

❁ الْقُلُوبُ جَوَّالَةٌ: قَلْبٌ يَجُولُ حَوْلَ الْعَرْشِ، وَقَلْبٌ يَجُولُ حَوْلَ الْحُشِّ. (٥/ ٥٢٤).

❁ الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ. (٧/ ٤٩٤).

❁ مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ. (٧/ ٦٢٠).

❁ إِنَّ لِلْحَسَنَةِ لَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ لَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَسَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَوَهَنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضًا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ. (١٠/ ٩٨).

❁ يَا ابْنَ آدَمَ لَقَدْ بُورِكَ لَك فِي حَاجَةٍ أَكْثَرْتَ فِيهَا مِنْ قَرْعِ بَابِ سَيِّدِك. (١٠/ ٣٣٣).

❁ الْبَسْ مِنْ الثِّيَابِ مَا يَخْدِمُك، وَلَا تَلْبَسْ مِنْهَا مَا تَكُونُ أَنْتَ تَخْدِمُهُ. (١٠/ ٩٧٥).

❁ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ. (١٣/ ٣٢٢).

❁ مَا أَمَرَ اللهُ بِأَمْرٍ إِلَّا اعْتَرَضَ الشَّيْطَانُ فِيهِ بِأَمْرَيْنِ -لَا يُبَالِي بِأَيِّهِمَا ظَفَرَ- غُلُوٍّ أَوْ تَقْصِيرٍ. (١٤/ ٤٨٣).

❁ الغِنَاءُ رُقْيَةُ الزِّنَا. (١٥/ ٣١٣).

❁ إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ. (١٦/ ٥٣).

❁ مَا ابْتَدَعَ أَحَدٌ بِدْعَةً إِلَّا نُزِعَتْ حَلَاوَةُ الْحَدِيثِ مِنْ قَلْبِهِ. (٢٠/ ١٦١).

❁ مَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ فَاجِرٍ فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا. (٣٢/ ٦١).

الموعظة الحسنة

وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ: تَجْمَعُ التَّصْدِيقَ بِالْخَبَرِ، وَالطَّاعَةَ لِلْأَمْرِ؛ وَلِهَذَا يَجِيءُ الْوَعْظُ فِي الْقُرْآنِ مُرَادًا بِهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٦]. وَقَوْله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ [النور:١٧]، وَقَوْله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً﴾ [البقرة:٦٦]، أَيْ يَتَّعِظُونَ بِهَا فَيَنْتَهُونَ وَيَنْزَجِرُونَ.

وَكَذَلِكَ الْجَدَلُ الْأَحْسَنُ: يَجْمَعُ الْجَدَلَ لِلتَّصْدِيقِ وَلِلطَّاعَةِ.

وَالنَّاسُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١- إِمَّا أَنْ يَعْتَرِفَ بِالْحَقِّ وَيَتَّبِعَهُ، فَهَذَا صَاحِبُ الْحِكْمَةِ.

٢- وَإِمَّا أَنْ يَعْتَرِفَ بِهِ؛ لَكِنْ لَا يَعْمَلُ بِهِ، فَهَذَا يُوعَظُ حَتَّى يَعْمَلَ.

٣- وَإِمَّا أَلَا يَعْتَرِفَ بِهِ، فَهَذَا يُجَادَلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الْجِدَالَ فِي مَظِنَّةِ الْإِغْضَابِ، فَإِذَا كَانَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: حَصَلَتْ مَنْفَعَتُهُ بِغَايَةِ الْإِمْكَانِ، كَدَفْعِ الصَّائِلِ[1]. (٢/ ٤٥).

فضائح القائلين بوحدة الوجود

فَإِنَّ ابن عربي[2] صَاحِبَ هَذَا الْكِتَابِ المذكور الَّذِي هُوَ (فُصُوصُ الحكم)[3]

---

(١) **الصائل**: أي المعتدي.

(٢) هو الملقب بمحيي الدين ابن عربي، المتوفى سنة ٦٣٨هـ، أحد رؤوس المبتدعة الضالين المضلين المارقين، رئيس الطائفة الاتحادية الحلولية. وقد رد على هذا الزنديق جماهير العلماء والملوك وحذروا من شره، والمؤلفات كثيرة في التحذير منه، انظر منها: كتاب «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» للعلامة البقاعي، وكتاب «إبطال القول بوحدة الوجود ونقض نصوص بن عربي» للعلامة علي بن محمد الهروي القاري- تحقيق أحمد بن إبراهيم أبي العينين. طبع مكتبة دار ابن عباس ـ مصر، وكتاب «ابن عربي عقيدته وموقف علماء المسلمين منه» للدكتور دغش العجمي. طبع مكتبة أهل الأثر.

(٣) ظاهر عنوان كتابه حكم وتوجيهات سامية، والحقيقة أنه طافح بالضلال والزيغ، ودعوة إلى الحلول أن الله يحل في كل شيء، وغير ذلك من الطامات. ومذهبهم قائم على أن الوجود واحد، ليس هناك رب وعبد، =

وَأَمْثَالُهُ مِثْلُ صَاحِبِهِ القونوي(١)، والتلمساني(٢)، وَابْنِ سَبْعِينَ(٣)، والششتري(٤)،

= ولا خالق ولا مخلوق، بل الوجود واحد، الرب هو العبد والعبد هو الرب، والخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق، لا فرق بينهم! يقول ابن عربي «الفصوص» (١/ ٨٣):

فيحمدُني وأحمدُهُ ... ويعبدُني وأعبدُهُ

ويقول هذا الزنديق أيضًا:

الربُّ حقٌ والعبدُ حقٌ ... ياليتَ شِعري مَن المكلَّفْ

إنْ قلتُ عبدٌ فذاكَ ميتٌ ... أو قلتُ ربٌّ أنَّى يُكلَّفْ

انظر «مجموع الفتاوى» (٢/ ١١١ و١١٦و ٢٤٢ ١٤/ ١٢)، وقال شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ٢/ ٣٦٤): مَا تَضَمَّنَهُ كِتَابُ «فُصُوصِ الْحِكَمِ» وَمَا شَاكَلَهُ مِنْ الْكَلَامِ: فَإِنَّهُ كُفْرٌ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ وَبَاطِنُهُ أَقْبَحُ مِنْ ظَاهِرِهِ، وَهَذَا يُسَمَّى مَذْهَبَ أَهْلِ الْوَحْدَةِ وَأَهْلِ الْحُلُولِ وَأَهْلِ الِاتِّحَادِ. وَهُمْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ الْمُحَقِّقِينَ.

وَهَؤُلَاءِ نَوْعَانِ:

نَوْعٌ يَقُولُ بِذَلِكَ مُطْلَقًا، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ صَاحِبِ الْفُصُوصِ ابْنِ عَرَبِيٍّ وَأَمْثَالِهِ: مِثْل ابْنِ سَبْعِينَ وَابْنِ الْفَارِضِ والقونوي والششتري وَالتِّلِمْسَانِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ يَقُولُ: إنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ، وَيَقُولُونَ: إنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ وُجُودُ الْخَالِقِ. لَا يُثْبِتُونَ مَوْجُودَيْنِ خَلَقَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، بَلْ يَقُولُونَ: الْخَالِقُ هُوَ الْمَخْلُوقُ، وَالْمَخْلُوقُ هُوَ الْخَالِقُ.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ قَوْل مَنْ يَقُولُ بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ فِي مُعَيَّنٍ، كَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا بِذَلِكَ فِي الْمَسِيحِ عِيسَى، وَالْغَالِيَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِذَلِكَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ. النَّصَارَى إنَّمَا كَفَرُوا بِالتَّخْصِيصِ. وَأَقْوَالُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ أَقْوَالِ النَّصَارَى، وَفِيهَا مِنْ التَّنَاقُضِ مِنْ جِنْسِ مَا فِي أَقْوَالِ النَّصَارَى، وَهَذَا يَقُولُونَ بِالْحُلُولِ تَارَةً وَبِالِاتِّحَادِ أُخْرَى، وَبِالْوَحْدَةِ تَارَةً، فَإِنَّهُ مَذْهَبٌ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ؛ وَلِهَذَا يَلْبِسُونَ عَلَى مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ. فَهَذَا كُلُّهُ كُفْرٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا بِإِجْمَاعِ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرِ هَؤُلَاءِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ قَوْلِهِمْ وَمَعْرِفَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ كَافِرٌ، كَمَنْ يَشُكُّ فِي كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ» اهـ.

(١) صدر الدين الرومي.

(٢) هو سليمان بن علي التلمساني الملقب بالعفيف. وهو من أفجر الناس من أتباع ابن عربي الزنديق، وأحد اتباعه. قال شيخ الإسلام عنه في «الصفدية» (١/ ٢٤٤):«كان لا يحرم الفواحش ولا المنكرات ولا الكفر والفسوق والعصيان».

(٣) انظر البداية والنهاية (١٧/ ٤٩٧و٤٩٨).

(٤) هو علي بن عبد الله الششتري. انظر ترجمته لسان الميزان (٥/ ٢٣٦).

وَابْنِ الْفَارِضِ[1] وَأَتْبَاعِهِمْ؛ مَذْهَبُهُمْ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ: أَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ؛ وَيُسَمَّوْنَ أَهْلَ وَحْدَةِ الْوُجُودِ، وَيَدَّعُونَ التَّحْقِيقَ وَالْعِرْفَانَ، وَهُمْ يَجْعَلُونَ وُجُودَ الْخَالِقِ عَيْنَ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَكُلُّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَخْلُوقَاتُ مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَمَدْحٍ وَذَمٍّ إنَّمَا الْمُتَّصِفُ بِهِ عِنْدَهُمْ: عَيْنُ الْخَالِقِ، وَلَيْسَ لِلْخَالِقِ عِنْدَهُمْ وُجُودٌ مُبَايِنٌ لِوُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ مُنْفَصِلٌ عَنْهَا أَصْلًا؛ بَلْ عِنْدَهُمْ مَا ثَمَّ غَيْرٌ أَصْلًا لِلْخَالِقِ وَلَا سِوَاهُ.

وَمِنْ كَلِمَاتِهِمْ: لَيْسَ إلَّا اللهُ، فَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ لَمْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ عِنْدَهُمْ، لِأَنَّهُ مَا عِنْدَهُمْ لَهُ غَيْرٌ؛ وَلِهَذَا جَعَلُوا قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، بِمَعْنَى قَدَّرَ رَبُّك أَلَا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ؛ إذْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ غَيْرٌ لَهُ تُتَصَوَّرُ عِبَادَتُهُ، فَكُلُّ عَابِدِ صَنَمٍ إنَّمَا عَبَدَ اللهَ، وَلِهَذَا جَعَلَ صَاحِبُ هَذَا الْكِتَابِ: عُبَّادَ الْعِجْلِ مُصِيبِينَ، وَذَكَرَ أَنَّ مُوسَى أَنْكَرَ عَلَى هَارُونَ إنْكَارَهُ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْعِجْلِ، وَقَالَ: كَانَ مُوسَى أَعْلَمُ بِالْأَمْرِ مِنْ هَارُونَ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ مَا عَبَدَهُ أَصْحَابُ الْعِجْلِ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ قَدْ قَضَى أَلَا يَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ، وَمَا حَكَمَ اللهُ بِشَيْءٍ إلَّا وَقَعَ؛ فَكَانَ عَتْبُ مُوسَى أَخَاهُ هَارُونَ لَمَّا وَقَعَ الْأَمْرُ فِي إنْكَارِهِ وَعَدَمِ اتِّبَاعِهِ، فَإِنَّ الْعَارِفَ مَنْ يَرَى الْحَقَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ يَرَاهُ عَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا يَجْعَلُونَ فِرْعَوْنَ مِنْ كِبَارِ الْعَارِفِينَ الْمُحَقِّقِينَ، وَأَنَّهُ كَانَ مُصِيبًا فِي دَعْوَاهُ الرُّبُوبِيَّةَ. كَمَا قَالَ فِي هَذَا الْكِتَابِ: وَلَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ التَّحَكُّمِ، صَاحِبَ الْوَقْتِ، وَأَنَّهُ جَارٍ فِي الْعُرْفِ الناموسي، لِذَلِكَ قَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، أَيْ: وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةِ مَا: فَأَنَا الْأَعْلَى مِنْهُمْ؛ بِمَا أُعْطِيته فِي الظَّاهِرِ مِنْ الْحُكْمِ فِيهِمْ. وَلَمَّا عَلِمَتْ السَّحَرَةُ صِدْقَ فِرْعَوْنَ فِيمَا قَالَهُ لَمْ يُنْكِرُوهُ؛ بَلْ أَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ، وَقَالُوا لَهُ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ

---

(١) هو عمر بن علي بن المرشد، المعروف بابن الفارض، قال عنه الذهبي: «صاحب الاتحاد الذي ملأ به التائية، فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال». سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٦٨)، وابن كثير في البداية والنهاية (١٧/ ٢٢٢).

قَاضٍ ﴾ [طه:٧٢]، فَالدَّوْلَةُ لَك، فَصَحَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤]، وَأَنَّهُ كَانَ عَيْنَ الْحَقِّ.

وَيَكْفِيك مَعْرِفَةً بِكُفْرِهِمْ: أَنَّ مِنْ أَخَفِّ أَقْوَالِهِمْ أَنَّ فِرْعَوْنَ مَاتَ مُؤْمِنًا؛ بَرِيًّا مِنْ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ: وَكَانَ مُوسَى قُرَّةَ عَيْنٍ لِفِرْعَوْنَ بِالْإِيمَانِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ عِنْدَ الْغَرَقِ، فَقَبَضَهُ طَاهِرًا مُطَهَّرًا لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ الْخُبْثِ؛ لِأَنَّهُ قَبَضَهُ عِنْدَ إيمَانِهِ، قَبْلَ أَنْ يَكْتَسِبَ شَيْئًا مِنْ الْآثَامِ، وَالْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ.

وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ أَهْلِ الْمِلَلِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: أَنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَكْفَرِ الْخَلْقِ بِاللَّهِ؛ بَلْ لَمْ يَقُصَّ اللهُ فِي الْقُرْآنِ قِصَّةَ كَافِرٍ بِاسْمِهِ الْخَاصِّ أَعْظَمَ مِنْ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ، وَلَا ذَكَرَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْكُفَّارِ مِنْ كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَعُلُوِّهِ: أَعْظَمَ مِمَّا ذَكَرَ عَنْ فِرْعَوْنَ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ وَعَنْ قَوْمِهِ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ، فَإِنَّ لَفْظَ آلِ فِرْعَوْنَ؛ كَلَفْظِ آلِ إبْرَاهِيمَ، وَآلِ لُوطٍ، وَآلِ دَاوُد، وَآلِ أَبِي أَوْفَى؛ يَدْخُلُ فِيهَا الْمُضَافُ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ، فَإِذَا جَاءُوا إلَى أَعْظَمِ عَدُوٍّ للهِ مِنْ الْإِنْسِ، أَوْ مَنْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَعْدَائِهِ: فَجَعَلُوهُ مُصِيبًا مُحِقًّا فِيمَا كَفَّرَهُ بِهِ اللهُ: عُلِمَ أَنَّ مَا قَالُوهُ أَعْظَمُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَكَيْفَ بِسَائِرِ مَقَالَاتِهِمْ؟

وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ الْخَالِقَ تَعَالَى بَائِنٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، لَيْسَ فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ.

وَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ كَفَّرُوا الْجَهْمِيَّةَ؛ لَمَّا قَالُوا إنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكَانَ مِمَّا أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِمْ: أَنَّهُ كَيْفَ يَكُونُ فِي الْبُطُونِ وَالْحُشُوشِ والأخلية؟ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَجْعَلُهُ نَفْسَ وُجُودِ الْبُطُونِ وَالْحُشُوشِ والأخلية وَالنَّجَاسَاتِ وَالْأَقْذَارِ؟

وَاتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا: أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، وَقَالَ مَنْ قَالَ مِنْ الْأَئِمَّةِ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولَهُ تَشْبِيهًا. وَأَيْنَ الْمُشَبِّهَةُ الْمُجَسِّمَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ غَايَةُ كُفْرِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ مِثْلَ الْمَخْلُوقَاتِ. لَكِنْ يَقُولُونَ: هُوَ قَدِيمٌ وَهِيَ مُحْدَثَةٌ، وَهَؤُلَاءِ جَعَلُوهُ عَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَجَعَلُوهُ نَفْسَ الْأَجْسَامِ الْمَصْنُوعَاتِ، وَوَصَفُوهُ بِجَمِيعِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ الَّتِي يُوصَفُ بِهِمَا كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ فَاجِرٍ، وَكُلُّ شَيْطَانٍ، وَكُلُّ سَبُعٍ، وَكُلُّ حَيَّةٍ مِنْ الْحَيَّاتِ، فَتَعَالَى اللهُ عَنْ إفْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ وَلِدِينِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ.

وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إنَّ النَّصَارَى إنَّمَا كَفَرُوا لِتَخْصِيصِهِمْ؛ حَيْثُ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة:١٧]، فَكُلُّ مَا قَالَتْهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ يَقُولُونَهُ فِي الله، وَكُفْرُ النَّصَارَى جُزْءٌ مِنْ كُفْرِ هَؤُلَاءِ، وَلَمَّا قَرَءُوا هَذَا الْكِتَابَ الْمَذْكُورَ عَلَى أَفْضَلِ مُتَأَخِّرِيهِمْ؛ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: هَذَا الْكِتَابُ يُخَالِفُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: الْقُرْآنُ كُلُّهُ شِرْكٌ.

وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ فِي كَلَامِنَا هَذَا: يَعْنِي أَنَّ الْقُرْآنَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ، وَحَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْعَبْدُ؛ فَقَالَ لَهُ الْقَائِلُ: فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ زَوْجَتِي وَبِنْتِي إذًا؟ قَالَ: لَا فَرْقَ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ قَالُوا: حَرَامٌ، فَقُلْنَا حَرَامٌ عَلَيْكُمْ...

والحلولية يقولون: هُوَ فِي الْعَالَمِ كَالْمَاءِ فِي الصُّوفَةِ، وَكَالْحَيَاةِ فِي الْجِسْمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَيَقُولُونَ: هُوَ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ وَهَذَا قَوْلُ قُدَمَاءِ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ كَفَّرَهُمْ أَئِمَّةُ

الْإِسْلَامِ، وَحُكِيَ عَنْ الْجَهْمِ[1] أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: هُوَ مِثْلُ هَذَا الْهَوَاءِ، أَوْ قَالَ: هُوَ هَذَا الْهَوَاءُ.

وَقَوْلُهُ أَوَّلًا: هُوَ حَدَقَةُ عَيْنِ اللهِ، يُشْبِهُ قَوْلَ الِاتِّحَادِيَّةِ، فَإِنَّ الِاتِّحَادِيَّةَ يَقُولُونَ: هُوَ مِثْلُ الشَّمْعَةِ الَّتِي تَتَصَوَّرُ فِي صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهِيَ وَاحِدَةٌ، فَهُوَ عِنْدَهُمْ الْوُجُودُ؛ وَاخْتِلَافُ أَحْوَالِهِ كَاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الشَّمْعَةِ.

وَلِهَذَا كَانَ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ مُتَخَبِّطًا لَا يَسْتَقِرُّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَلَا هُوَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ الِاتِّحَادِيَّةِ مِنْ مُحَقِّقِيهِمْ الْعَارِفِينَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْنُصَيْرِيَّة وَالْإِسْماعِيلية؛ مَقَالَاتُ هَؤُلَاءِ فِي الرَّبِّ مَنْ جِنْسِ مَقَالَاتِ أُولَئِكَ، وَأُولَئِكَ فِيهِمْ الْمُتَمَسِّكُ بِالشَّرِيعَةِ، وَفِيهِمْ الْمُتَخَلِّي عَنْهَا، وَهَؤُلَاءِ كَذَلِكَ، لَكِنَّ أُولَئِكَ أَحْذَقُ فِي الزَّنْدَقَةِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُعَطِّلُونَ مِثْلُ فِرْعَوْنَ، وَهَؤُلَاءِ جُهَّالٌ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. (٢/ ٢٧٩).

فائدة: عبر من قصة الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ

قصَّة الْخَضِرِ لَيْسَ فِيهَا مُخَالَفَةٌ لِلشَّرِيعَةِ، بَلْ الْأُمُورُ الَّتِي فَعَلَهَا تُبَاحُ فِي الشَّرِيعَةِ، إذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَسْبَابَهَا كَمَا عَلِمَهَا الْخَضِرُ، وَلِهَذَا لَمَّا بَيَّنَ أَسْبَابَهَا لِمُوسَى وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ مُخَالِفًا لِشَرِيعَتِهِ لَمْ يُوَافِقْهُ بِحَالٍ، وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ،

---

(١) هو الجهم بن صفوان الراسبي، إمام الجهمية الخبيث، أُسُّ الضلالة، يقول بخلق القرآن، وأن الله في الأمكنة كلها، وهو من أهل خرسان وتلميذ الجعد بن درهم الزنديق الذي أنكر صفات الله سبحانه، وأول من قال بخلق القرآن، وزعم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى تكليمًا، فالجهم يقول عن الله عَزَّوَجَلَّ: هو مثل هذا الهواء. أي: أن الله مخالط للوجود في كل مكان بذاته، تعالى الله عن ذلك. انظر ترجمته في «الملل والنحل» (١/ ١٩٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٦).

فَإِنَّ خَرْقَ السَّفِينَةِ مَضْمُونُهُ أَنَّ الْمَالَ الْمَعْصُومَ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَهُ لِصَاحِبِهِ بِإِتْلَافِ بَعْضِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ ذَهَابِهِ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا جَازَ لِلرَّاعِي -عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَذْبَحَ الشَّاةَ؛ الَّتِي خَافَ عَلَيْهَا الموْتَ، وَقِصَّةُ الْغُلَامِ مَضْمُونُهَا جَوَازُ قَتْلِ الصَّبِيِّ الصَّائِلِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لنجدة: وَأَمَّا الْغِلْمَانُ؛ فَإِنْ كُنْت تَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا عَلِمَهُ الْخَضِرُ مِنْ ذَلِكَ الْغُلَامِ فَاقْتُلْهُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَقْتُلْهُمْ، وَأَمَّا إقَامَةُ الْجِدَارِ فَفِيهَا فِعْلُ الْمَعْرُوفِ بِلَا أُجْرَةٍ، مَعَ الْحَاجَةِ، إذَا كَانَ لِذُرِّيَّةِ قَوْمٍ صَالِحِينَ. (٢/ ٢٣٤).

عاقبة المبتدعة

حَدَّثُونَا أَنَّ ابْنَ الْفَارِضِ[1] لَمَّا أُحْتُضِرَ أَنْشَدَ بَيْتَيْنِ:

إنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمْ ... مَا قَدْ لَقِيت فَقَدْ ضَيَّعْت أَيَّامِي

أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا ... وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامِ

وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ هُوَ اللهُ، وَأَنَّهُ مَا ثَمَّ مَرَدٌّ إلَيْهِ وَمَرْجِعٌ إلَيْهِ، غَيْرُ مَا كَانَ هُوَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَتْهُ مَلَائِكَةُ اللهِ تَنْزِعُ رُوحَهُ مِنْ جِسْمِهِ، وَبَدَا لَهُ مِنْ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِبُ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ مِنْ الشَّيْطَانِ.

وَكَذَلِكَ حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ بَعْضِ مَنْ أَعْرِفُهُ، وَلَهُ اتِّصَالٌ بِهَؤُلَاءِ، عَنْ الْفَاجِرِ التلمساني[2]: أَنَّهُ وَقْتَ الْمَوْتِ تَغَيَّرَ وَاضْطَرَبَ. قَالَ: دَخَلْت عَلَيْهِ وَقْتَ

---

(١) أحد رؤوس الحلولية الزنادقة، يقول في قصيدته التائية:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا ... وما الله إلا راهب في كنيسته

ويقول -عامله الله بما يستحق-:

لها صلوات في المقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت

فنفسه صلت له، لأنه هو والله شيء واحد.

وسوف يأتي كلام شيخ الإسلام في حق هذا الأفاك قريبا بقوله عنه بأنه: «أَخْبَثُ مَنْ لَحْمِ خِنْزِيرٍ فِي صِينِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ».

(٢) تقدمت ترجمته صفحة (٣٨).

الموْتِ، فَوَجَدْته يَتَأَوَّهُ، فَقُلْت لَهُ: مِمَّ تَتَأَوَّهُ؟ فَقَالَ: مِنْ خَوْفِ الْفَوْتِ. فَقُلْت: سُبْحَانَ اللهِ! وَمِثْلُك يَخَافُ الْفَوْتَ، وَأَنْتَ تُدْخِلُ الْفَقِيرَ إلَى الْخَلْوَةِ فَتُوَصِّلُهُ إلَى اللهِ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: زَالَ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَمَا وَجَدْت لِذَلِكَ حَقِيقَةً. (٢/ ٢٦٧).

فائدة: لَيْسَ فِي الْقَدَرِ حُجَّةٌ لِابْنِ آدَمَ وَلَا عُذْرٌ

وَلَيْسَ فِي الْقَدَرِ حُجَّةٌ لِابْنِ آدَمَ وَلَا عُذْرٌ، بَلْ الْقَدَرُ يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُحْتَجُّ بِهِ، وَالْمُحْتَجُّ بِالْقَدَرِ فَاسِدُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ، مُتَنَاقِضٌ، فَإِنَّ الْقَدَرَ إنْ كَانَ حُجَّةً وَعُذْرًا: لَزِمَ أَلَا يُلَامَ أَحَدٌ؛ وَلَا يُعَاقَبَ وَلَا يُقْتَصَّ مِنْهُ، وَحِينَئِذٍ فَهَذَا الْمُحْتَجُّ بِالْقَدَرِ يَلْزَمُهُ - إذَا ظُلِمَ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَعِرْضِهِ وَحُرْمَتِهِ - أَلَا يَنْتَصِرَ مِنْ الظَّالِمِ، وَلَا يَغْضَبَ عَلَيْهِ وَلَا يَذُمَّهُ؛ وَهَذَا أَمْر مُمْتَنِعٌ فِي الطَّبِيعَةِ، لَا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَهُ، فَهُوَ مُمْتَنِعٌ طَبْعًا، مُحَرَّمٌ شَرْعًا.

وَلَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً وَعُذْرًا: لَمْ يَكُنْ إبْلِيسُ مَلُومًا وَلَا مُعَاقَبًا، وَلَا فِرْعَوْنُ، وَقَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٌ، وَثَمُودُ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْكُفَّارِ، وَلَا كَانَ جِهَادُ الْكُفَّارِ جَائِزًا، وَلَا إقَامَةُ الْحُدُودِ جَائِزًا، وَلَا قَطْعُ السَّارِقِ، وَلَا جَلْدُ الزَّانِي وَلَا رَجْمُهُ، وَلَا قَتْلُ الْقَاتِلِ، وَلَا عُقُوبَةُ مُعْتَدٍ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ.

وَلَمَا كَانَ الِاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ بَاطِلًا فِي فِطَرِ الْخَلْقِ وَعُقُولِهِمْ: لَمْ تَذْهَبْ إلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ، وَلَا هُوَ مَذْهَبُ أَحَدٍ مِنْ الْعُقَلَاءِ الَّذِينَ يَطْرُدُونَ قَوْلَهُمْ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ مَصْلَحَةُ أَحَدٍ لَا فِي دُنْيَاهُ وَلَا آخِرَتِهِ، وَلَا يُمْكِنُ اثْنَانِ أَنْ يَتَعَاشَرَا سَاعَةً وَاحِدَةً؛ إنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا مُلْتَزِمًا مَعَ الْآخَرِ نَوْعًا مِنْ الشَّرْعِ، فَالشَّرْعُ نُورُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَعَدْلُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ.

لَكِنَّ الشَّرَائِعَ تَتَنَوَّعُ: فَتَارَةً تَكُونُ مُنَزَّلَةً مِنْ عِنْدِ اللهِ، كَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَتَارَةً لَا تَكُونُ كَذَلِكَ، ثُمَّ الْمَنْزِلَةُ: تَارَةً تُبَدَّلُ وَتُغَيَّرُ - كَمَا غَيَّرَ أَهْلُ الْكِتَابِ شَرَائِعَهُمْ، وَتَارَةً لَا تُغَيَّرُ وَلَا تُبَدَّلُ، وَتَارَةً يَدْخُلُ النَّسْخُ فِي بَعْضِهَا، وَتَارَةً لَا يَدْخُلُ.

وَأَمَّا الْقَدَرُ: فَإِنَّهُ لَا يَحْتَجُّ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا عِنْدَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ، فَإِذَا فَعَلَ فِعْلًا مُحَرَّمًا بِمُجَرَّدِ هَوَاهُ وَذَوْقِهِ وَوَجْدِهِ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلْمٌ بِحُسْنِ الْفِعْلِ وَمَصْلَحَتِهِ اسْتَنَدَ إِلَى الْقَدَرِ، كَمَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِهَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ، وَالْقَوْمُ لَمْ يَكُونُوا مِمَّنْ يَسُوغُ لِكُلِّ أَحَدٍ الِاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ، فَإِنَّهُ لَوْ خَرَّبَ أَحَدٌ الْكَعْبَةَ؛ أَوْ شَتَمَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ، أَوْ طَعَنَ فِي دِينِهِمْ لَعَادَوْهُ وَآذَوْهُ، كَيْفَ وَقَدْ عَادَوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ، وَمَا فَعَلَهُ هُوَ أَيْضًا مِنَ الْمَقْدُورِ، فَلَوْ كَانَ الِاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ حُجَّةً لَكَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنْ كَانَ كُلُّ مَا يَحْدُثُ فِي الْوُجُودِ فَهُوَ مُقَدَّرٌ فَالْمُحِقُّ وَالْمُبْطِلُ يَشْتَرِكَانِ فِي الِاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ، إِنْ كَانَ الِاحْتِجَاجُ بِهِ صَحِيحًا، وَلَكِنْ كَانُوا يَتَعَمَّدُونَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ جِنْسِ دِينِهِمْ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ، لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، بَلْ هُمْ يَخْرُصُونَ. وَمُوسَى لَمَّا قَالَ لِآدَمَ: «لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِيمَا قَالَ لِمُوسَى -: لِمَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[1] لَمْ يَكُنْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُحْتَجًّا عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيَ عَنْهُ بِالْقَدَرِ، وَلَا كَانَ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) في كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٦٥٢) في كتاب القدر، عن أبي هريرة.

مُوسَى مِمَّنْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فَيَقْبَلُهُ، بَلْ آحَادُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ هَذَا، فَكَيْفَ آدَمُ وَمُوسَى؟. وَآدَمُ قَدْ تَابَ مِمَّا فَعَلَ وَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَهَدَى، وَمُوسَى أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يَلُومَ مَنْ هُوَ دُونَ نَبِيٍّ عَلَى فِعْلٍ تَابَ مِنْهُ، فَكَيْفَ بِنَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ؟ وآدَمَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَمْ يَحْتَجْ إلَى التَّوْبَةِ، وَلَمْ يَجْرِ مَا جَرَى مِنْ خُرُوجِهِ مِنْ الْجَنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَكَانَ لإبليس وَغَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ مُوسَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَمْ يُعَاقَبْ فِرْعَوْنُ بِالْغَرَقِ، وَلَا بَنُو إسْرَائِيلَ بِالصَّعْقَةِ وَغَيْرِهَا. كَيْفَ وَقَدْ قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]، وَقَالَ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ.

وَإِنَّمَا كَانَ لَوْمُ مُوسَى لِآدَمَ مِنْ أَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ بِآدَمَ مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ»[1] وَاللَّوْمُ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْ الْإِنْسَانَ نَوْعٌ، وَاللَّوْمُ لِأَجْلِ الذَّنْبِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللهِ نَوْعٌ آخَرُ، فَإِنَّ الْأَبَ لَوْ فَعَلَ فِعْلًا افْتَقَرَ بِهِ حَتَّى تَضَرَّرَ بَنُوهُ فَأَخَذُوا يَلُومُونَهُ لِأَجْلِ مَا لَحِقَهُمْ مِنْ الْفَقْرِ؛ لَمْ يَكُنْ هَذَا كَلَوْمِهِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ أَذْنَبَ.

وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَيُطِيعَ الْمَأْمُورَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]، قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ.

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود (٤٧٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٧)، وحسنه الألباني من حديث عمر ابن الخطاب.

فَمَنْ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى تَرْكِ الْمَأْمُورِ وَجَزِعَ مِنْ حُصُولِ مَا يَكْرَهُهُ مِنْ الْمَقْدُورِ فَقَدْ عَكَسَ الْإِيمَانَ وَالدِّينَ، وَصَارَ مِنْ حِزْبِ الْمُلْحِدِينَ الْمُنَافِقِينَ، وَهَذَا حَالُ الْمُحْتَجِّينَ بِالْقَدَرِ. فَإِنَّ أَحَدَهُمْ إذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَظُمَ جَزَعُهُ، وَقَلَّ صَبْرُهُ، فَلَا يَنْظُرُ إلَى الْقَدَرِ وَلَا يُسَلِّمُ لَهُ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا أَخَذَ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَلَا يَفْعَلُ الْمَأْمُورَ، وَلَا يَتْرُكُ الْمَحْظُورَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَيَدَّعِي مَعَ هَذَا أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ، وَأَئِمَّةِ الْمُحَقِّقِينَ الْمُوَحِّدِينَ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ الْمُلْحِدِينَ، وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ.

وَهَذَا الطَّرِيقُ إنَّمَا يَسْلُكُهُ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ الْخَيْرِ وَالدِّينِ وَالْإِيمَانِ؛ تَجِدُ أَحَدَهُمْ أَجْبَرَ النَّاسَ إذَا قَدَرَ، وَأَعْظَمَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَأَذَلَّ النَّاسَ إذَا قُهِرَ، وَأَعْظَمَهُمْ جَزَعًا وَوَهَنًا؛ كَمَا جَرَّبَهُ النَّاسُ مِنْ الْأَحْزَابِ الْبَعِيدِينَ عَنْ الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ وَالْمُقَاتِلَةِ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ. (٢/ ٣٢٦).

فائدة: ما في قلبي إلا الله

جَاءَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ: إذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ كَيْفَ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الله؛ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللهِ مِنْ قَلْبِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ قَلْبِهِ.

وَرُوِيَ مَرْفُوعًا، مِنْ حَدِيثِ أَيُّوبَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ، عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ، رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى الموصلي، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الذِّكْرِ[1]، وَلِهَذَا قَالَ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة:١٣٣]، فَإِنَّ أُلُوهِيَّةَ اللهِ مُتَفَاوِتَةٌ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى دَرَجَاتٍ عَظِيمَةٍ، تَزِيدُ وَتَنْقُصُ، وَيَتَفَاوَتُونَ فِيهَا تَفَاوُتًا لَا يَنْضَبِطُ طَرَفَاهُ، حَتَّى قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَقِّ

(١) ضعيف. أخرجه أبو يعلى (٢١٣٨)، وانظر تخريجه في «الضعيفة» (٥٤٣٧ و٦٢٠٥) للعلامة الألباني.

شَخْصَيْنِ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هَذَا»(١)، فَصَارَ وَاحِدٌ مِنْ الْآدَمِيِّينَ خَيْرًا مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ؛ وَهَذَا تَبَايُنٌ عَظِيمٌ لَا يَحْصُلُ مِثْلُهُ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ مَنْ قَالَ: «مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ». وَهُوَ الْيَقِينُ وَالْإِيمَانُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وُزِنت بِالْأُمَّةِ فَرَجَحت، ثُمَّ وُزِنَ أَبُو بَكْرٍ بِالْأُمَّةِ فَرَجَحَ، ثُمَّ وُزِنَ عُمَرُ بِالْأُمَّةِ فَرَجَحَ، ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ»(٢)، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ الصِّدِّيقُ: «أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُوا اللهَ الْيَقِينَ وَالْعَافِيَةَ، فَلَمْ يُعْطَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَابْنُ مَاجَه(٣)، وَقَالَ رَقَبَةُ ابنُ مِصْقَلَةٍ لِلشَّعْبِيِّ: «رَزَقَك اللهُ الْيَقِينَ الَّذِي لَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلَّا إلَيْهِ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِي الدِّينِ إلَّا عَلَيْهِ». وَفِي كِتَابِ (الزُّهْدِ) لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ [سيار، حدثنا جعفر، عن عمران القصير](٤)، قَالَ: قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ أَيْنَ أَجِدُك؟ قَالَ: يَا مُوسَى عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي، أَقْتَرِبُ إلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ شِبْرًا؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَاحْتَرَقَتْ قُلُوبُهُمْ(٥).

وَقَدْ يُتَوَسَّعُ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى، حَتَّى يُقَالَ: مَا فِي قَلْبِي إلَّا اللهُ، مَا عِنْدِي إلَّا اللهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، عَنْ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: أَمَا عَلِمْت أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ؟ فَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩١) في كتاب النكاح، عن سهل بن سعد الساعدي.

(٢) **حسن بشواهده.** أخرجه أحمد (٥/ ٤٤و٥٠) وأبو داود (٤٦٣٤) والترمذي (٢٢٨٧) وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وصححه الألباني من حديث أبي بكرة.

(٣) **صحيح.** أخرجه أحمد (١/ ٣و٨)، والترمذي (٣٥٥٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٧٩ و٨٨٠و٨٨١)، والحاكم (١/ ٥٨٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٣٢) عن أبي بكر.

(٤) هذه الزيادة من كتاب «الزهد» للإمام أحمد بن حنبل (٣٨٩).

(٥) انظر «الزهد» للإمام أحمد (٣٨٩).

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) في كتاب البر والصلة، ولفظه: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي..» عن أبي هريرة.

وَيُقَالُ:

سَاكِنٌ فِي الْقَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ

وَيُقَالُ:

مِثَالُك فِي عَيْنِي وذكراك فِي فَمِي ... وَمَثْوَاك فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ؟

وَهَذَا الْقَدْرُ يَقْوَى قُوَّةً عَظِيمَةً، حَتَّى يُعَبِّرَ عَنْهُ بِالتَّجَلِّي وَالْكَشْفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ، وَيَحْصُلُ مَعَهُ الْقُرْبُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِن رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**»(١)، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبت إِلَيْهِ ذِرَاعًا**»(٢). لَكِنْ، هَلْ فِي تَقَرُّبِ الْعَبْدِ إِلَى اللهِ حَرَكَةٌ إِلَى الله، أَوْ إِلَى بَعْضِ الْأَمَاكِنِ؟ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَحْصُلُ حَرَكَةُ بَدَنِ الْعَبْدِ إِلَى بَعْضِ الْأَمْكِنَةِ الْمُشَرَّفَةِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ، كَالْحَجِّ إِلَى بَيْتِهِ، وَالْقَصْدِ إِلَى مَسَاجِدِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]. (٢/ ٣٨٥).

فائدة: لا تسبوا الدهر

أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ أَشْبَهَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ، أَوْ مُنِعُوا أَغْرَاضَهُمْ أَخَذُوا يَسُبُّونَ الدَّهْرَ وَالزَّمَانَ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: قَبَّحَ اللهُ الدَّهْرَ الَّذِي شَتَّتَ شَمْلَنَا، وَلَعَنَ اللهُ الزَّمَانَ الَّذِي جَرَى فِيهِ كَذَا وَكَذَا.

وَكَثِيرًا مَا جَرَى مِنْ كَلَامِ الشُّعَرَاءِ وَأَمْثَالِهِمْ نَحْوُ هَذَا كَقَوْلِهِمْ: يَا دَهْرُ فَعَلْت كَذَا، وَهُمْ يَقْصِدُونَ سَبَّ مَنْ فَعَلَ تِلْكَ الْأُمُورِ، وَيُضِيفُونَهَا إِلَى الدَّهْرِ، فَيَقَعُ السَّبُّ عَلَى اللهِ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) في كتاب الصلاة عن أبي هريرة.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٧٥) في كتاب الذكر والدعاء، عن أبي هريرة.

تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ تِلْكَ الْأُمُورَ وَأَحْدَثَهَا، وَالدَّهْرُ مَخْلُوقٌ لَهُ، هُوَ الَّذِي يُقَلِّبُهُ وَيُصَرِّفُهُ. وَالتَّقْدِيرُ: أَنَّ ابْنَ آدَمَ يَسُبُّ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ، وَأَنَا فَعَلْتُهَا؛ فَإِذَا سَبَّ الدَّهْرَ فَمَقْصُودُهُ سَبُّ الْفَاعِلِ، وَإِنْ أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى الدَّهْرِ فَالدَّهْرُ لَا فِعْلَ لَهُ؛ وَإِنَّمَا الْفَاعِلُ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ[1]. (٢/ ٤٩٣).

عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص:٣] نَفْيٌ لِهَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ مَوْلُودُونَ، وَاللَّهُ لَمْ يُولَدْ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ اللهُ الْمَسِيحَ فِي الْقُرْآنِ قَالَ «ابْن مَرْيَمَ»، بِخِلَافِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧، ٧٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [المائدة:٧٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ [المائدة:١١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة:١١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون:٥٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١٥٧].

وَفِي ذَلِكَ فَائِدَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا- بَيَانٌ أَنَّهُ مَوْلُودٌ، وَاللَّهُ لَمْ يُولَدْ.

وَالثَّانِيَةُ- نِسْبَتُهُ إِلَى مَرْيَمَ؛ بِأَنَّهُ ابْنُهَا، لَيْسَ هُوَ ابْنَ الله. (٢/ ٤٤٩).

---

(١) وفي الحديث عن أَبِي هُرَيْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». أخرجه البخاري (٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦).

أولياء الله تعالى

❁ مَنْ كَانَ مُخْلِصًا فِي أَعْمَالِ الدِّينِ يَعْمَلُهَا للهِ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ، أَهْلِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]. (١/ ٨).

❁ أَوْلِيَاءُ اللهِ هُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِضَاهُ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ، وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ. (١/ ٨٥).

❁ وَأَوْلِيَاءُ اللهِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، وَكَرَامَاتُهُمْ ثَمَرَةُ إيمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ، لَا ثَمَرَةُ الشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ وَالْفِسْقِ. (١/ ١٧٧).

❁ وَأَوْلِيَاءُ اللهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ، وَتَرَكُوا الْمَحْظُورَ، وَصَبَرُوا عَلَى الْمَقْدُورِ، فَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبُّوهُ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. (١١/ ٢٧١).

❁ وَأَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ: أَتْبَعُهُمْ لَهُ، وَأَقْرَبُهُمْ، وَأَعْرَفُهُمْ بِدِينِهِ، وَأَطْوَعُهُمْ لِأَمْرِهِ؛ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَسَائِرِ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانِ. (١١/ ٤٩٨).

❁ وِلَايَةُ أَمْرِ النَّاسِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الدِّينِ؛ بَلْ لَا قِيَامَ لِلدِّينِ وَلَا لِلدُّنْيَا إلَّا بِهَا. (٢٨/ ٣٨٠).

❁ وَلْيُعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ تَجِبُ مُوَالَاتُهُ وَإِنْ ظَلَمَك وَاعْتَدَى عَلَيْك، وَالْكَافِرُ تَجِبُ مُعَادَاتُهُ وَإِنْ أَعْطَاك وَأَحْسَنَ إلَيْك. (٢٨/ ٢٠٩).

فائدة: سر الجمع

إن لَفْظَ (إنَّا) و(نَحْنُ)، وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ، يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ، وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ، وَلَهُ أَعْوَانٌ

تَابِعُونَ لَهُ؛ لَا شُرَكَاءُ لَهُ، فَإِذَا تَمَسَّكَ النَّصْرَانِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر:٩]، وَنَحْوِهُ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ؛ كَانَ الْمُحْكَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا يُزِيلُ مَا هُنَاكَ مِنْ الاشْتِبَاهِ؛ وَكَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ صِيغَةِ الْجَمْعِ مُبَيِّنًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْعَظَمَةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ. (٣/ ٦٤).

فائدة: حرف الواو وحرف ثم

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِن قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»(١).

فَفِي الطَّاعَةِ: قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ الْوَاوِ، وَفِي الْمَشِيئَةِ: أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ (ثُمَّ)، وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لله، فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَطَاعَةُ اللهِ طَاعَةُ الرَّسُولِ، بِخِلَافِ الْمَشِيئَةِ، فَلَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَحَدٍ مِنْ الْعِبَادِ مَشِيئَةً لله، وَلَا مَشِيئَةُ اللهِ مُسْتَلْزِمَةً لِمَشِيئَةِ الْعِبَادِ، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَإِنْ لَمْ يَشَأِ النَّاسُ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ، إِنْ لَمْ يَشَأِ اللهُ. (٣/ ١٠٩).

حكم مرتكب الكبيرة

[وأهل السنة] لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي.. وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّي اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ، كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ، بَلْ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ. (٣/ ١٥١).

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد، وابن ماجه (٢١١٨) عن حذيفة بن اليمان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧).

فائدة: الأمر والقدر

فَقَدْ تَبَيَّنَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ فَسَادُ قَوْلِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَدَرِ، وَيُعْرِضُ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ، وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠].

وَقَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، فَالتَّقْوَى فِعْلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَتَرْكُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [غافر:٥٥]، فَأَمَرَهُ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ بِالصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ لَابُدَّ لَهُمْ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ، أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةٍ**»(١)، وَقَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(٢)، وَكَانَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي؛ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي، وَهَزْلِي وَجِدِّي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي؛ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ**»(٣). وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إِلَيْهِ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ؛ وَعَنْ إِبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ - لَعَنَهُ اللهُ - أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ، فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ، فَمَنْ أَذْنَبَ وَتَابَ وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ، وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) في كتاب الدعوات، عن أبي هريرة، وطرفه: «وَاللهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ..».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) في كتاب الذكر والدعاء، عن الأغر المزني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٩) في كتاب الذكر والدعاء، عن أبي موسى الأشعري.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣]، وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ آيَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود:١-٣].

وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُ نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْت مِنْ الظَّالِمِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ، مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ**»(١). وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ فِي الْأَمْرِ مَنْ أَصْلَيْنِ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي الْقَدَرِ مِنْ أَصْلَيْنِ.

فَفِي (الْأَمْرِ) عَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي الِامْتِثَالِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَلَا تَزَالُ تَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ، ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي الْمَأْمُورِ، وَتَعَدِّيهِ الْحُدُودَ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ الْمَشْرُوعِ أَنْ يَخْتِمَ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا(٢)، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، فَقَامُوا بِاللَّيْلِ وَخَتَمُوهُ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ

---

(١) بنحوه، أخرجه أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥)، وصححه الألباني، من حديث سعد.

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١) في كتاب المساجد، وأبو داود (١٥١٣) عن ثوبان.

يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣]، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي». يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ(١).

وَأَمَّا فِي (الْقَدَرِ) فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُوَهُ؛ وَيَرْغَبَ إلَيْهِ وَيَسْتَعِيذَ بِهِ، وَيَكُونَ مُفْتَقِرًا إلَيْهِ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ؛ وَإِذَا آذَاهُ النَّاسُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى، لَمَّا قَالَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَك اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ؛ لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللهُ بِكَلَامِهِ! فَبِكَمْ وَجَدْتَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، قَالَ: بِكَذَا وَكَذَا. فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى(٢). وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ عَتَبُهُ لِآدَمَ لِأَجْلِ الذَّنْبِ، فَإِنَّ آدَمَ قَدْ كَانَ تَابَ مِنْهُ، وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ؛ وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إلَى الْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ، وَأَنْ يَسْتَغْفِرُوا مِنْ المعائب، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥]، فَمَنْ رَاعَى الْأَمْرَ وَالْقَدَرَ كَمَا ذُكِرَ: كَانَ عَابِدًا للهِ، مُطِيعًا لَهُ، مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مِنْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. (٣/ ١١٩).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩٤) في كتاب الأذان، ومسلم (٤٨٤) في كتاب الصلاة عن عائشة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) في كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٦٥٢) في كتاب القدر، عن أبي هريرة.

فائدة: في معنى العلو والمعية

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ؛ بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ؛ وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ، أَيْنَمَا كَانَ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إلَيْهِمْ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ -مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا- حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنْ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ، مِثْلَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، أَنَّ السَّمَاءَ تُقِلُّهُ أَوْ تُظِلُّهُ؛ وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إلَّا بِإِذْنِهِ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥]. (٣/ ١٤٢).

استعمال اللين والشدة، كلٌّ في موضعه

في الرد على المخالف

مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ لِينِ الْكَلَامِ وَالْمُخَاطَبَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: فَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِهَذَا، لَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ حَسَنٌ، وَحَيْثُ أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِالْإِغْلَاظِ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ لِبَغْيِهِ، وَعُدْوَانِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِمُقَابَلَتِهِ، لَمْ نَكُنْ مَأْمُورِينَ أَنْ نُخَاطِبَهُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. (٣/ ٢٣٢).

فائدة: بيان التأويل والتحريف

وَذَكَرْتُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ: أَنِّي عَدَلْتُ عَنْ لَفْظِ التَّأْوِيلِ إِلَى لَفْظِ التَّحْرِيفِ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيفَ اسْمٌ جَاءَ الْقُرْآنُ بِذَمِّهِ، وَأَنَا تَحَرَّيْت فِي هَذِهِ الْعَقِيدَةِ اتِّبَاعَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَنَفَيْت مَا ذَمَّهُ اللهُ مِنْ التَّحْرِيفِ، وَلَمْ أَذْكُرْ فِيهَا لَفْظَ التَّأْوِيلِ بِنَفْيٍ وَلَا إثْبَاتٍ؛ لِأَنَّهُ لَفْظٌ لَهُ عِدَّةُ مَعَانٍ، كَمَا بَيَّنْتُه فِي مَوْضِعِهِ مِنْ الْقَوَاعِدِ، فَإِنَّ مَعْنَى لَفْظِ (التَّأْوِيلِ) فِي كِتَابِ اللهِ: غَيْرُ مَعْنَى لَفْظِ التَّأْوِيلِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَأَخِّرِينَ؛ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ وَالْفِقْهِ، وَغَيْرُ مَعْنَى لَفْظِ التَّأْوِيلِ فِي اصْطِلَاحِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالسَّلَفِ؛ لِأَنَّ مِنْ الْمَعَانِي الَّتِي قَدْ تُسَمَّى تَأْوِيلًا مَا هُوَ صَحِيحٌ مَنْقُولٌ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ؛ فَلَمْ أَنْفِ مَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَى صِحَّتِهِ، فَإِذَا مَا قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَى صِحَّتِهِ، وَهُوَ مَنْقُولٌ عَنْ السَّلَفِ، فَلَيْسَ مِنْ التَّحْرِيفِ. (٣/ ١٦٥).

أهل السنة والجماعة

❁ مُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانِ. (٣/ ٣٧٥).

❁ وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَيَتَّبِعُونَ الْحَقَّ، وَيَرْحَمُونَ الْخَلْقَ. (٣/ ٢٧٩).

كيف تتحصل على اليقين؟

وَأَمَّا كَيْفَ يَحْصُلُ الْيَقِينُ فَبِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا- تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ.

وَالثَّانِي- تَدَبُّرُ الْآيَاتِ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللهُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وَالثَّالِثُ- الْعَمَلُ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ. (٣/ ٣٣٠).

فائدة: العلم نوعان

وَأَمَّا الْعِلْمُ فَيُرَادُ بِهِ فِي الْأَصْلِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا- الْعِلْمُ بِهِ نَفْسِهِ؛ وَبِمَا هُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ مِنْ نُعُوتِ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى.

وَهَذَا الْعِلْمُ إِذَا رَسَخَ فِي الْقَلْبِ أَوْجَبَ خَشْيَةَ الله لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ يُثِيبُ عَلَى طَاعَتِهِ؛ وَيُعَاقِبُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ؛ كَمَا شَهِدَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالْعِيَانُ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ أَبِي حَيَّانَ التيمي -أَحَدِ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ- الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ عَالِمًا بِأَمْرِ الله، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ الله لَيْسَ عَالِمًا بِالله، وَعَالِمٌ بِالله وَبِأَمْرِ الله.

فَالْعَالِمُ بِاللَّهِ الَّذِي يَخْشَى الله، وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ الله الَّذِي يَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِلشَّعْبِيِّ[1]: أَيُّهَا الْعَالِمُ، فَقَالَ: إِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَى الله.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: كَفَى بِخَشْيَةِ اللهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِالِاغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا[2].

وَالنَّوْعُ الثَّانِي- يُرَادُ بِالْعِلْمِ بِاللَّهِ: الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ تَرَخَّصَ فِي شَيْءٍ، فَبَلَغَهُ أَنَّ أَقْوَامًا تَنَزَّهُوا عَنْهُ، فَقَالَ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ أَشْيَاءَ أَتَرَخَّصُ فِيهَا، وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَخْشَاهُمْ لَهُ**»[3]. وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاهُمْ للهِ وَأَعْلَمُهُمْ بِحُدُودِهِ**». فَجَعَلَ الْعِلْمَ بِهِ هُوَ الْعِلْمَ بِحُدُودِهِ. (٣/ ٣٣٣).

---

(١) هو التابعي الإمام عامر بْن شراحيل الشعبي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه ابن المبارك (١٥) في الزهد، والإمام أحمد في الزهد (٨٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠١) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٣٥٦) عن عائشة.

الفرقة الناجية

أَحَقُّ النَّاسِ بِأَنْ تَكُونَ هِيَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مَتْبُوعٌ يَتَعَصَّبُونَ لَهُ إِلَّا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُم أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَأَعْظَمُهُمْ تَمْيِيزًا بَيْنَ صَحِيحِهَا وَسَقِيمِهَا، وَأَئِمَّتُهُمْ فُقَهَاءُ فِيهَا، وَأَهْلُ مَعْرِفَةٍ بِمَعَانِيهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا. (٣/ ٣٤٧).

قاعدة: مجاوزة الحد

الِانْحِرَافُ عَنْ الْوَسَطِ كَثِيرٌ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ فِي أَغْلَبِ النَّاسِ، مِثْلَ تَقَابُلِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَفْعَالِ يَتَّخِذُهَا بَعْضُهُمْ دِينًا وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا أَوْ مَأْمُورًا بِهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَبَعْضُهُمْ يَعْتَقِدُهَا حَرَامًا مَكْرُوهًا، أَوْ مُحَرَّمًا، أَوْ مَنْهِيًّا عَنْهُ فِي الْجُمْلَةِ.

مِثَالُ ذَلِكَ (سَمَاعُ الْغِنَاءِ)، فَإِنَّ طَائِفَةً مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ تَتَّخِذُهُ دِينًا، وَإِنْ لَمْ تَقُلْ بِأَلْسِنَتِهَا أَوْ تَعْتَقِدْ بِقُلُوبِهَا أَنَّهُ قُرْبَةٌ- فَإِنَّ دِينَهُمْ حَالٌ؛ لَا اعْتِقَادٌ، فَحَالُهُمْ وَعَمَلُهُمْ هُوَ اسْتِحْسَانُهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَحَبَّتُهُمْ لَهَا دِيَانَةً، وَتَقَرُّبًا إِلَى اللهِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ وَيَقُولُهُ بِلِسَانِهِ.

وَفِيهِمْ مَنْ يَعْتَقِدُ وَيَقُولُ: لَيْسَ قُرْبَةً. لَكِنَّ حَالَهُمْ هُوَ كَوْنُهُ قُرْبَةً وَنَافِعًا فِي الدِّينِ وَمُصْلِحًا لِلْقُلُوبِ، وَيَغْلُو فِيهِ مَنْ يَغْلُو؛ حَتَّى يَجْعَلَ التَّارِكِينَ لَهُ كُلَّهُمْ خَارِجِينَ عَنْ وِلَايَةِ اللهِ وَثَمَرَاتِهَا مِنْ الْمَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ.

وَبِإِزَائِهِمْ مَنْ يُنْكِرُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْغِنَاءِ وَيُحَرِّمُهُ، وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ غِنَاءِ الصَّغِيرِ، وَالنِّسَاءِ فِي الْأَفْرَاحِ، وَغِنَاءِ غَيْرِهِنَّ، وَغِنَائِهِنَّ فِي غَيْرِ الْأَفْرَاحِ.

وَيَغْلُو مَنْ يَغْلُو فِي فَاعِلِيهِ حَتَّى يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ فُسَّاقًا أَوْ كُفَّارًا، وَهَذَانِ الطَّرَفَانِ مِنْ اتِّخَاذِ مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ دِينًا، أَوْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ دِينُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّصَارَى الَّذِي عَابَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى، فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**»(١)، وَقَالَ فِي حَقِّ النَّصَارَى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٢٩].

وَاعْلَمْ أَنَّ (مُجَاوَزَةَ الْحَدِّ) هِيَ نَوْعٌ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّهْيِ؛ لِأَنَّ اعْتِدَاءَ الْحَدِّ مُحَرَّمٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، فَيَدْخُلُ فِي قِسْمِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ.

لَكِنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ قِسْمَانِ:

١- مَنْهِيٌّ عَنْهُ مُطْلَقًا؛ كَالْكُفْرِ، فَهَذَا فِعْلُهُ إِثْمٌ، وَمَنْهِيٌّ عَنْهُ.

٢- وَقِسْمٌ أُبِيحَ مِنْهُ أَنْوَاعٌ وَمَقَادِيرُ، وَحَرَّمَ الزِّيَادَةَ عَلَى تِلْكَ الْأَنْوَاعِ وَالْمَقَادِيرِ، فَهَذَا فِعْلُهُ عُدْوَانٌ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَحْصُلُ الْعُدْوَانُ فِي الْمَأْمُورِ بِهِ، كَمَا يَحْصُلُ فِي الْمُبَاحِ، فَإِنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَأْمُورِ بِهِ قَدْ يَكُونُ عُدْوَانًا مُحَرَّمًا، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا مُطْلَقًا، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا إِلَى غَايَةٍ، فَالزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عُدْوَانٌ. (٣/ ٣٥٩).

فائدة: مقام الصحابة

يَجِبُ الِاقْتِصَادُ وَالِاعْتِدَالُ فِي أَمْرِ (الصَّحَابَةِ) و(الْقَرَابَةِ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى أَصْحَابِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) في كتاب الجنة ونعيمها، وطرفه: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم..».

رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ؛ وَذَكَرَهُمْ فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ؛ مِثْلَ قَوْله تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، وَفِي الصِّحَاحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»(١)، وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى مَا تَوَاتَرَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢). وَاتَّفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَيْعَةِ عُثْمَانَ بَعْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ تَصِيرُ مُلْكًا**»(٣)، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٤)، وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آخِرَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَقَدْ اتَّفَقَ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْأَجْنَادِ عَلَى أَنْ يَقُولُوا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) في كتاب فضائل الصحابة، ومسلم (٢٥٤١) في كتاب فضائل الصحابة، عن أبي سعيد.

(٢) **صحيح**. أخرجه أحمد (١/ ١١٥و١٢٥)، والطبراني في الأوسط (٩٩٦و٢٧٤٩و٣٤١٧و٣٦٧٣)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٩٩٣). وقال: إسناد صحيح.

(٣) **صحيح**. أخرجه أبو داود (٤٦٤٧) والترمذي (٢٢٢٦)، عن سفينة. وصححه الألباني.

(٤) تقدم تخريجه.

وَدَلَائِلُ ذَلِكَ وَفَضَائِلُ الصَّحَابَةِ كثيرٌ؛ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ، وَكَذَلِكَ نُؤْمِنُ (بِالْإِمْسَاكِ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)، وَنَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ الْمَنْقُولِ فِي ذَلِكَ كَذِبٌ، وَهُمْ كَانُوا مُجْتَهِدِينَ؛ إِمَّا مُصِيبِينَ لَهُمْ أَجْرَانِ؛ أَوْ مُثَابِينَ عَلَى عَمَلِهِمْ الصَّالِحِ، مَغْفُورًا لَهُمْ خَطَؤُهُمْ؛ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ السَّيِّئَاتِ -وَقَدْ سَبَقَ لَهُمْ مِنْ اللهِ الْحُسْنَى- فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُهَا لَهُمْ: إِمَّا بِتَوْبَةٍ، أَوْ بِحَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ، أَوْ مَصَائِبَ مُكَفِّرَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ خَيْرُ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي الَّذِي بُعِثْت فِيهِمْ؛ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١). وَهَذِهِ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ. (٣/ ٤٠٥).

فائدة: أهل السعادتين

وَإِذَا كَانَتْ (سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) هِيَ بِاتِّبَاعِ الْمُرْسَلِينَ، فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِذَلِكَ: هُمْ أَعْلَمُهُمْ بِآثَارِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَتْبَعُهُمْ لِذَلِكَ، فَالْعَالِمُونَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، الْمُتَّبِعُونَ لَهَا، هُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهُمْ الطَّائِفَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّهُمْ يُشَارِكُونَ سَائِرَ الْأُمَّةِ فِيمَا عِنْدَهُمْ مِنْ أُمُورِ الرِّسَالَةِ، وَيَمْتَازُونَ عَنْهُمْ بِمَا اُخْتُصُّوا بِهِ مِنْ الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ الرَّسُولِ؛ مِمَّا يَجْهَلُهُ غَيْرُهُمْ، أَوْ يُكَذِّبُ بِهِ.

وَالرُّسُلُ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ- عَلَيْهِمْ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وَقَدْ بَلَّغُوا الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْزَلَ اللهُ كِتَابَهُ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَهُوَ الْأَمِينُ عَلَى جَمِيعِ الْكُتُبِ، وَقَدْ بَلَّغَ أَبْيَنَ الْبَلَاغِ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ، وَكَانَ أَنْصَحَ الْخَلْقِ لِعِبَادِ الله، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفًا رَحِيمًا، بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٤) في كتاب فضائل الصحابة، بنحوه عن أبي هريرة.

وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَعَبَدَ اللهَ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ. فَأَسْعَدُ الْخَلْقِ وَأَعْظَمُهُمْ نَعِيمًا وَأَعْلَاهُمْ دَرَجَةً: أَعْظَمُهُمْ اتِّبَاعًا وَمُوَافَقَةً لَهُ، عِلْمًا وَعَمَلًا. (٤/ ٢٦).

نفـائس

❁ النُّفُوسُ أَحْوَجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ [رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]، وَاتِّبَاعِهِ، مِنْهَا إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ هَذَا إِذَا فَاتَ حَصَلَ الْمَوْتُ فِي الدُّنْيَا، وَذَاكَ إِذَا فَاتَ حَصَلَ الْعَذَابُ. (١/ ٥).

❁ السَّعَادَةُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ: أَنْ تُعَامِلَهُمْ للهِ؛ فَتَرْجُوَ اللهَ فِيهِمْ، وَلَا تَرْجُوَهُمْ فِي اللهِ، وَتَخَافَهُ فِيهِمْ، وَلَا تَخَافَهُمْ فِي اللهِ. (١/ ٥١).

❁ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ للهِ وَلِيًّا. (٢/ ٢٢٤).

❁ مَتَى تَرَكَ النَّاسُ بَعْضَ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ؛ وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ. (٣/ ٤٢١).

❁ لا يَحْصُلُ الْإِخْلَاصُ إِلَّا بَعْدَ الزُّهْدِ، وَلَا زُهْدَ إِلَّا بِتَقْوَى، وَالتَّقْوَى مُتَابَعَةُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. (١/ ٩٤).

❁ طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ قُطْبُ السَّعَادَةِ الَّتِي عَلَيْهِ تَدُورُ، وَمُسْتَقَرُّ النَّجَاةِ الَّذِي عَنْهُ لَا تَحُورُ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ. (٤/ ١).

❁ الْعِلْمَ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ. (٦/ ٣٨٨).

❁ الْحَاجَةُ إِلَى الْهُدَى أَعْظَمُ مِنْ الْحَاجَةِ إِلَى النَّصْرِ وَالرِّزْقِ. (١٤/ ٣٩).

❁ لَا يُنْفَقُ الْبَاطِلُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا بِشَوْبٍ مِنْ الْحَقِّ. (٣٥/ ١٩٠).

❁ طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ قُطْبُ السَّعَادَةِ الَّتِي عَلَيْهِ تَدُورُ، وَمُسْتَقَرُّ النَّجَاةِ الَّذِي عَنْهُ لَا تَحُورُ. (١/ ٤).

فائدة: الفطرة والشريعة

كُلُّ مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ، وَلَهُ أَعْبَدَ، وَدُعَاؤُهُ لَهُ أَكْثَرَ، وَقَلْبُهُ لَهُ أَذْكَرَ، كَانَ عِلْمُهُ الضَّرُورِيُّ بِذَلِكَ أَقْوَى وَأَكْمَلَ، فَالْفِطْرَةُ مُكَمَّلَةٌ بِالْفِطْرَةِ الْمُنْزَلَةِ، فَإِنَّ الْفِطْرَةَ تُعْلِمُ الْأَمْرَ مُجْمَلًا، وَالشَّرِيعَةُ تُفَصِّلُهُ وَتُبَيِّنُهُ، وَتَشْهَدُ بِمَا لَا تَسْتَقِلُّ الْفِطْرَةُ بِهِ، فَهَذَا هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٤/ ٤٥).

الخارجون عن منهاج السلف

تَجِدُ عَامَّةَ هَؤُلَاءِ الْخَارِجِينَ عَنْ مِنْهَاجِ السَّلَفِ؛ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ، يَعْتَرِفُ بِذَلِكَ: إمَّا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَإِمَّا قَبْلَ الْمَوْتِ. وَالْحِكَايَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ.

١- هَذَا أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ[(١)]: نَشَأَ فِي الِاعْتِزَالِ أَرْبَعِينَ عَامًا، يُنَاظِرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، وَصَرَّحَ بِتَضْلِيلِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَبَالَغَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِم.

٢- وَهَذَا أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ، مَعَ فَرْطِ ذَكَائِهِ وَتَأَلُّهِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ، وَسُلُوكِهِ طَرِيقَ الزُّهْدِ وَالرِّيَاضَةِ وَالتَّصَوُّفِ، يَنْتَهِي فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ إلَى الْوَقْفِ وَالْحَيْرَةِ، وَيُحِيلُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكَشْفِ، وَإِنْ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعَ إلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَصَنَّفَ (إلْجَامَ الْعَوَامِّ عَنْ عِلْمِ الْكَلَامِ).

٣- وَكَذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِي، قَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي أَقْسَامِ اللَّذَّاتِ: «لَقَدْ تَأَمَّلْت الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتهَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَلَا تَرْوِي غَلِيلًا، وَرَأَيْت أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ: أَقْرَأُ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ

---

(١) هو الإمام أبو الحسن الأشعري، رجع وتاب عن الاشتغال بعلم الكلام، إلى الانتصار لمذهب السلف والدفاع عنه، وألف في ذلك مؤلفات من أهمها كتاب (الإبانة في أصول الديانة)، وقد أكد رجوعه جمع من العلماء منهم ابن عساكر وابن خلكان وابن تيمية والحافظ ابن كثير والذهبي وغيرهم.

عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥]، ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي». وَكَانَ يَتَمَثَّلُ كَثِيرًا:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

٤- وَهَذَا إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ[1] تَرَكَ مَا كَانَ يَنْتَحِلُهُ وَيُقَرِّرُهُ، وَاخْتَارَ مَذْهَبَ السَّلَفِ. وَكَانَ يَقُولُ: «يَا أَصْحَابَنَا، لَا تَشْتَغِلُوا بِالْكَلَامِ، فَلَوْ أَنِّي عَرَفْت أَنَّ الْكَلَامَ يَبْلُغُ بِي إِلَى مَا بَلَغَ مَا اشْتَغَلْت بِهِ».

وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ: «لَقَدْ خُضْت الْبَحْرَ الْخِضَمَّ، وَخَلَّيْت أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ، وَدَخَلْت فِيمَا نَهَوْنِي عَنْهُ، وَالْآنَ: إنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ فَالْوَيْلُ لِابْنِ الجُوَيْنِي، وَهَأنذا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي -أَوْ قَالَ: عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ».

٥- وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّهْرِسْتَانِيّ «أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِين إلَّا الْحَيْرَةَ وَالنَّدَمَ»، وَكَانَ يَنْشُدُ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْت الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْت طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

---

(١) هو الإمام أبو المعالي الجويني المتوفى سنة (٤٧٨هـ).

٦- وَابْنُ الْفَارِضِ[1] -مِنْ مُتَأَخِّرِي الِاتِّحَادِيَّةِ، صَاحِبُ الْقَصِيدَةِ التَّائِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِـ«نَظْمِ السُّلُوكِ»، وَقَدْ نَظَمَ فِيهَا الِاتِّحَادَ نَظْمًا رَائِقَ اللَّفْظِ، فَهُوَ أَخْبَثُ مَنْ لَحْمِ خِنْزِيرٍ فِي صِينِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ.

وَمَا أَحْسَنَ تَسْمِيَتَهَا بِنَظْمِ الشُّكُوكِ، اللهُ أَعْلَمُ بِهَا وَبِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ نَفَقَتْ كَثِيرًا، وَبَالَغَ أَهْلُ الْعَصْرِ فِي تَحْسِينِهَا وَالِاعْتِدَادِ بِمَا فِيهَا مِنَ الِاتِّحَادِ - لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَنْشَدَ:

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمُ ... مَا قَدْ لَقِيت فَقَدْ ضَيَّعْت أَيَّامِي

أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا ... وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامِ

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ: أَنْ يُثَبِّتَ اللهُ الْعَبْدَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٣٩-٤٠].

فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَثَلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- مَثَلُ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ الَّذِي يَحْسَبُهُ صَاحِبُهُ مَوْجُودًا، وَفِي الْوَاقِعِ يَكُونُ خَيَالًا مَعْدُومًا كَالسَّرَابِ، وَأَنَّ الْقَلْبَ عَطْشَانُ إِلَى الْحَقِّ كَعَطَشِ الْجَسَدِ إِلَى الْمَاءِ، فَإِذَا طَلَبَ مَا ظَنَّهُ مَاءً وَجَدَهُ سَرَابًا، وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَهَكَذَا تَجِدُ عَامَّةَ هَؤُلَاءِ الْخَارِجِينَ عَنِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

---

(١) تقدمت ترجمته.

وَالْمَثَلُ الثَّانِي- مَثَلُ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ الْبَسِيطِ الَّذِي لَا يَتَبَيَّنُ فِيهِ صَاحِبُهُ حَقًّا، وَلَا يَرَى فِيهِ هُدًى، وَالْكُفْرُ الْمُرَكَّبُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَسِيطِ، وَكُلُّ كُفْرٍ فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ جَهْلٍ مُرَكَّبٍ.

فَضَرَبَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَثَلَيْنِ بِذَلِكَ لِيُبَيِّنَ حَالَ الِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ، وَيُبَيِّنَ حَالَ عَدَمِ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، وَهُوَ يُشْبِهُ حَالَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، حَالَ الْمُصَمِّمِ عَلَى الْبَاطِلِ، حَتَّى يَحِلَّ بِهِ الْعَذَابُ، وَحَالَ الضَّالِّ الَّذِي لَا يَرَى طَرِيقَ الْهُدَى، فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ يَرْزُقَنَا الِاعْتِصَامَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. (٤/ ٧٢).

فائدة: الكلمة أصل العقيدة

وَالْكَلِمَةُ: أَصْلُ الْعَقِيدَةِ، فَإِنَّ الِاعْتِقَادَ هُوَ الْكَلِمَةُ الَّتِي يَعْتَقِدُهَا الْمَرْءُ، وَأَطْيَبُ الْكَلَامِ وَالْعَقَائِدِ: كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، وَاعْتِقَادُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَأَخْبَثُ الْكَلَامِ وَالْعَقَائِدِ: كَلِمَةُ الشِّرْكِ، وَهُوَ اتِّخَاذُ إِلَهٍ مَعَ اللهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦]. وَلِهَذَا كَانَ كُلَّمَا بَحَثَ الْبَاحِثُ، وَعَمِلَ الْعَامِلُ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَالْعَقَائِدِ الْخَبِيثَةِ؛ لَا يَزْدَادُ إِلَّا ضَلَالًا، وَبُعْدًا عَنْ الْحَقِّ، وَعِلْمًا بِبُطْلَانِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٣٩-٤٠]. (٤/ ٧٤).

أتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا

مِنْ الْمُسْتَقِرِّ فِي أَذْهَانِ الْمُسْلِمِينَ: أَنَّ وَرَثَةَ الرُّسُلِ وَخُلَفَاءَ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ الَّذِينَ قَامُوا بِالدِّينِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، وَدَعْوَةً إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ، فَهَؤُلَاءِ أَتْبَاعُ الرَّسُولِ حَقًّا، وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ

الطَّائِفَةِ الطَّيِّبَةِ مِنْ الْأَرْضِ الَّتِي زَكَتْ فَقَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، فَزَكَتْ فِي نَفْسِهَا وزكى النَّاسُ بِهَا.

وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ، وَالْقُوَّةِ عَلَى الدَّعْوَةِ، وَلِذَلِكَ كَانُوا وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص:٤٥]. (٤/ ٩٢).

السنة مثل سفينة نوح

سَبَبُ ظُهُورِ الْبِدَعِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ هُوَ خَفَاءُ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ فِيهِمْ، وَبِذَلِكَ يَقَعُ الْهَلَاكُ، وَلِهَذَا كَانُوا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ.

قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّنَّةُ مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ؛ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ»، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ إِنَّمَا رَكِبَهَا مَنْ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ وَاتَّبَعَهُمْ، وَإِنَّ مَنْ لَمْ يَرْكَبْهَا فَقَدْ كَذَّبَ الْمُرْسَلِينَ.

وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ هُوَ اتِّبَاعُ الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ عِنْدِ الله، فَتَابِعُهَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَكِبَ مَعَ نُوحٍ السَّفِينَةَ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَالْمُتَخَلِّفُ عَنْ اتِّبَاعِ الرِّسَالَةِ بِمَنْزِلَةِ الْمُتَخَلِّفِ عَنْ اتِّبَاعِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَرُكُوبِ السَّفِينَةِ مَعَهُ. (٤/ ١٣٧).

إظهار مذهب السلف والانتساب إليه

لَا عَيْبَ عَلَى مَنْ أَظْهَرَ مَذْهَبَ السَّلَفِ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ وَاعْتَزَى إِلَيْهِ، بَلْ يَجِبُ قَبُولُ ذَلِكَ مِنْهُ بِالِاتِّفَاقِ، فَإِنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ لَا يَكُونُ إِلَّا حَقًّا. (٤/ ١٤٩).

الخيرية في القرون الثلاثة

مِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ لِمَنْ تَدَبَّرَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ: أَنَّ خَيْرَ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ - فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالِاعْتِقَادِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ- أَنَّ خَيْرَهَا: الْقَرْنُ الْأَوَّلُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ الْخَلَفِ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ؛ مِنْ عِلْمٍ، وَعَمَلٍ، وَإِيمَانٍ، وَعَقْلٍ، وَدِينٍ، وَبَيَانٍ، وَعِبَادَةٍ، وَأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْبَيَانِ لِكُلِّ مُشْكِلٍ.

هَذَا لَا يَدْفَعُهُ إلَّا مَنْ كَابَرَ الْمَعْلُومَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ؛ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ؛ أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ: أَبَرُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا، وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمْ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ». وَقَالَ غَيْرُهُ: «عَلَيْكُمْ بِآثَارِ مَنْ سَلَفَ فَإِنَّهُمْ جَاءُوا بِمَا يَكْفِي وَمَا يَشْفِي، وَلَمْ يَحْدُثْ بَعْدَهُمْ خَيْرٌ كَامِنٌ لَمْ يَعْلَمُوهُ». (٤/ ١٥٧).

الروح والبدن

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عِبَارَةٌ عَنْ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ مَعًا، بَلْ هُوَ بِالرُّوحِ أَخَصُّ مِنْهُ بِالْبَدَنِ، وَإِنَّمَا الْبَدَنُ مَطِيَّةٌ لِلرُّوحِ، كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «إنَّمَا بَدَنِي مَطِيَّتِي، فَإِنْ رَفَقْتُ بِهَا بَلَّغَتْنِي، وَإِنْ لَمْ أَرْفُقْ بِهَا لَمْ تُبَلِّغْنِي». وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ منده وَغَيْرُهُ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «لَا تَزَالُ الْخُصُومَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَخْتَصِمَ الرُّوحُ وَالْبَدَنُ، فَتَقُولُ الرُّوحُ لِلْبَدَنِ: أَنْتَ عَمِلْتَ السَّيِّئَاتِ. فَيَقُولُ الْبَدَنُ لِلرُّوحِ: أَنْتِ

أَمَرْتنِي. فَيَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا يَقْضِي بَيْنَهُمَا؛ فَيَقُولُ: إِنَّمَا مَثَلُكُمَا كَمَثَلِ مُقْعَدٍ وَأَعْمَى دَخَلَا بُسْتَانًا، فَرَأَى الْمُقْعَدُ فِيهِ ثَمَرًا مُعَلَّقًا، فَقَالَ لِلْأَعْمَى: إِنِّي أَرَى ثَمَرًا، وَلَكِنْ لَا أَسْتَطِيعُ النُّهُوضَ إِلَيْهِ. وَقَالَ الْأَعْمَى: لَكِنِّي أَسْتَطِيعُ النُّهُوضَ إِلَيْهِ، وَلَكِنِّي لَا أَرَاهُ. فَقَالَ لَهُ الْمُقْعَدُ: تَعَالَ فَاحْمِلْنِي حَتَّى أَقْطِفَهُ؛ فَحَمَلَهُ، وَجَعَلَ يَأْمُرُهُ، فَيَسِيرُ بِهِ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَطَعَ الثَّمَرَةَ. قَالَ الْمَلَكُ: فَعَلَى أَيِّهِمَا الْعُقُوبَةُ؟ فَقَالَا: عَلَيْهِمَا جَمِيعًا. قَالَ: فَكَذَلِكَ أَنْتُمَا». (٤/ ٢٢٢).

بأي لغة يتكلم أهل الجنة؟

لَا يُعْلَمُ بِأَيِّ لُغَةٍ يَتَكَلَّمُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ، وَلَا بِأَيِّ لُغَةٍ يَسْمَعُونَ خِطَابَ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُخْبِرْنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا رَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ يَصِحَّ أَنَّ الْفَارِسِيَّةَ لُغَةُ الجهنميين، وَلَا أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ لُغَةُ أَهْلِ النَّعِيمِ الْأَبَدِيِّ، وَلَا نَعْلَمُ نِزَاعًا فِي ذَلِكَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، بَلْ كُلُّهُمْ يَكُفُّونَ عَنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ فُضُولِ الْقَوْلِ، وَلَا قَالَ اللهُ تَعَالَى لِأَصْحَابِ الثَّرَى، وَلَكِنْ حَدَثَ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ بَيْنَ الْمُتَأَخِّرِينَ.

فَقَالَ نَاسٌ: يَتَخَاطَبُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِلَّا أَهْلَ النَّارِ فَإِنَّهُمْ يُجِيبُونَ بِالْفَارِسِيَّةِ وَهِيَ لُغَتُهُمْ فِي النَّارِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: يَتَخَاطَبُونَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ لِأَنَّهَا لُغَةُ آدَمَ وَعَنْهَا تَفَرَّعَتْ اللُّغَاتُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: إِلَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا حُجَّةَ لِأَرْبَابِهَا لَا مِنْ طَرِيقِ عَقْلٍ وَلَا نَقْلٍ بَلْ هِيَ دَعَاوَى عَارِيَةٌ عَنْ الْأَدِلَّةِ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ . (٤/ ٣٠٠).

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الثانية

كَانَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، مَعَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ يُوسُفَ وَإِدْرِيسَ وَهَارُونَ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ النُّزُولَ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ، وَآدَمُ كَانَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا لِأَنَّ نَسَمَ بَنِيهِ تُعْرَضُ عَلَيْهِ. (٤/ ٣٢٩).

هَلْ سَجَدَ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ خَاصَّةً؟

الْحَمْدُ للهِ. بَلْ أَسْجَدَ لَهُ جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر:٣٠]، فَهَذِهِ ثَلَاثُ صِيَغٍ مُقَرِّرَةٍ لِلْعُمُومِ وَلِلاسْتِغْرَاقِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يَقْتَضِي جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ؛ فَإِنَّ اسْمَ الْجَمْعِ الْمُعَرَّفِ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ يَقْتَضِي الْعُمُومَ: كَقَوْلِهِ: «رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»[1] فَهُوَ رَبُّ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ.

الثَّانِي- ﴿كُلُّهُمْ﴾ وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْعُمُومِ.

الثَّالِثُ- قَوْلُهُ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ وَهَذَا تَوْكِيدٌ لِلْعُمُومِ، فَمَنْ قَالَ إِنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ لَهُ جَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ؛ بَلْ مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ فَقَدْ رَدَّ الْقُرْآنَ». (٤/ ٣٤٥).

منزلة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أَمَّا الصِّدِّيقُ، فَإِنَّهُ مَعَ قِيَامِهِ بِأُمُورِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ عَجَزَ عَنْهَا غَيْرُهُ -حَتَّى بَيَّنَهَا لَهُمْ- لَمْ يُحْفَظْ لَهُ قَوْلٌ مُخَالِفٌ نَصًّا، هَذَا يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ الْبَرَاعَةِ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَحُفِظَتْ لَهُ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ خَالَفَتْ النَّصَّ؛ لِكَوْنِ تِلْكَ النُّصُوصِ لَمْ تَبْلُغْهُمْ. (٤/ ٤٠٣).

---

(١) جزء من حديث عائشة أم المؤمنين في صحيح مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود عن عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ».

فائدة: ثمرة الافتقار إلى الله تعالى

إذا افْتَقَرَ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ وَدَعَاهُ، وَأَدْمَنَ النَّظَرَ فِي كَلَامِ الله، وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ: انْفَتَحَ لَهُ طَرِيقُ الْهُدَى. (٥/ ١١٨).

فائدة: فيما يُفسد الدنيا

قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: أَكْثَرُ مَا يُفْسِدُ الدُّنْيَا: نِصْفُ مُتَكَلِّمٍ، وَنِصْفُ مُتَفَقِّهٍ، وَنِصْفُ مُتَطَبِّبٍ، وَنِصْفُ نَحْوِيٍّ، هَذَا يُفْسِدُ الْأَدْيَانَ، وَهَذَا يُفْسِدُ الْبُلْدَانَ، وَهَذَا يُفْسِدُ الْأَبْدَانَ، وَهَذَا يُفْسِدُ اللِّسَانَ. (٥/ ١١٨).

فائدة: إن الله قد أحاط بكل شيء علمًا

قال الْإِمَامُ أَحْمَد فِي كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّة وَالزَّنَادِقَةِ: مِنْ الِاعْتِبَارِ فِي ذَلِكَ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي يَدِهِ قَدَحٌ مِنْ قَوَارِيرَ صَافٍ، وَفِيهِ شَيْءٌ صَافٍ، لَكَانَ نَظَرُ ابْنِ آدَمَ قَدْ أَحَاطَ بِالْقَدَحِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يكُونَ ابْنُ آدَمَ فِي الْقَدَحِ، وَاللَّهُ -وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى- قَدْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ.

وَخَصْلَةٌ أُخْرَى: لَوْ أَنَّ رَجُلاً بَنَى دَارًا بِجَمِيعِ مَرَافِقِهَا، ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهَا وَخَرَجَ؛ كَانَ ابْنُ آدَمَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ كَمْ بَيْتٌ فِي دَارِهِ، وَكَمْ سِعَةُ كُلِّ بَيْتٍ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الدَّارِ فِي جَوْفِ الدَّارِ، فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ -وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى- قَدْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَعَلِمَ كَيْفَ هُوَ؟ وَمَا هُوَ؟ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ. (٥/ ٣١٢).

فائدة: لكل مقام مقال

إِنَّ الْمَسَائِلَ الْخَبَرِيَّةَ الْعِلْمِيَّةَ قَدْ تَكُونُ وَاجِبَةَ الِاعْتِقَادِ، وَقَدْ تَجِبُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، وَعَلَى قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ؛ وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَحَبَّةً غَيْرَ وَاجِبَةٍ، وَقَدْ تُسْتَحَبُّ لِطَائِفَةٍ، أَوْ

فِي حَالٍ، كَالْأَعْمَالِ سَوَاءً، وَقَدْ تَكُونُ مَعْرِفَتُهَا مُضِرَّةً لِبَعْضِ النَّاسِ، فَلَا يَجُوزُ تَعْرِيفُهُ بِهَا، كَمَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ؛ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»(١). وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُحَدِّثُ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ»(٢). وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق:١٢] الْآيَةَ، فَقَالَ: «مَا يُؤَمِّنُك أَنِّي لَوْ أَخْبَرْتُك بِتَفْسِيرِهَا لَكَفَرْتَ؟ وَكُفْرُك تَكْذِيبُك بِهَا». وَقَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]: «هُوَ يَوْمٌ أَخْبَرَ اللهُ بِهِ، اللهُ أَعْلَمُ بِهِ». وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ عَنْ السَّلَفِ.

فَإِذَا كَانَ الْعِلْمُ بِهَذِهِ الْمَسَائِلِ قَدْ يَكُونُ نَافِعًا، وَقَدْ يَكُونُ ضَارًّا لِبَعْضِ النَّاسِ؛ تَبَيَّنَ لَك أَنَّ الْقَوْلَ قَدْ يُنْكَرُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ، وَمَعَ شَخْصٍ دُونَ شَخْصٍ؛ وَإِنَّ الْعَالِمَ قَدْ يَقُولُ الْقَوْلَيْنِ الصوابين، كُلَّ قَوْلٍ مَعَ قَوْمٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ؛ مَعَ أَنَّ الْقَوْلَيْنِ صَحِيحَانِ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا؛ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ قَوْلُهُما جَمِيعًا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ؛ فَلَا يَجْمَعُهُمَا إِلَّا لِمَنْ لَا يَضُرُّهُ الْجَمْعُ. (٦/ ٥٩).

فائدة: الفرق بين الدعاء والخبر عن الله تعالى

قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وَقَالَ: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، أَثْبَتَ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، وَأَمَرَ بِالدُّعَاءِ بِهَا.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم (١٢٧)، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا.
(٢) أخرجه مسلم (١٤) في مقدمته.

فَظَاهِرُ هَذَا: أَنَّ لَهُ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَقَدْ يُقَالُ: جِنْسُ (الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى)، بِحَيْثُ لَا يَجُوزُ نَفْيُهَا عَنْهُ، كَمَا فَعَلَهُ الْكُفَّارُ، وَأَمَرَ بِالدُّعَاءِ بِهَا، وَأَمَرَ بِدُعَائِهِ مُسَمًّى بِهَا؛ خِلَافَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّهْيِ عَنْ دُعَائِهِ بِاسْمِهِ (الرَّحْمَنِ)، فَقَدْ يُقَالُ: قَوْلُهُ: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، أَمْرٌ أَنْ يُدْعَى بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَأَلَّا يُدْعَى بِغَيْرِهَا؛ كَمَا قَالَ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب:٥]، فَهُوَ نَهْيٌ أَنْ يُدْعَوْا لِغَيْرِ آبَائِهِمْ.

وَيُفَرَّقُ بَيْنَ دُعَائِهِ وَالْإِخْبَارِ عَنْهُ؛ فَلَا يُدْعَى إِلَّا بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَأَمَّا الْإِخْبَارُ عَنْهُ؛ فَلَا يَكُونُ بِاسْمِ سَيِّئٍ؛ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ بِاسْمِ حَسَنٍ، أَوْ بِاسْمٍ لَيْسَ بِسَيِّئٍ، وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْ بِحُسْنِهِ، مِثْلَ اسْمِ: شَيْءٍ، وَذَاتٍ، وَمَوْجُودٍ؛ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الثَّابِتُ، وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ (الْمَوْجُودُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ) فَهُوَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ وَالْمُتَكَلِّمُ؛ فَإِنَّ الْإِرَادَةَ وَالْكَلَامَ تَنْقَسِمُ إِلَى مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، بِخِلَافِ الْحَكِيمِ وَالرَّحِيمِ وَالصَّادِقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَحْمُودًا، وَهَكَذَا كَمَا فِي حَقِّ الرَّسُولِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا نَبِيَّ اللهِ. كَمَا خَاطَبَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، لَا يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا أَحْمَد، يَا أَبَا الْقَاسِمِ. وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْإِخْبَارِ -كَالْأَذَانِ وَنَحْوِهِ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، وَقَالَ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٠]، فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- لَمْ يُخَاطِبْ مُحَمَّدًا إِلَّا بِنَعْتِ التَّشْرِيفِ: كَالرَّسُولِ، وَالنَّبِيِّ، وَالْمُزَّمِّلِ، وَالْمُدَّثِّرِ، وَخَاطَبَ سَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ بِأَسْمَائِهِمْ، مَعَ أَنَّهُ فِي مَقَامِ الْإِخْبَارِ عَنْهُ قَدْ يَذْكُرُ اسْمَهُ، فَقَدْ فَرَّقَ -سُبْحَانَهُ- بَيْنَ حَالَتَيِ الْخِطَابِ فِي حَقِّ الرَّسُولِ، وَأَمَرَنَا بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا فِي حَقِّهِ؛ وَكَذَلِكَ هُوَ الْمُعْتَادُ فِي عُقُولِ النَّاسِ إِذَا خَاطَبُوا الْأَكَابِرَ مِنْ

الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ وَالرُّؤَسَاءِ؛ لَمْ يُخَاطِبُوهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَّا بِاسْمِ حَسَنٍ؛ وَإِنْ كَانَ فِي حَالِ الْخَبَرِ عَنْ أَحَدِهِمْ يُقَالُ: هُوَ إِنْسَانٌ، وَحَيَوَانٌ نَاطِقٌ، وَجِسْمٌ، وَمُحْدَثٌ، وَمَخْلُوقٌ، وَمَرْبُوبٌ، وَمَصْنُوعٌ، وَابْنُ أُنْثَى، وَيَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ الشَّرَابَ.

لَكِنَّ كُلَّ مَا يُذْكَرُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فِي حَالِ الْإِخْبَارِ عَنْهُ: يُدْعَى بِهِ فِي حَالِ مُنَاجَاتِهِ وَمُخَاطَبَتِهِ؛ وَإِنْ كَانَتْ أَسْمَاءُ الْمَخْلُوقِ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى نَقْصِهِ وَحُدُوثِهِ، وَأَسْمَاءُ اللهِ لَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى نَقْصٍ وَلَا حُدُوثٍ؛ بَلْ فِيهَا الْأَحْسَنُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ، وَهِيَ الَّتِي يُدْعَى بِهَا، وَإِنْ كَانَ إِذَا أُخْبِرَ عَنْهُ يُخْبَرُ بِاسْمِ حَسَنٍ، أَوْ بِاسْمٍ لَا يَنْفِي الْحُسْنَ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَسَنًا.

وَأَمَّا فِي الْأَسْمَاءِ الْمَأْثُورَةِ؛ فَمَا مِنْ اسْمٍ إِلَّا وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى حَسَنٍ، فَيَنْبَغِي تَدَبُّرُ هَذَا لِلدُّعَاءِ وَلِلْخَبَرِ الْمَأْثُورِ، وَغَيْرِ الْمَأْثُورِ الَّذِي قِيلَ لِضَرُورَةِ حُدُوثِ الْمُخَالِفِينَ - لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالْخَبَرِ، وَبَيْنَ الْمَأْثُورِ الَّذِي يُقَالُ - أَوْ تَعْرِيفِهِمْ لَـمَّا لَمْ يَكُونُوا بِهِ عَارِفِينَ، وَحِينَئِذٍ فَلَيْسَ كُلُّ اسْمٍ ذُكِرَ فِي مَقَامٍ يُذْكَرُ فِي مَقَامٍ، بَلْ يَجِبُ التَّفْرِيقُ. (٦/ ١٤١).

قاعدة شريفة: دليل المبطل حجة عليه

جَمِيعُ مَا يَحْتَجُّ بِهِ الْمُبْطِلُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ؛ لَا تَدُلُّ عَلَى قَوْلِ الْمُبْطِلِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ، فَإِنَّ الدَّلِيلَ الصَّحِيحَ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى حَقٍّ لَا عَلَى بَاطِلٍ.

يَبْقَى الْكَلَامُ فِي أَعْيَانِ الْأَدِلَّةِ، وَبَيَانِ انْتِفَاءِ دَلَالَتِهَا عَلَى الْبَاطِلِ، وَدَلَالَتِهَا عَلَى الْحَقِّ: هُوَ تَفْصِيلُ هَذَا الْإِجْمَالِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا شَيْءٌ آخَرُ، وَهُوَ: أَنَّ نَفْسَ الدَّلِيلِ الَّذِي يَحْتَجُّ بِهِ الْمُبْطِلُ هُوَ بِعَيْنِهِ إِذَا أُعْطِيَ حَقَّهُ وَتَمَيَّزَ مَا فِيهِ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَبُيِّنَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ؛ تَبَيَّنَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ الْمُبْطِلِ الْمُحْتَجِّ بِهِ فِي نَفْسِ مَا احْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا عَجِيبٌ، قَدْ تَأَمَّلْته فِيمَا شَاءَ اللهُ مِنْ الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ فَوَجَدْته كَذَلِكَ. (٦/ ٢٦٦).

الله نور السموات والأرض

وَأَمَّا قَوْلُهُ: لَوْ كَانَ نُورًا لَمْ يَجُزْ إضَافَتُهُ إلَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور:٣٥]. فَالْكَلَامُ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- أَنْ نَقُولَ: النَّصُّ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ قَدْ سَمَّى اللهَ نُورَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّصُّ أَنَّ اللهَ نُورٌ، وَأَخْبَرَ أَيْضًا أَنَّهُ يَحْتَجِبُ بِالنُّورِ؛ فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَارٍ فِي النَّصِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْأَوَّلِ، وَأَمَّا الثَّانِي: فَهُوَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور:٣٥]، وَفِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ**»(١). وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي دُعَاءِ الطَّائِفِ: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُك، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُك**». رَوَاهُ الطَّبَرَانِي وَغَيْرُهُ(٢)، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: إنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُورُ السَّمَوَاتِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ(٣).

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد (١٠/ ١٢٨ ـ شاكر)، والترمذي، وصححه أحمد شاكر، والألباني كما في «صحيح الجامع» (١٧٦٤). قلت: لم أقف عليه في مسلم.

(٢) قال عنه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٩٢) مأثور، وضعفه الهيثمي والألباني، كما في «الضعيفة» (٢٩٣٣).

(٣) **ضعيف**. أخرجه أبو داود (١٦٨) في كتابه «الزهد»، والطبراني (٩/ ١٧٩) وأبو نعيم (١/ ١٣٧) في الحلية، وفيه الزبير بن عبد السلام، وأيوب بن عبد الله الفهري لم يوثقهما غير ابن حبان، والله أعلم.

وَمِنْهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ -أَوْ النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[1].

فَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ ذِكْرُ حِجَابِهِ، فَإِنَّ تَرَدُّدَ الرَّاوِي فِي لَفْظِ النَّارِ وَالنُّورِ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ النَّارِ الصَّافِيَةِ الَّتِي كَلَّمَ بِهَا مُوسَى يُقَالُ لَهَا: نَارٌ وَنُورٌ، كَمَا سَمَّى اللهُ نَارَ الْمِصْبَاحِ نُورًا، بِخِلَافِ النَّارِ الْمُظْلِمَةِ، كَنَارِ جَهَنَّمَ، فَتِلْكَ لَا تُسَمَّى نُورًا.

فَالْأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ: (إِشْرَاقٌ بِلَا إِحْرَاقٍ) وَهُوَ النُّورُ الْمَحْضُ؛ كَالْقَمَرِ.

وَ(إِحْرَاقٌ بِلَا إِشْرَاقٍ) وَهِيَ النَّارُ الْمُظْلِمَةُ.

وَ(مَا هُوَ نَارٌ وَنُورٌ)؛ كَالشَّمْسِ، وَنَارِ الْمَصَابِيحِ الَّتِي فِي الدُّنْيَا، تُوصَفُ بِالْأَمْرَيْنِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ صَحَّ أَنْ يَكُونَ نُورَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ النُّورُ، وَلَيْسَ الْمُضَافُ هُوَ عَيْنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

الطَّرِيقُ الثَّانِي- أَنْ يُقَالَ: هَذَا يُرَدُّ عَلَيْكُمْ، لَا يَخْتَصُّ بِمَنْ يُسَمِّيهِ بِمَا سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ وَبَيَّنَهُ، فَأَنْتَ إِذَا قُلْت: «هَادٍ»، أَوْ «مُنَوِّرٌ»، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ؛ فَالْمُسَمَّى (نُورًا) هُوَ الرَّبُّ نَفْسُهُ، لَيْسَ هُوَ النُّورَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ، فَإِذَا قُلْت: «هُوَ الْهَادِي فَنُورُهُ الْهُدَى» جَعَلْت أَحَدَ النورين عَيْنًا قَائِمَةً، وَالْآخَرَ صِفَةً؛ فَهَكَذَا يَقُولُ مَنْ يُسَمِّيهِ نُورًا؛ وَإِذَا كَانَ السُّؤَالُ يَرُدُّ عَلَى الْقَوْلَيْنِ وَالْقَائِلَيْنِ، كَانَ تَخْصِيصُ أَحَدِهِمَا بِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِقَوْلِهِ- ظُلْمًا وَلَدَدًا فِي الْمُحَاجَّةِ، أَوْ جَهْلًا وَضَلَالًا عَنْ الْحَقِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) في كتاب الإيمان.

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ الْأَقْوَالِ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ لِلنَّاسِ فِيهَا مِنْ الْأَقْوَالِ أَكْثَرَ مِمَّا ذَكَرَهُ، وَالْمَوْجُودُ بِأَيْدِي الْأُمَّةِ مِنْ الرِّوَايَاتِ الصَّادِقَةِ وَالْكَاذِبَةِ، وَالْآرَاءِ الْمُصِيبَةِ وَالْمُخْطِئَةِ، لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللهُ.

وَالْكَلَامُ فِي (تَفْسِيرِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاته وَكَلَامِهِ) فِيهِ مِنْ الْغَثِّ وَالسَّمِينِ مَا لَا يُحْصِيهِ إلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْحَقِّ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَقَدْ كَتَبْت قَدِيمًا فِي بَعْضِ كُتُبِي لِبَعْضِ الْأَكَابِرِ: إنَّ الْعِلْمَ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَالشَّأْنُ فِي أَنْ نَقُولَ عِلْمًا، وَهُوَ النَّقْلُ الْمُصَدَّقُ، وَالْبَحْثُ الْمُحَقَّقُ، فَإِنَّ مَا سِوَى ذَلِكَ -وَإِنْ زَخْرَفَ مِثْلَهُ بَعْضُ النَّاسِ- خَزَفٌ مُزَوَّقٌ، وَإِلَّا فَبَاطِلٌ مُطْلَقٌ، مِثْلَ مَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا. وَهَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ (كُتُبَ التَّفْسِيرِ) فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ التَّفْسِيرِ مَنْقُولَاتٌ عَنْ السَّلَفِ، مَكْذُوبَةٌ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلٌ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ؛ بَلْ بِمُجَرَّدِ شُبْهَةٍ قِيَاسِيَّةٍ، أَوْ شُبْهَةٍ أَدَبِيَّةٍ.

فَالْمُفَسِّرُونَ الَّذِينَ يَنْقُلُ عَنْهُمْ لَمْ يُسَمِّهِمْ، وَمَعَ هَذَا فَقَدَ ضَعَّفَ قَوْلَهُمْ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّ الْقَوْمَ فَسَّرُوا النُّورَ فِي الْآيَةِ: بِأَنَّهُ الْهَادِي؛ لَمْ يُفَسِّرُوا النُّورَ فِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَالْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا يَصِحُّ تَضْعِيفُ قَوْلِهِمْ بِمَا ضَعَّفَهُ.

وَنَحْنُ إنَّمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِبَيَانِ تَنَاقُضِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَجُّ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ يَرُوجُ عَلَى ذِي لُبٍّ، فَإِنَّ التَّنَاقُضَ أَوَّلُ مَقَامَاتِ الْفَسَادِ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ قَدْ قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ ثَابِتًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ غَيْرِهِ فَهَذَا مِمَّا لَمْ نُثْبِتْهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي (كُتُبِ التَّفْسِيرِ) مِنْ النَّقْلِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ الْكَذِبِ شَيْئًا كَثِيرًا، مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَصْحِيحِ النَّقْلِ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ، فَلْيُرَاجَعْ (كُتُبُ التَّفْسِيرِ) الَّتِي يُحَرَّرُ فِيهَا النَّقْلُ، مِثْلُ تَفْسِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطبري الَّذِي يَنْقُلُ

فِيهِ كَلَامَ السَّلَفِ بِالْإِسْنَادِ، وَلْيُعْرَضْ عَنْ تَفْسِيرِ مُقَاتِلٍ[١] وَالْكَلْبِيِّ[٢]، وَقَبْلَهُ تَفْسِيرُ بَقِي ابْنِ مخلد الْأَنْدَلُسِيِّ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ دحيم الشَّامِيِّ، وَعَبْدِ بْنِ حميد الكشي، وَغَيْرِهِمْ، إِنْ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى تَفْسِيرِ الْإِمَامِ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْه، وَتَفْسِيرِ الْإِمَامِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالتَّفَاسِيرِ الصَّحِيحَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، كَمَا هُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعُلُومِ. (٦/ ٣٨٦).

روائع الكلم

❁ الْإِيمَانُ إِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ، وَخَالَطَتْهُ بَشَاشَتُهُ، لَا يَسْخَطُهُ الْقَلْبُ، بَلْ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ الْحَلَاوَةِ فِي الْقَلْبِ وَاللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَالْبَهْجَةِ مَا لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ لِمَنْ لَمْ يَذُقْهُ. (١٠/ ٦٤٨).

❁ الَّذِينَ قَالُوا عَنْ الرَّسُولِ إِنَّهُ أَبْتَرُ، وَقَصَدُوا أَنَّهُ يَمُوتُ فَيَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ، عُوقِبُوا بِانْبِتَارِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]، فَلَا يُوجَدُ مَنْ شَنَأَ الرَّسُولَ إِلَّا بَتَرَهُ اللهُ، حَتَّى أَهْلُ الْبِدَعِ الْمُخَالِفُونَ لِسُنَّتِهِ. قِيلَ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ[٣]: إِنَّ بِالْمَسْجِدِ قَوْمًا يَجْلِسُونَ لِلنَّاسِ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِالْبِدْعَةِ. فَقَالَ: مَنْ جَلَسَ لِلنَّاسِ جَلَسَ النَّاسُ إِلَيْهِ، لَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَبْقَوْنَ، وَيَبْقَى ذِكْرُهُمْ، وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ يَمُوتُونَ، وَيَمُوتُ

---

(١) هو مقاتل بن سليمان الأزدي، من مصنفاته: التفسير الكبير، ونوادر التفسير. انظر ترجمته في كتاب «الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير» (٣/ ٢٦٧٧).

(٢) هو محمد بن السائب الكوفي أبو النضر. انظر ترجمته في كتاب «الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير» (٣/ ٢٠٩١).

(٣) الأسدي الكوفي الحناط المقرئ، أحد الأعلام، مشهور بكنيته، وفي اسمه أقوال. انظر ترجمته «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٩٥)للحافظ الذهبي.

ذِكْرُهُمْ، لِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ أَحْيَوْا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]. (١٣/ ١٧٣ و١٦/ ٥٢٨).

تفاضل الإيمان

وَأَمَّا عَامَّةُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ إِيمَانَ الْعِبَادِ لَا يَتَسَاوَى، بَلْ يَتَفَاضَلُ، وَإِيمَانَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ أَكْمَلُ مِنْ إِيمَانِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ الْمُجْرِمِينَ.

ثُمَّ النِّزَاعُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْأَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- الْعَمَلُ، هَلْ يَدْخُلُ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ؟ فَإِنَّ الْعَمَلَ يَتَفَاضَلُ بِلَا نِزَاعٍ، فَمَنْ أَدْخَلَهُ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ قَالَ: يَتَفَاضَلُ.

وَمَنْ لَمْ يُدْخِلْهُ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ احْتَاجَ إِلَى الْأَصْلِ الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ الْإِيمَانِ هَلْ يَتَفَاضَلُ؟ فَظَنَّ مَنْ نَفَى التَّفَاضُلَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَلْبِ - مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ يُخْرِجُهُ هَؤُلَاءِ عَنْ مَحْضِ التَّصْدِيقِ - مَا هُوَ مُتَفَاضِلٌ، بِلَا رَيْبٍ، ثُمَّ نَفْسُ التَّصْدِيقِ أَيْضًا مُتَفَاضِلٌ مِنْ جِهَاتٍ:

مِنْهَا: أَنَّ التَّصْدِيقَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ يَكُونُ مُجْمَلًا، وَقَدْ يَكُونُ مُفَصَّلًا؛ وَالْمُفَصَّلُ مِنْ الْمُجْمَلِ؛ فَلَيْسَ تَصْدِيقُ مَنْ عَرَفَ الْقُرْآنَ وَمَعَانِيَهُ، وَالْحَدِيثَ وَمَعَانِيَهُ، وَصَدَّقَ بِذَلِكَ مُفَصَّلًا كَمَنْ صَدَّقَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَكْثَرُ مَا جَاءَ بِهِ لَا يَعْرِفُهُ أَوْ لَا يَفْهَمُهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ التَّصْدِيقَ الْمُسْتَقِرَّ الْمَذْكُورَ أَتَمُّ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي يُطْلَبُ حُصُولُهُ مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ التَّصْدِيقَ نَفْسَهُ يَتَفَاضَلُ كُنْهُهُ؛ فَلَيْسَ مَا أَثْنَى عَلَيْهِ الْبُرْهَانُ، بَلْ تَشْهَدُ لَهُ الْأَعْيَانُ، وَأُمِيطَ عَنْهُ كُلُّ أَذًى وَحُسْبَانٍ، حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ؛ دَرَجَاتِ الْإِيقَانِ، كَتَصْدِيقٍ زَعْزَعَتْهُ الشُّبُهَاتُ، وَصَدَفَتْهُ الشَّهَوَاتُ، وَلَعِبَ بِهِ التَّقْلِيدُ، وَضَعُفَ لِشُبَهِ الْمُعَانِدِ الْعَنِيدِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ مِنْ نَفْسِهِ كُلُّ مُنْصِفٍ رَشِيدٍ، وَلِهَذَا كَانَ الْمَشَايِخُ -أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ، السَّالِكُونَ إِلَى اللهِ أَقْصَدَ طَرِيقٍ- مُتَّفِقِينَ عَلَى الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ فِي الْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ، فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَهَذِهِ مَسَائِلُ كِبَارٌ، لَا يُمْكِنُ فِيهَا إِلَّا الْإِطْنَابُ، بِمِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ. (٦/ ٤٨٠).

الحرية المظلمة

مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ رِقِّ الْعُبُودِيَّةِ إِلَى فَضَاءِ الْحُرِّيَّةِ، بِإِسْقَاطِ الْعُبُودِيَّةِ، وَالْخُرُوجِ إِلَى أَحْكَامِ الأحدية الْمُسْدِيَةِ بِعَلَائِقِ الآخرية: فَهُوَ كَافِرٌ لَا مَحَالَةَ؛ إِلَّا مَنْ اعْتَرَاهُ عِلَّةٌ أَوْ رَأْفَةٌ، فَصَارَ مَعْتُوهًا، أَوْ مَجْنُونًا، أَوْ مبرسما[1]، وَقَدْ اخْتَلَطَ عَقْلُهُ، أَوْ لَحِقَهُ غَشْيَةٌ يَرْتَفِعُ عَنْهُ بِهَا أَحْكَامُ الْعَقْلِ، وَذَهَبَ عَنْهُ التَّمْيِيزُ وَالْمَعْرِفَةُ، فَذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ الْمِلَّةِ مُفَارِقٌ لِلشَّرِيعَةِ. (٥/ ٨٢).

حقيقة العلم والخوف

فَمَنْ عَلَّمْتَهُ فَتَعَلَّمَ فَقَدْ تَمَّ تَعْلِيمُهُ، وَآخَرُ يَقُولُ: عَلَّمْتُهُ فَلَمْ يَتَعَلَّمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ خَوَّفْتَهُ فَخَافَ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَمَّ تَخْوِيفُهُ.

وَأَمَّا مَنْ خُوِّفَ فَمَا خَافَ، فَلَمْ يَتِمَّ تَخْوِيفُهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ هَدَيْتَهُ فَاهْتَدَى، تَمَّ هُدَاهُ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، وَمَنْ هَدَيْتَهُ فَلَمْ يَهْتَدِ -كَمَا قَالَ: ﴿وَأَمَّا

(١) البرسام: هو التهاب يصيب الغشاء المحيط بالرئة. انظر: «زاد المعاد» (٤/ ٨١) للإمام ابن القيم، و«ثمار القلوب» للثعالبي (٤٢١).

ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧]- فَلَمْ يَتِمَّ هُدَاهُ، كَمَا تَقُولُ: قَطَعْتُهُ فَانْقَطَعَ، وَقَطَعْتُهُ فَمَا انْقَطَعَ، فَالْمُؤَثِّرُ التَّامُّ يَسْتَلْزِمُ أَثَرَهُ، فَمَتَى لَمْ يَحْصُلْ أَثَرُهُ لَمْ يَكُنْ تَامًّا، وَالْفِعْلُ إِذَا صَادَفَ مَحَلًّا قَابِلًا تَمَّ، وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ.

وَالْعِلْمُ بِالْمَحْبُوبِ يُورِثُ طَلَبَهُ، وَالْعِلْمُ بِالْمَكْرُوهِ يُورِثُ تَرْكَهُ، وَلِهَذَا يُسَمَّى هَذَا الْعِلْمُ: الدَّاعِيَ، وَيُقَالُ: الدَّاعِي مَعَ الْقُدْرَةِ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْمَقْدُورِ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِالْمَطْلُوبِ الْمُسْتَلْزِمِ لِإِرَادَةِ الْمَعْلُومِ الْمُرَادِ، وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ مَعَ صِحَّةِ الْفِطْرَةِ وَسَلَامَتِهَا، وَأَمَّا مَعَ فَسَادِهَا فَقَدْ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِاللَّذِيذِ فَلَا يَجِدُ لَهُ لَذَّةً، بَلْ يُؤْلِمُهُ، وَكَذَلِكَ يَلْتَذُّ بِالْمُؤْلِمِ لِفَسَادِ الْفِطْرَةِ، وَالْفَسَادُ يَتَنَاوَلُ الْقُوَّةَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْقُوَّةَ الْعَمَلِيَّةَ جَمِيعًا، كَالْمَمْرُورِ الَّذِي يَجِدُ الْعَسَلَ مُرًّا؛ فَإِنَّهُ فَسَدَ نَفْسُ إِحْسَاسِهِ، حَتَّى كَانَ يُحِسُّ بِهِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ لِلْمَرَّةِ الَّتِي مَازَجَتْهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ فَسَدَ بَاطِنُهُ. (٧/ ٢٥).

فائدة: الصمت والكلام

وَفِي (الصَّحِيحَيْنِ) عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١). فَأَمَرَ الْمُؤْمِنَ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا قَوْلِ الْخَيْرِ أَوْ الصُّمَاتِ، وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُ الْخَيْرِ خَيْرًا مِنْ السُّكُوتِ عَنْهُ، وَالسُّكُوتُ عَنْ الشَّرِّ خَيْرًا مِنْ قَوْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]. (٧/ ٤٩).

المراد بقول من قال من السلف: الإيمان قول وعمل

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ أَرَادَ قَوْلَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعَمَلَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ؛ وَمَنْ أَرَادَ الِاعْتِقَادَ رَأَى أَنَّ لَفْظَ الْقَوْلِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٨) في كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) في كتاب الإيمان، عن أبي هريرة.

إِلَّا الْقَوْلُ الظَّاهِرُ أَوْ خَافَ ذَلِكَ فَزَادَ الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ وَمَنْ قَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ قَالَ: الْقَوْلُ يَتَنَاوَلُ الِاعْتِقَادَ وَقَوْلَ اللِّسَانِ وَأَمَّا الْعَمَلُ فَقَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ النِّيَّةُ فَزَادَ ذَلِكَ وَمَنْ زَادَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ فَلِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَكُونُ مَحْبُوبًا للهِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَأُولَئِكَ لَمْ يُرِيدُوا كُلَّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ إِنَّمَا أَرَادُوا مَا كَانَ مَشْرُوعًا مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَلَكِنْ كَانَ مَقْصُودُهُمْ الرَّدَّ عَلَى (الْمُرْجِئَة) الَّذِينَ جَعَلُوهُ قَوْلًا فَقَطْ فَقَالُوا: بَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَالَّذِينَ جَعَلُوهُ (أَرْبَعَةَ أَقْسَام) فَسَّرُوا مُرَادَهُمْ كَمَا سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التستري عَنْ الْإِيمَانِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ وَسُنَّةٌ لِأَنَّ الْإِيمَانَ إِذَا كَانَ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ كُفْرٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا بِلَا نِيَّةٍ فَهُوَ نِفَاقٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً بِلَا سُنَّةٍ فَهُوَ بِدْعَةٌ. (٧/ ١٧١).

متعلقات الأمر والنهي

قَالَ تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣]، فَأَمَرَ بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ، وَنَهَى عَمَّا يُضَادُّ ذَلِكَ، وَهُوَ اتِّبَاعُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ أَحَدَهُمَا اتَّبَعَ الْآخَرَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء:١١٥].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّبِعًا سَبِيلَهُمْ كَانَ مُتَّبِعًا غَيْرَ سَبِيلِهِمْ. فَاسْتَدَلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ اتِّبَاعَ سَبِيلِهِمْ وَاجِبٌ، فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَخْرُجَ عَمَّا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ الْمَأْمُورَ فَعَلَ بَعْضَ الْمَحْظُورِ، وَمَنْ فَعَلَ الْمَحْظُورَ لَمْ يَفْعَلْ جَمِيعَ الْمَأْمُورِ، فَلَا يُمْكِنُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَفْعَلَ جَمِيعَ مَا أُمِرَ بِهِ، مَعَ فِعْلِهِ لِبَعْضِ مَا حَظَرَ، وَلَا يُمْكِنُهُ تَرْكُ كُلِّ مَا حَظَرَ، مَعَ تَرْكِهِ لِبَعْضِ مَا أُمِرَ، فَإِنَّ تَرْكَ مَا حَظَرَ مِنْ جُمْلَةِ مَا أُمِرَ بِهِ، فَهُوَ مَأْمُورٌ، وَمِنْ الْمَحْظُورِ تَرْكُ الْمَأْمُورِ، فَكُلُّ مَا شَغَلَهُ عَنْ الْوَاجِبِ فَهُوَ مُحَرَّمٌ، وَكُلُّ مَا لَا يُمْكِنُ فِعْلُ الْوَاجِبِ إِلَّا بِهِ فَعَلَيْهِ فِعْلُهُ، وَلِهَذَا كَانَ لَفْظُ (الْأَمْرِ) إِذَا أُطْلِقَ يَتَنَاوَلُ النَّهْيَ، وَإِذَا قُيِّدَ بِالنَّهْيِ كَانَ النَّهْيُ نَظِيرَ مَا تَقَدَّمَ، فَإِذَا قَالَ تَعَالَى عَنْ الْمَلَائِكَةِ:

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم:٦]، دَخَلَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا نَهَاهُمْ عَنْ شَيْءٍ اجْتَنَبُوهُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، فَقَدْ قِيلَ: لَا يَتَعَدَّوْنَ مَا أُمِرُوا بِهِ، وَقِيلَ: يَفْعَلُونَهُ فِي وَقْتِهِ، لَا يُقَدِّمُونَهُ وَلَا يُؤَخِّرُونَهُ. (٧/ ١٧٣).

أغلاط المرجئة

فَهَؤُلَاءِ غَلِطُوا فِي (أَصْلَيْنِ):

أَحَدُهُمَا- ظَنُّهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ مُجَرَّدُ تَصْدِيقٍ وَعِلْمٍ فَقَطْ لَيْسَ مَعَهُ عَمَلٌ وَحَالٌ وَحَرَكَةٌ وَإِرَادَةٌ وَمَحَبَّةٌ وَخَشْيَةٌ فِي الْقَلْبِ؛ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ غَلَطِ الْمُرْجِئَةِ مُطْلَقًا فَإِنَّ (أَعْمَالَ الْقُلُوبِ) الَّتِي يُسَمِّيهَا بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ أَحْوَالًا وَمَقَامَاتٍ أَوْ مَنَازِلَ السَّائِرِينَ إِلَى اللهِ أَوْ مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ كُلُّ مَا فِيهَا مِمَّا فَرَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فَهُوَ مِنْ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ وَفِيهَا مَا أَحَبَّهُ وَلَمْ يَفْرِضْهُ فَهُوَ مِنْ الْإِيمَانِ الْمُسْتَحَبِّ فَالْأَوَّلُ لَا بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْهُ وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ مِنْ الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَمَنْ فَعَلَهُ وَفَعَلَ الثَّانِيَ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ وَذَلِكَ مِثْلُ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ بَلْ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا بَلْ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَمِثْلَ خَشْيَةِ اللهِ وَحْدَهُ دُونَ خَشْيَةِ الْمَخْلُوقِينَ وَرَجَاءِ اللهِ وَحْدَهُ دُونَ رَجَاءِ الْمَخْلُوقِينَ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ مَعَ خَشْيَتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٢-٣٣] وَمِثْلَ الْحُبِّ فِي اللهِ وَالْبُغْضِ فِي اللهِ وَالْمُوَالَاةِ للهِ وَالْمُعَادَاةِ للهِ.

وَالثَّانِي- ظَنُّهُمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ حَكَمَ الشَّارِعُ بِأَنَّهُ كَافِرٌ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ فَإِنَّمَا ذَاكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ الْعِلْمِ وَالتَّصْدِيقِ . وَهَذَا أَمْرٌ خَالَفُوا بِهِ الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ طَوَائِفُ بَنِي آدَمَ السليمي الْفِطْرَةِ وَجَمَاهِيرُ النُّظَّارِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعْرِفُ أَنَّ

الْحَقَّ مَعَ غَيْرِهِ وَمَعَ هَذَا يَجْحَدُ ذَلِكَ لِحَسَدِهِ إيَّاهُ أَوْ لِطَلَبِ عُلُوِّهِ عَلَيْهِ أَوْ لِهَوَى النَّفْسِ وَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ الْهَوَى عَلَى أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْهِ وَيَرُدَّ مَا يَقُولُ بِكُلِّ طَرِيقٍ وَهُوَ فِي قَلْبِهِ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ وَعَامَّةُ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ وَأَنَّهُمْ صَادِقُونَ لَكِنْ إمَّا لِحَسَدِهِمْ وَإِمَّا لِإِرَادَتِهِمْ الْعُلُوَّ وَالرِّيَاسَةَ وَإِمَّا لِحُبِّهِمْ دِينَهُمْ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَمَا يَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ مِنْ الْأَغْرَاضِ كَأَمْوَالِ وَرِيَاسَةٍ وَصَدَاقَةِ أَقْوَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَيَرَوْنَ فِي اتِّبَاعِ الرُّسُلِ تَرْكَ الْأَهْوَاءِ الْمَحْبُوبَةِ إلَيْهِمْ أَوْ حُصُولَ أُمُورٍ مَكْرُوهَةٍ إلَيْهِمْ فَيُكَذِّبُونَهُمْ وَيُعَادُونَهُمْ فَيَكُونُونَ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ كإبليس وَفِرْعَوْنَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَالرُّسُلَ عَلَى الْحَقِّ. وَلِهَذَا لَا يَذْكُرُ الْكُفَّارُ حُجَّةً صَحِيحَةً تَقْدَحُ فِي صِدْقِ الرُّسُلِ إنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَهْوَائِهِمْ كَقَوْلِهِمْ لِنُوحٍ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اتِّبَاعَ الْأَرْذَلِينَ لَهُ لَا يَقْدَحُ فِي صِدْقِهِ؛ لَكِنْ كَرِهُوا مُشَارَكَةَ أُولَئِكَ مَا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبْعَادَ الضُّعَفَاءِ كَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وخباب بْنِ الْأَرَتِّ وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَبِلَالٍ وَنَحْوِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي الصَّحَابَةِ أَهْلُ الصُّفَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٢-٥٣]، وَمِثْلُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]، وَقَوْلِ فِرْعَوْنَ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٨-١٩]، وَمِثْلُ قَوْلِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]، وَمِثْلُ قَوْلِ

قَوْمِ شُعَيْبٍ لَهُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود:٨٧]، وَمِثْلَ قَوْلِ عَامَّةِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وَهَذِهِ الْأُمُورُ وَأَمْثَالُهَا لَيْسَتْ حُجَجًا تَقْدَحُ فِي صِدْقِ الرُّسُلِ بَلْ تُبَيِّنُ أَنَّهَا تُخَالِفُ إرَادَتَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ فَلِذَلِكَ لَمْ يَتَّبِعُوهُمْ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ بَلْ أَبُو طَالِبٍ وَغَيْرُهُ كَانُوا يُحِبُّونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُحِبُّونَ عُلُوَّ كَلِمَتِهِ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ حَسَدٌ لَهُ وَكَانُوا يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ وَلَكِنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ فِي مُتَابَعَتِهِ فِرَاقَ دِينِ آبَائِهِمْ وَذَمَّ قُرَيْشٍ لَهُمْ فَمَا احْتَمَلَتْ نُفُوسُهُمْ تَرْكَ تِلْكَ الْعَادَةِ وَاحْتِمَالَ هَذَا الذَّمِّ فَلَمْ يَتْرُكُوا الْإِيمَانَ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ بِهِ ؛ بَلْ لِهَوَى النَّفْسِ فَكَيْفَ يُقَالُ: إنَّ كُلَّ كَافِرٍ إنَّمَا كَفَرَ لِعَدَمِ عِلْمِهِ بِاَللَّهِ. (٧/ ١٩٠).

أسباب جحود الحق

إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ غَيْرِهِ، وَمَعَ هَذَا يَجْحَدُ ذَلِكَ لِحَسَدِهِ إيَّاهُ، أَوْ لِطَلَبِ عُلُوِّهِ عَلَيْهِ، أَوْ لِهَوَى النَّفْسِ، وَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ الْهَوَى عَلَى أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْهِ، وَيَرُدَّ مَا يَقُولُ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَهُوَ فِي قَلْبِهِ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ، وَعَامَّةُ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ، وَأَنَّهُمْ صَادِقُونَ، لَكِنْ إمَّا لِحَسَدِهِمْ، وَإِمَّا لِإِرَادَتِهِمْ الْعُلُوَّ وَالرِّيَاسَةَ، وَإِمَّا لِحُبِّهِمْ دِينَهُمْ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَمَا يَحْصُلُ لَهُمْ بِهِ مِنْ الْأَغْرَاضِ كَأَمْوَالِ وَرِيَاسَةٍ وَصَدَاقَةِ أَقْوَامٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَيَرَوْنَ فِي اتِّبَاعِ الرُّسُلِ تَرْكَ الْأَهْوَاءِ الْمَحْبُوبَةِ إلَيْهِمْ، أَوْ حُصُولَ أُمُورٍ مَكْرُوهَةٍ إلَيْهِمْ، فَيُكَذِّبُونَهُمْ وَيُعَادُونَهُمْ، فَيَكُونُونَ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ، كإبليس وَفِرْعَوْنَ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالرُّسُلَ عَلَى الْحَقِّ. (٧/ ١٩١).

فائدة: الإيمان يزيد بالعلم النافع والعمل الصالح

قال مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: الْإِيمَانُ يَبْدُو فِي الْقَلْبِ ضَعِيفًا ضَئِيلًا كَالْبَقْلَةِ، فَإِنْ صَاحِبُهُ تَعَاهَدَهُ فَسَقَاهُ بِالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَأَمَاطَ عَنْهُ الدَّغَلَ[1]، وَمَا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَنْمُوَ، أَوْ يَزْدَادَ، وَيَصِيرَ لَهُ أَصْلٌ، وَفُرُوعٌ، وَثَمَرَةٌ، وَظَلَّ إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى، حَتَّى يَصِيرَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ.

وَإِنْ صَاحِبُهُ أَهْمَلَهُ وَلَمْ يَتَعَاهَدْهُ جَاءَهُ عَنْزٌ فَنَتَفَتْهَا، أَوْ صَبِيٌّ فَذَهَبَ بِهَا، وَأَكْثَرَ عَلَيْهَا الدَّغَلُ فَأَضْعَفَهَا، أَوْ أَهْلَكَهَا، أَوْ أَيْبَسَهَا، كَذَلِكَ الْإِيمَانُ.

وَقَالَ خَيْثَمة بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ[2]: «الْإِيمَانُ يَسْمَنُ فِي الْخِصْبِ، وَيَهْزُلُ فِي الْجَدْبِ، فَخِصْبُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَجَدْبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي».

وَقِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: يَزْدَادُ الْإِيمَانُ وَيَنْقُصُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَزْدَادُ حَتَّى يَصِيرَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، وَيَنْقُصُ حَتَّى يَصِيرَ أَمْثَالَ الْهَبَاءِ. (٧/ ٢٢٥).

ليس الخبر كالمعاين

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايِنِ»[3]. فَإِنَّ مُوسَى لَمَّا أَخْبَرَهُ رَبُّهُ أَنَّ قَوْمَهُ عَبَدُوا الْعِجْلَ لَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَدْ عَبَدُوهُ أَلْقَاهَا.

وَلَيْسَ ذَلِكَ لِشَكِّ مُوسَى فِي خَبَرِ الله، لَكِنَّ الْمُخْبَرَ، وَإِنْ جَزَمَ بِصِدْقِ الْمُخْبِرِ، فَقَدْ لَا يَتَصَوَّرُ الْمُخْبَرَ بِهِ فِي نَفْسِهِ كَمَا يَتَصَوَّرُهُ إِذَا عَايَنَهُ، بَلْ يَكُونُ قَلْبُهُ مَشْغُولًا عَنْ تَصَوُّرِ الْمُخْبَرِ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُصَدِّقًا بِهِ.

---

(١) الدغل: الفساد.

(٢) هو خَيْثَمَةُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي سَبْرَةَ الْمَذْحِجِيُّ من التابعين العُلَمَاءِ العُبَّادِ أدرك طائفة من الصحابة، ولأبيه وجده صحبه. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٥٤) للذهبي.

(٣) صحيح. انظر «صحيح الجامع» (٥٣٧٣و٥٣٧٤) للألباني.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ تَصَوُّرِ الْمُخْبَرِ بِهِ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْمُخْبِرِ. (٧/ ٢٣٥).

وسوسة الشيطان عند قراءة القرآن

قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ تُورِثُ الْقَلْبَ الْإِيمَانَ الْعَظِيمَ، وَتَزِيدُهُ يَقِينًا وَطُمَأْنِينَةً وَشِفَاءً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨]

فَالشَّيْطَانُ يُرِيدُ بِوَسَاوِسِهِ أَنْ يَشْغَلَ الْقَلْبَ عَنْ الِانْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ، فَأَمَرَ اللهُ الْقَارِئَ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ أَنْ يَسْتَعِيذَ مِنْهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]. (٧/ ٢٨٣).

ضرر أئمة أهل البدع

وَأَئِمَّةُ أَهْلِ الْبِدَعِ أَضَرُّ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ الْخَوَارِجِ؛ وَنَهَى عَنْ قِتَالِ الْوُلَاةِ الظَّلَمَةِ. (٧/ ٢٨٤).

الإنكار القلبي آخر حدود الإيمان

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١)، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ**»(٢)، فَإِنَّ مُرَادَهُ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذَا الْإِنْكَارِ مَا يَدْخُلُ فِي

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) في كتاب الإيمان.

(٢) **صحيح**. أخرجه ابن أبي عاصم (٨١٣) في «السنة»، وصححه الألباني.

الْإِيمَانِ حَتَّى يَفْعَلَهُ الْمُؤْمِنُ؛ بَلْ الْإِنْكَارُ بِالْقَلْبِ آخِرُ حُدُودِ الْإِيمَانِ، لَيْسَ مُرَادَهُ أَنَّ مَنْ لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ، وَلِهَذَا قَالَ: «**لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ**». (٧/ ٤٢٨).

من تاريخ الخوارج

الْخَوَارِجُ[١] لَهُمْ أَسْمَاءٌ، يُقَالُ لَهُمْ: (الحرورية)؛ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ حَرُورَاءُ.

وَيُقَالُ لَهُمْ: (أَهْلُ النهروان)؛ لِأَنَّ عَلِيًّا قَاتَلَهُمْ هُنَاكَ. وَمِنْ أَصْنَافِهِمْ (الإباضية) أَتْبَاعُ عَبْدِ اللهِ بْنِ إبَاضٍ، و(الأزارقة) أَتْبَاعُ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ، و(النَّجَدَاتُ) أَصْحَابُ نَجْدَةَ الحروري.

وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ كَفَّرَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِالذُّنُوبِ، بَلْ بِمَا يَرَوْنَهُ هُمْ مِنْ الذُّنُوبِ، وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَلِكَ، فَكَانُوا كَمَا نَعَتَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ**»[٢]، وَكَفَّرُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَعُثْمَانَ بْنَ عفان، وَمَنْ وَالَاهُمَا، وَقَتَلُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، مُسْتَحِلِّينَ لِقَتْلِهِ: قَتَلَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجِمٍ المرادي -مِنْهُمْ- وَكَانَ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ الْخَوَارِجِ مُجْتَهِدِينَ فِي الْعِبَادَةِ، لَكِنْ كَانُوا جُهَّالًا، فَارَقُوا السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ؛ فَقَالَ هَؤُلَاءِ: مَا النَّاسُ إلَّا مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ؛ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ فَعَلَ جَمِيعَ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكَ جَمِيعَ الْمُحَرَّمَاتِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ، مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ. ثُمَّ

---

(١) الخوارج فرقة يحكمون على كل مرتكب للكبيرة بالكفر، ويستحلون دمه وماله، ولهم مواقف أخرى خالفوا فيها أهل السنة والجماعة في الإمامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكفروا عثمان وعلي رضي الله عنهما واتفقت كلمتهم على البراءة من المخالفين لهم وتكفيرهم وبغضهم. انظر كتاب «الملل والنحل» (١/ ١١٤)، وكتاب «الخوارج» للدكتور سليمان الغصن.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٢) في كتاب التوحيد، ومسلم (١٠٦٤) في كتاب الزكاة عن أبي سعيد الخدري.

جَعَلُوا كُلَّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ كَذَلِكَ، فَقَالُوا: إِنَّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَنَحْوَهُمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَظَلَمُوا، فَصَارُوا كُفَّارًا.

وَمَذْهَبُ هَؤُلَاءِ بَاطِلٌ بِدَلَائِلَ كَثِيرَةٍ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ، دُونَ قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا لَوَجَبَ قَتْلُهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(١)، وَقَالَ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: كُفْرٍ بَعْدَ إِسْلَامٍ، وَزِنًى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتْلِ نَفْسٍ يُقْتَلُ بِهَا**»(٢)، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُجْلَدَ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَلَوْ كَانَا كَافِرَيْنِ لَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يُجْلَدَ قَاذِفُ الْمُحْصَنَةِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا لَأَمَرَ بِقَتْلِهِ. (٧/ ٤٨١).

عشرة أسباب تزيل عقوبة الذنوب

دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى أَنَّ عُقُوبَةَ الذُّنُوبِ تَزُولُ عَنْ الْعَبْدِ بِنَحْوِ عَشَرَةِ أَسْبَابٍ:

أَحَدُهَا- التَّوْبَةُ، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١٠٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

السَّبَبُ الثَّانِي- الِاسْتِغْفَارُ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧١) في كتاب الجهاد والسير عن ابن عباس.

(٢) **صحيح**. أخرجه أبو داود (٤٥٠٢) في كتاب الديات، عن عثمان بن عفان، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»(٣٧٧٨).

وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْت لِعَبْدِي. ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْت لِعَبْدِي، فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ. قَالَ ذَلِكَ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ»[(١)]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[(٢)].

السَّبَبُ الثَّالِثُ- الْحَسَنَاتُ الْمَاحِيَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إلَى رَمَضَانَ؛ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إذَا اُجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»[(٣)]، وَقَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[(٤)]، وَقَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[(٥)]، وَقَالَ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[(٦)]، وَقَالَ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ»[(٧)]، وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَأَمْثَالُهَا فِي الصِّحَاحِ. وَسُؤَالُهُمْ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ يَقُولُوا: الْحَسَنَاتُ إنَّمَا تُكَفِّرُ الصَّغَائِرَ فَقَطْ، فَأَمَّا الْكَبَائِرُ فَلَا تُغْفَرُ إلَّا بِالتَّوْبَةِ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «مَا اُجْتُنِبَتْ الْكَبَائِرُ»؟ فَيُجَابُ عَنْ هَذَا بِوُجُوهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧) في كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٥٨) في كتاب التوبة، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) في كتاب التوبة عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣) في كتاب الطهارة عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (٢٠١٤) في كتاب فضائل ليلة القدر، ومسلم (٧٦٠) في كتاب صلاة المسافرين، عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه البخاري (٢٠١٤) في كتاب فضائل ليلة القدر، ومسلم (٧٦٠) في كتاب صلاة المسافرين، عن أبي هريرة.

(٦) أخرجه البخاري (١٨١٩) في كتاب المحصر، عن أبي هريرة.

(٧) أخرجه البخاري (٥٢٥) في كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (١٤٤) في كتاب الفتن.

السَّبَبُ الرَّابِعُ- دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِ، مِثْلُ صَلَاتِهِمْ عَلَى جِنَازَتِهِ، فَعَنْ عَائِشَةَ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ، إلَّا شُفِّعُوا فِيهِ**»(١)، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إلَّا شَفَّعَهُمْ اللهُ فِيهِ**» رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ(٢)، وَهَذَا دُعَاءٌ لَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُحْمَلَ الْمَغْفِرَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ الَّذِي اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ، وَكُفِّرَتْ عَنْهُ الصَّغَائِرُ وَحْدَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَغْفُورٌ لَهُ عِنْدَ الْمُتَنَازِعِينَ، فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ لِلْمَيِّتِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ- مَا يُعْمَلُ لِلْمَيِّتِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ؛ كَالصَّدَقَةِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ هَذَا يَنْتَفِعُ بِهِ بِنُصُوصِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ وَاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ، وَكَذَلِكَ الْعِتْقُ، وَالْحَجُّ، بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ**»(٣). وَثَبَتَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ صَوْمِ النَّذْرِ، مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَى.

السَّبَبُ السَّادِسُ- شَفَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَغَيْرِهُ فِي أَهْلِ الذُّنُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَدْ تَوَاتَرَتْ عَنْهُ أَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ، مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٩٤٧) في كتاب الجنائز.

(٢) أخرجه مسلم (٩٤٨) في كتاب الجنائز.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٥٢) في كتاب الصوم، ومسلم (١١٤٧) في كتاب الصيام عن عائشة.

(٤) صحيح. أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، وأبو داود (٤٧٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧١٤).

السَّبَبُ السَّابِعُ- الْمَصَائِبُ الَّتِي يُكَفِّرُ اللهُ بِهَا الْخَطَايَا فِي الدُّنْيَا، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا غَمٍّ، وَلَا أَذًى -حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا- إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(١).

السَّبَبُ الثَّامِنُ- مَا يَحْصُلُ فِي الْقَبْرِ مِنْ الْفِتْنَةِ، وَالضَّغْطَةِ، وَالرَّوْعَةِ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يُكَفَّرُ بِهِ الْخَطَايَا.

السَّبَبُ التَّاسِعُ- أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَرْبُهَا وَشَدَائِدُهَا.

السَّبَبُ الْعَاشِرُ- رَحْمَةُ اللهِ، وَعَفْوُهُ، وَمَغْفِرَتُهُ بِلَا سَبَبٍ مِنْ الْعِبَادِ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ قَدْ يُدْفَعُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ الْعَشَرَةِ؛ كَانَ دَعْوَاهُمْ أَنَّ عُقُوبَاتِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ لَا تَنْدَفِعُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مُخَالِفٌ لِذَلِكَ. (٧/ ٤٨٧ ـ ٥٠١ بتصرف).

فائدة: أصناف العلماء

قَالَ أَبُو حَيَّانَ التيمي: «الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللَّهِ؛ وَبِأَمْرِ الله، وَعَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ عَالِمًا بِأَمْرِ اللهِ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ لَيْسَ عَالِمًا بِاللَّهِ؛ فَالْعَالِمُ بِاللَّهِ الَّذِي يَخْشَاهُ، وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللهِ الَّذِي يَعْلَمُ حُدُودَهُ وَفَرَائِضَهُ».

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ خَشِيَ اللهَ فَهُوَ عَالِمٌ، وَهُوَ حَقٌّ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ عَالِمٍ يَخْشَاهُ؛ لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ بِهِ مُوجِبًا لِلْخَشْيَةِ عِنْدَ عَدَمِ الْمُعَارِضِ كَانَ عَدَمُهُ دَلِيلًا عَلَى ضَعْفِ الْأَصْلِ، إِذْ لَوْ قَوِيَ لَدَفَعَ الْمُعَارِضَ. (٧/ ٥٣٩).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤١) في كتاب المرض، ومسلم (٢٥٧٢) في كتاب البر والصلة.

العلم والكبر

الْمُسْتَكْبِرُونَ الْمُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ مَصْرُوفُونَ عَنْ آيَاتِ اللهِ، لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ، لَمَّا تَرَكُوا الْعَمَلَ بِمَا عَلِمُوهُ، اسْتِكْبَارًا وَاتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ، عُوقِبُوا بِأَنْ مُنِعُوا الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ، فَإِنَّ الْعِلْمَ حَرْبٌ لِلْمُتَعَالِي، كَمَا أَنَّ السَّيْلَ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي، وَالَّذِينَ يَرْهَبُونَ رَبَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوهُ، فَآتَاهُمُ اللهُ عِلْمًا وَرَحْمَةً، إِذْ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَلِهَذَا لَمَّا وَصَفَ اللهُ النَّصَارَى: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ [المائدة:٨٢]، وَالرُّهْبَانُ: مِنَ الرَّهْبَنَةِ، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢]، كَانُوا بِذَلِكَ أَقْرَبَ مَوَدَّةً إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا. كَمَا قَالَ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢]. (٧/ ٦٢٦).

فائدة: الأسباب التي يقوى بها الإيمان

الْأَسْبَابُ الَّتِي يَقْوَى بِهَا الْإِيمَانُ إِلَى أَنْ يَكْمُلَ عَلَى تَرْتِيبِهَا: هَلْ يَبْدَأُ بِالزُّهْدِ؟ أَوْ بِالْعِلْمِ؟ أَوْ بِالْعِبَادَةِ؟ أَمْ يَجْمَعُ بَيْنَ ذَلِكَ عَلَى حَسَبِ طَاقَتِهِ؟

فَيُقَالُ لَهُ: لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، وَالْعِبَادَةِ الْوَاجِبَةِ، وَالزُّهْدِ الْوَاجِبِ، ثُمَّ النَّاسُ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْإِيمَانِ، كَتَفَاضُلِهِمْ فِي شُعَبِهِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَطْلُبُ مَا يُمْكِنُهُ طَلَبُهُ، وَيُقَدِّمُ مَا يَقْدِرُ عَلَى تَقْدِيمِهِ مِنَ الْفَاضِلِ، وَالنَّاسُ يَتَفَاضَلُونَ فِي هَذَا الْبَابِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ الْعِلْمُ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِنَ الزُّهْدِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ الزُّهْدُ أَيْسَرَ عَلَيْهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ الْعِبَادَةُ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا.

فَالْمَشْرُوعُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، وَإِذَا ازْدَحَمَتْ شُعَبُ الْإِيمَانِ قَدَّمَ مَا كَانَ أَرْضَى للهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ أَقْدَرُ، فَقَدْ يَكُونُ عَلَى الْمَفْضُولِ أَقْدَرَ مِنْهُ عَلَى الْفَاضِلِ، وَيَحْصُلُ لَهُ أَفْضَلُ مِمَّا يَحْصُلُ مِنْ الْفَاضِلِ، فَالْأَفْضَلُ لِهَذَا أَنْ يَطْلُبَ مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ، وَهُوَ فِي حَقِّهِ أَفْضَلُ، وَلَا يَطْلُبُ مَا هُوَ أَفْضَلُ مُطْلَقًا؛ إِذَا كَانَ مُتَعَذِّرًا فِي حَقِّهِ، أَوْ مُتَعَسِّرًا، يَفُوتُهُ مَا هُوَ أَفْضَلُ لَهُ وَأَنْفَعُ، كَمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِاللَّيْلِ فَيَتَدَبَّرُهُ وَيَنْتَفِعُ بِتِلَاوَتِهِ، وَالصَّلَاةُ تَثْقُلُ عَلَيْهِ وَلَا يَنْتَفِعُ مِنْهَا بِعَمَلٍ، أَوْ يَنْتَفِعُ بِالذِّكْرِ أَعْظَمَ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِالْقِرَاءَةِ.

فَأَيُّ عَمَلٍ كَانَ لَهُ أَنْفَعَ، وَلِله أَطْوَعَ، أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ مِنْ تَكَلُّفِ عَمَلٍ لَا يَأْتِي بِهِ عَلَى وَجْهِهِ، بَلْ عَلَى وَجْهٍ نَاقِصٍ، وَيَفُوتُهُ بِهِ مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصَّلَاةَ آكَدُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الذِّكْرَ فِي فِعْلِهِ الْخَاصِّ: كَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ الْمَحَلِّ، وَأَنَّ الذِّكْرَ وَالْقِرَاءَةَ وَالدُّعَاءَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا خَيْرٌ مِنْ الصَّلَاةِ.

وَالزُّهْدُ هُوَ ضِدُّ الرَّغْبَةِ، وَهُوَ كَالْبُغْضِ الْمُخَالِفِ لِلْمَحَبَّةِ، وَالْكَرَاهَةِ الْمُخَالِفَةِ لِلْإِرَادَةِ، وَكُلٌّ مِنْ الْإِرَادَةِ وَالْكَرَاهَةِ لَهُ أَقْسَامٌ فِي نَفْسِهِ، وَفِي مُتَعَلَّقِهِ، فَالزُّهْدُ فِيهِ انْقِسَامٌ: إِلَى الْمَزْهُودِ فِيهِ، وَإِلَى نَفْسِ الزُّهْدِ.

أَمَّا الْأَوَّلُ- فَإِنَّ الزُّهْدَ...[1]، وَأَمَّا نَفْسُ الزُّهْدِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الرَّغْبَةِ، وَهُوَ الْكَرَاهَةُ وَالْبُغْضُ، فَحَقِيقَةُ الْمَشْرُوعِ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ كَرَاهَةُ الْعَبْدِ وَبُغْضُهُ وَحُبُّهُ تَابِعًا لِحُبِّ الله وَبُغْضِهِ وَرِضَاهُ وَسَخَطِهِ، فَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ، وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ، وَيَرْضَى مَا يَرْضَاهُ، وَيَسْخَطُ مَا يَسْخَطُهُ الله، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ تَابِعًا هَوَاهُ، بَلْ لِأَمْرِ مَوْلَاهُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الزُّهَّادِ

---

(١) بياض في الأصل.

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَعْرَضُوا عَنْ فُضُولِهَا، وَلَمْ يُقْبِلُوا عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلَيْسَ مِثْلُ هَذَا الزُّهْدِ يَأْمُرُ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَلِهَذَا كَانَ فِي الْمُشْرِكِينَ زُهَّادٌ، وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِ زُهَّادٌ، وَفِي أَهْلِ الْبِدَعِ زُهَّادٌ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَزْهَدُ لِطَلَبِ الرَّاحَةِ مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْهَدُ لِمُسالَمَةِ أَهْلِهَا وَالسَّلَامَةِ مِنْ أَذَاهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْهَدُ فِي الْمَالِ لِطَلَبِ الرَّاحَةِ إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي لَا يَأْمُرُ اللهُ بِهَا وَلَا رَسُولُهُ، وَإِنَّمَا يَأْمُرُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَنْ يَزْهَدَ فِيمَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيَرْغَبَ فِيمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَيَكُونُ زُهْدُهُ هُوَ الْإِعْرَاضَ عَمَّا لَا يَأْمُرُ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ أَمْرَ إِيجَابٍ وَلَا أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ، سَوَاءٌ كَانَ مُحَرَّمًا، أَوْ مَكْرُوهًا، أَوْ مُبَاحًا مُسْتَوِيَ الطَّرَفَيْنِ فِي حَقِّ الْعَبْدِ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مُقْبِلًا عَلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَإِلَّا فَتَرْكُ الْمَكْرُوهِ بِدُونِ فِعْلِ الْمَحْبُوبِ لَيْسَ بِمَطْلُوبٍ، وَإِنَّمَا الْمَطْلُوبُ بِالْمَقْصُودِ الْأَوَّلِ فِعْلُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَرْكُ الْمَكْرُوهِ مُتَعَيَّنٌ كَذَلِكَ بِهِ تَزْكُو النَّفْسُ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ إِذَا انْتَفَتْ عَنْهَا السَّيِّئَاتُ زَكَتْ، فَبِالزَّكَاةِ تَطِيبُ النَّفْسُ مِنَ الْخَبَائِثِ، وَتَعْظُمُ فِي الطَّاعَاتِ، كَمَا أَنَّ الزَّرْعَ إِذَا أُزِيلَ عَنْهُ الدَّغَلُ[1] زَكَا وَظَهَرَ وَعَظُمَ. (٧/ ٦٥١).

فائدة جليلة للتائبين

إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَذْنَبَ تَابَ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَهَدَاهُ، وَإِبْلِيسُ أَصَرَّ وَاحْتَجَّ، فَلَعَنَهُ اللهُ وَأَقْصَاهُ، فَمَنْ تَابَ كَانَ آدَمِيًّا، وَمَنْ أَصَرَّ وَاحْتَجَّ بِالْقَدَرِ كَانَ إبليسيًّا، فَالسُّعَدَاءُ يَتَّبِعُونَ أَبَاهُمْ، وَالْأَشْقِيَاءُ يَتَّبِعُونَ عَدُوَّهُمْ إِبْلِيسَ. (٨/ ٦٤).

---

(١) **الدغل**: الفساد، وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يستتر به أهل الفساد.

الدنيا والعمل الصالح

كُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ وَلَا يَكُونُ طَاعَةً للهِ وَعِبَادَةً وَعَمَلًا صَالِحًا؛ فَهُوَ بَاطِلٌ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ للهِ، وَإِنْ نَالَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ رِئَاسَةً وَمَالًا، فَغَايَةُ الْمُتَرَئِّسِ أَنْ يَكُونَ كَفِرْعَوْنَ، وَغَايَةُ الْمُتَمَوِّلِ أَنْ يَكُونَ كقارون.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ مِنْ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وَقَارُونَ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُعِينُ اللهُ الْعَبْدَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ وَلَا يَنْفَعُ، فَمَا لَا يَكُونُ بِهِ لَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ لَهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ الْعَبْدَ أَنْ يَقُولَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. (٨/ ٧٦).

الاستغفار والاعتلال

(الله تعالى) وَهُوَ يُعَاقِبُ الْخَلْقَ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بِإِرَادَتِهِ الْقَدَرِيَّةِ، فَإِنَّ الْقَدَرَ كَمَا جَرَى بِالْمَعْصِيَةِ جَرَى أَيْضًا بِعِقَابِهَا، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ يُقَدِّرُ عَلَى الْعَبْدِ أَمْرَاضًا تُعْقِبُهُ آلَامًا، فَالْمَرَضُ بِقَدَرِهِ، وَالْأَلَمُ بِقَدَرِهِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: قَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِرَادَةُ بِالذَّنْبِ فَلَا أُعَاقَبُ؛ كَانَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الْمَرِيضِ: قَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِرَادَةُ بِالْمَرَضِ فَلَا أَتَأَلَّمُ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِرَادَةُ بِأَكْلِ الْحَارِّ فَلَا يُحَمُّ مِزَاجِي، أَوْ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِالضَّرْبِ فَلَا يَتَأَلَّمُ الْمَضْرُوبُ. وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ جَهْلٌ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ؛ بَلْ اعْتِلَالُهُ بِالْقَدَرِ ذَنْبٌ ثَانٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ أَيْضًا، وَإِنَّمَا اعْتَلَّ بِالْقَدَرِ إِبْلِيسُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩]. وَأَمَّا آدَمُ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]. فَمَنْ أَرَادَ اللهُ سَعَادَتَهُ أَلْهَمَهُ أَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ نَحْوَهُ، وَمَنْ أَرَادَ شَقَاوَتَهُ اعْتَلَّ بِعِلَّةِ إِبْلِيسَ، أَوْ نَحْوِهَا، فَيَكُونُ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنْ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، وَمَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ طَارَ إِلَى دَارِهِ شَرَارَةُ نَارٍ؛ فَقَالَ لَهُ الْعُقَلَاءُ: أَطْفِئْهَا لِئَلَّا

تحرق الْمَنْزِلَ. فَأَخَذَ يَقُولُ: مِنْ أَيْنَ كَانَتْ؟ هَذِهِ رِيحٌ أَلْقَتْهَا، وَأَنَا لَا ذَنْبَ لِي فِي هَذِهِ النَّارِ، فَمَا زَالَ يَتَعَلَّلُ بِهَذِهِ الْعِلَلِ حَتَّى اسْتَعَرَتْ وَانْتَشَرَتْ، وَأَحْرَقَتْ الدَّارَ وَمَا فِيهَا.

هَذِهِ حَالُ مَنْ شَرَعَ يُحِيلُ الذُّنُوبَ عَلَى الْمَقَادِيرِ، وَلَا يَرُدُّهَا بِالِاسْتِغْفَارِ وَالْمَعَاذِيرِ، بَلْ حَالُهُ أَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ بِالذَّنْبِ الَّذِي فَعَلَهُ، بِخِلَافِ الشَّرَارَةِ، فَإِنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ فِيهَا.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُوَفِّقُنَا وَإِيَّاكُمْ وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، فَإِنَّهَا لَا تُنَالُ طَاعَتُهُ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ، وَلَا تُتْرَكُ مَعْصِيَتُهُ إِلَّا بِعِصْمَتِهِ. (٨/ ١٩٩).

آفة الاطمئنان إلى النفس

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

مِنْ الْفَوَائِدِ: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَطْمَئِنُّ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَجِيءُ إِلَّا مِنْهَا؛ وَلَا يَشْتَغِلُ بِمَلَامِ النَّاسِ وَذَمِّهِمْ، وَلَكِنْ يَرْجِعُ إِلَى الذُّنُوبِ فَيَتُوبُ مِنْهَا، وَيَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ وَسَيِّئَاتِ عَمَلِهِ، وَيَسْأَلُ الله أَنْ يُعِينَهُ عَلَى طَاعَتِهِ؛ فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْخَيْرُ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ الشَّرُّ. (٨/ ٢١٥ - ١٤/ ٢٢٧).

دعاء يجمع صلاح الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، فَهَذَا الدُّعَاءُ أَفْضَلُ الْأَدْعِيَةِ وَأَوْجَبُهَا عَلَى الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ يَجْمَعُ صَلَاحَ الْعَبْدِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. (٨/ ٣٣٠).

ليس للبدعة حد

الْبِدَعُ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا شِبْرًا، ثُمَّ تَكْثُرُ فِي الِاتِّبَاعِ حَتَّى تَصِيرَ أَذْرُعًا، وَأَمْيَالًا، وَفَرَاسِخَ. (٨/ ٤٢٥).

الإسلام ضمانة من الشطط

كَانَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيُّ فَيْلَسُوفَ الْإِسْلَامِ فِي وَقْتِهِ -أَعْنِي الْفَيْلَسُوفَ الَّذِي فِي الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ الْفَلَاسِفَةُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا قَالُوا لِبَعْضِ أَعْيَانِ الْقُضَاةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِنَا: ابْنُ سِينَا مِنْ فَلَاسِفَةِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: لَيْسَ لِلْإِسْلَامِ فَلَاسِفَةٌ- كَانَ يَعْقُوبُ يَقُولُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ: الْعَدَمُ فَقْدُ وُجُودِ كَذَا. وَأَنْوَاعِ هَذِهِ الْإِضَافَاتِ، وَمَنْ وَجَدَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ فَصَاحَةً أَوْ بَلَاغَةً، كَمَا يُوجَدُ فِي بَعْضِ كَلَامِ ابْنِ سِينَا وَغَيْرِهِ، فَلِمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ عُقُولِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، وَإِلَّا فَلَوْ مَشَى عَلَى طَرِيقَةِ سَلَفِهِ، وَأَعْرَضَ عَمَّا تَعَلَّمَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَكَانَ عَقْلُهُ وَلِسَانُهُ يُشْبِهُ عُقُولَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ، وَهُمْ أَكْثَرُ مَا ينفقون عَلَى مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَا يَقُولُونَهُ وَيُعَظِّمُهُمْ بِالْجَهْلِ وَالْوَهْمِ، أَوْ يَفْهَمُ بَعْضَ مَا يَقُولُونَهُ، أَوْ أَكْثَرَهُ، أَوْ كُلَّهُ، مَعَ عَدَمِ تَصَوُّرِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ لِحَقِيقَةِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يُعْرَفُ بِالْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَمَا قَالَهُ سَائِرُ الْعُقَلَاءِ مُنَاقِضًا لِمَا قَالُوهُ، وَهُوَ إنَّمَا وَصَلَ إلَى مُنْتَهَى أَمْرِهِمْ بَعْدَ كُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ، وَاقْتَرَنَ بِهَا حُسْنُ ظَنٍّ، فَتَوَرَّطَ مِنْ ضَلَالِهِمْ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ، ثُمَّ إنْ تَدَارَكَهُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنْ الْفُضَلَاءِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِهِمْ الظَّنَّ ابْتِدَاءً، ثُمَّ انْكَشَفَ لَهُمْ مِنْ ضَلَالِهِمْ مَا أَوْجَبَ رُجُوعَهُمْ عَنْهُمْ وَتَبَرُّءَهُمْ مِنْهُمْ، بَلْ وَرَدَّهُمْ عَلَيْهِمْ، وَإِلَّا بَقِيَ مِنْ الضُّلَّالِ، وَضَلَالُهُمْ فِي الْإِلَهِيَّاتِ ظَاهِرٌ لِأَكْثَرِ النَّاسِ، وَلِهَذَا كَفَّرَهُمْ فِيهَا نُظَّارُ الْمُسْلِمِينَ قَاطِبَةً. (٩/ ١٨٦).

الرد على أهل الباطل

هَذِهِ الْأُمَّة -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- لَمْ يَزَلْ فِيهَا مَنْ يَتَفَطَّنُ لِمَا فِي كَلَامِ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ الْبَاطِلِ، وَيَرُدُّهُ، وَهُمْ لِمَا هَدَاهُمْ اللهُ بِهِ يَتَوَافَقُونَ فِي قَبُولِ الْحَقِّ، وَرَدِّ الْبَاطِلِ، رَأْيًا وَرِوَايَةً، مِنْ غَيْرِ تَشَاعُرٍ وَلَا تَوَاطُؤٍ. (٩/ ٢٣٣).

نهاية أتباع المنطق

وَقَدْ تَبَيَّنَ بِمَا تَقَرَّرَ فَسَادُ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَنْطِقِ؛ مِنْ حَصْرِ طَرِيقِ الْعِلْمِ: مَادَّةً وَصُورَةً، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوا مِنْ الْعُلُومِ الصَّادِقَةِ أَجَلَّ وَأَعْظَمَ وَأَكْثَرَ مِمَّا أَثْبَتُوهُ، وَأَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ الطَّرِيقِ إنَّمَا يُفِيدُ عُلُومًا قَلِيلَةً خَسِيسَةً، لَا كَثِيرَةً، وَلَا شَرِيفَةً، وَهَذِهِ مَرْتَبَةُ الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ مِنْ أَخَسِّ النَّاسِ عِلْمًا وَعَمَلًا. وَكُفَّارُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَشْرَفُ عِلْمًا وَعَمَلًا مِنْهُمْ، مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ. وَالْفَلْسَفَةُ كُلُّهَا لَا يَصِيرُ صَاحِبُهَا فِي دَرَجَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بَعْدَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ، فَضْلًا عَنْ دَرَجَتِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَدْ أَنْشَدَ ابْنُ القشيري فِي الرَّدِّ عَلَى (الشِّفَاءِ) لِابْنِ سِينَا:

قَطَعْنَا الْأُخُوَّةَ مِنْ مَعْشَرٍ ... بِهِمْ مَرَضٌ مِنْ كِتَابِ الشفا

وَكَمْ قُلْت: يَا قَوْمِ أَنْتُمْ عَلَى ... شَفَا جُرُفٍ مِنْ كِتَابِ الشفا

فَلَمَّا اسْتَهَانُوا بِتَنْبِيهِنَا ... رَجَعْنَا إلَى اللهِ حَتَّى كَفَى

فَمَاتُوا عَلَى دِينِ رسطالس ... وَعِشْنَا عَلَى مِلَّةِ الْمُصْطَفَى

(٩/ ٢٥٢)

القول في كتب المنطق

أَمَّا (كُتُبُ الْمَنْطِقِ) فَتِلْكَ لَا تَشْتَمِلُ عَلَى عِلْمٍ يُؤْمَرُ بِهِ شَرْعًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَدَّى اجْتِهَادُ بَعْضِ النَّاسِ إلَى أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إنَّ الْعُلُومَ لَا تَقُومُ إلَّا بِهِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ، فَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ، عَقْلًا وَشَرْعًا.

أَمَّا (عَقْلًا) فَإِنَّ جَمِيعَ عُقَلَاءِ بَنِي آدَمَ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ حَرَّرُوا عُلُومَهُمْ بِدُونِ الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ.

وَأَمَّا (شَرْعًا) فَإِنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ اللهَ لَمْ يُوجِبْ تَعَلُّمَ هَذَا الْمَنْطِقِ الْيُونَانِيِّ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ. وَأَمَّا هُوَ فِي نَفْسِهِ فَبَعْضُهُ حَقٌّ، وَبَعْضُهُ بَاطِلٌ، وَالْحَقُّ الَّذِي فِيهِ كَثِيرٌ مِنْهُ، أَوْ أَكْثَرُهُ، لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ، وَالْقَدْرُ الَّذِي يُحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْهُ فَأَكْثَرُ الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ تَسْتَقِلُّ بِهِ، وَالْبَلِيدُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَالذَّكِيُّ لَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ، وَمَضَرَّتُهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ خَبِيرًا بِعُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ؛ فَإِنَّ فِيهِ مِنْ الْقَوَاعِدِ السَّلْبِيَّةِ الْفَاسِدَةِ مَا رَاجَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْفُضَلَاءِ، وَكَانَتْ سَبَبَ نِفَاقِهِمْ، وَفَسَادِ عُلُومِهِمْ. وَقَوْلُ مَنْ قَالَ إنَّهُ كُلَّهُ حَقٌّ كَلَامٌ بَاطِلٌ، بَلْ فِي كَلَامِهِمْ فِي الْحَدِّ وَالصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالْعَرَضِيَّةِ وَأَقْسَامِ الْقِيَاسِ وَالْبُرْهَانِ وَمَوَادِّهِ مِنْ الْفَسَادِ مَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٩/ ٢٦٩).

وصايا وعظات

❁ الذُّنُوبُ إنَّمَا تَقَعُ إذَا كَانَتْ النَّفْسُ غَيْرَ مُمْتَثِلَةٍ لِمَا أُمِرَتْ بِهِ، وَمَعَ امْتِثَالِ الْمَأْمُورِ لَا تَفْعَلُ الْمَحْظُورَ، فَإِنَّهُمَا ضِدَّانِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [يوسف:٢٤]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢ والإسراء:٦٥]، فَعِبَادُ اللهِ الْمُخْلِصُونَ لَا يُغْوِيهِمْ الشَّيْطَانُ، فَمَنْ مَالَتْ نَفْسُهُ إلَى مُحَرَّمٍ فَلْيَأْتِ بِعِبَادَةِ اللهِ كَمَا أَمَرَ اللهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَصْرِفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ. (١٠/ ٦٣٦).

❁ قِيلَ: مَنْ اسْتَشْفَى بِالْأَدْوِيَةِ الْخَبِيثَةِ كَانَ دَلِيلًا عَلَى مَرَضٍ فِي قَلْبِهِ، وَذَلِكَ فِي إيمَانِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ الْمُؤْمِنِينَ لَمَا جَعَلَ اللهُ شِفَاءَهُ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ. (٢٤/ ٢٧٥).

الروح والنفس

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ**»(١). فَقَدْ سَمَّى الْمَقْبُوضَ وَقْتَ الْمَوْتِ، وَوَقْتَ النَّوْمِ، رُوحًا وَنَفْسًا، وَسَمَّى الْمَعْرُوجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ رُوحًا وَنَفْسًا. لَكِنْ يُسَمَّى نَفْسًا بِاعْتِبَارِ تَدْبِيرِهِ لِلْبَدَنِ، وَيُسَمَّى رُوحًا بِاعْتِبَارِ لُطْفِهِ، فَإِنَّ لَفْظَ (الرُّوحِ) يَقْتَضِي اللُّطْفَ، وَلِهَذَا تُسَمَّى الرِّيحُ رُوحًا. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرِّيحُ مِن رُوحِ اللهِ**»(٢). أَيْ مِنْ الرُّوحِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ، فَإِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَى اللهِ إِضَافَةُ مِلْكٍ، لَا إِضَافَةُ وَصْفٍ، إِذْ كُلُّ مَا يُضَافُ إِلَى اللهِ إِنْ كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا فَهُوَ مِلْكٌ لَهُ، وَإِنْ كَانَ صِفَةً قَائِمَةً بِغَيْرِهَا لَيْسَ لَهَا مَحَلٌّ تَقُومُ بِهِ فَهُوَ صِفَةٌ للهِ. (٩/ ٢٩٠).

وللقلوب أعمالها

أَعْمَالُ الْقُلُوبِ -الَّتِي قَدْ تُسَمَّى (الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَال)- هِيَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ، وَقَوَاعِدِ الدِّينِ؛ مِثْلُ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَالشُّكْرِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَى حُكْمِهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالرَّجَاءِ لَهُ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ. اقْتَضَى ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ أَوْجَبَ اللهُ حَقَّهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَاسْتَكْتَبَهَا، وَكُلٌّ مِنَّا عَجْلَانُ.

فَأَقُولُ: هَذِهِ الْأَعْمَالُ جَمِيعُهَا وَاجِبَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ -الْمَأْمُورِينَ فِي الْأَصْلِ- بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الدِّينِ، وَالنَّاسُ فِيهَا عَلَى (ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ)، كَمَا هُمْ فِي أَعْمَالِ الْأَبْدَانِ عَلَى (ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ): ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمُقْتَصِدٌ، وَسَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ.

فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: الْعَاصِي بِتَرْكِ مَأْمُورٍ أَوْ فِعْلِ مَحْظُورٍ.

وَالْمُقْتَصِدُ: الْمُؤَدِّي الْوَاجِبَاتِ وَالتَّارِكُ الْمُحَرَّمَاتِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠) في كتاب الجنائز، عن أم سلمة.

(٢) **صحيح**. أخرجه الحاكم وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٧٧).

وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ: الْمُتَقَرِّبُ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، وَالتَّارِكُ لِلْمُحَرَّمِ وَالْمَكْرُوهِ.

وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْ الْمُقْتَصِدِ وَالسَّابِقِ قَدْ يَكُونُ لَهُ ذُنُوبٌ تُمْحَى عَنْهُ:

إمَّا بِتَوْبَةٍ ـ وَاللَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

وَإِمَّا بِحَسَنَاتٍ مَاحِيَةٍ.

وَإِمَّا بِمَصَائِبَ مُكَفِّرَةٍ.

وَإِمَّا بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكُلٌّ مِنْ الصِّنْفَيْنِ؛ الْمُقْتَصِدِينَ وَالسَّابِقِينَ، مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، فَحَدُّ أَوْلِيَاءِ الله: هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ إلَى: (عَامٍّ)، وَهُم الْمُقْتَصِدُونَ، و(خَاصٍّ) وَهُمْ السَّابِقُونَ، وَإِنْ كَانَ السَّابِقُونَ هُمْ أَعْلَى دَرَجَاتٍ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ. (١٠/ ٦).

كل نفس بما كسبت رهينة

فَمَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وَكذلكَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ، تَبَعًا لِهَوَاهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُورِثُهُ الْجَهْلَ وَالضَّلَالَ، حَتَّى يَعْمَى قَلْبُهُ عَنْ الْحَقِّ الْوَاضِحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ؛ كَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: إنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[1]. (١٠/ ١٠).

فائدة: الصدق والإخلاص

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[2]، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الصِّدْقَ أَصْلٌ يَسْتَلْزِمُ الْبِرَّ، وَأَنَّ الْكَذِبَ يَسْتَلْزِمُ الْفُجُورَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ إِذَا أَمَرَ بَعْضَ مُتَّبِعِيهِ بِالتَّوْبَةِ، وَأَحَبَّ أَلَّا يُنَفِّرَهُ، وَلَا يُشَعِّبَ قَلْبَهُ، أَمَرَهُ بِالصِّدْقِ، وَلِهَذَا كَانَ يَكْثُرُ فِي كَلَامِ مَشَايِخِ الدِّينِ وَأَئِمَّتِهِ ذِكْرُ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ، حَتَّى يَقُولُوا: قُلْ لِمَنْ لَا يَصْدُقُ: لَا يَتَّبِعْنِي. وَيَقُولُونَ: الصِّدْقُ سَيْفُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا قَطَعَهُ. وَيَقُولُ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، وَغَيْرُهُ: مَا صَدَقَ اللهَ عَبْدٌ إِلَّا صَنَعَ لَهُ. وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ هُمَا فِي الْحَقِيقَةِ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فَإِنَّ الْمُظْهِرِينَ لِلْإِسْلَامِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ، وَالْفَارِقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ هُوَ الصِّدْقُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) في كتاب البر والصلة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) في كتاب البر والصلة.

فَإِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ هُوَ الْكَذِبُ؛ وَلِهَذَا إِذَا ذَكَرَ اللهُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ نَعَتَهُ بِالصِّدْقِ، كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٤-١٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨]، فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ لَمْ يَتَعَقَّبْ إيمَانَهُمْ رِيبَةٌ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. (١٠/ ١١).

وللحزن جانب إيجابي

وَقَدْ يَقْتَرِنُ بِالْحُزْنِ مَا يُثَابُ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ، وَيُحْمَدُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ مَحْمُودًا مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ، لَا مِنْ جِهَةِ الْحُزْنِ؛ كَالْحَزِينِ عَلَى مُصِيبَةٍ فِي دِينِهِ، وَعَلَى مَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ عُمُومًا، فَهَذَا يُثَابُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّ الْخَيْرِ، وَبُغْضِ الشَّرِّ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْحُزْنَ عَلَى ذَلِكَ إذَا أَفْضَى إلَى تَرْكِ مَأْمُورٍ مِنْ الصَّبْرِ وَالْجِهَادِ وَجَلْبِ مَنْفَعَةٍ وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ نُهِيَ عَنْهُ، وَإِلَّا كَانَ حَسْبُ صَاحِبُهُ رَفْعَ الْإِثْمُ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ الْحُزْنِ، وَأَمَّا إنْ أَفْضَى إلَى ضَعْفِ الْقَلْبِ، وَاشْتِغَالِهِ بِهِ عَنْ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِهِ، كَانَ مَذْمُومًا عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ، وَإِنْ كَانَ مَحْمُودًا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. (١٠/ ١٧).

فضل الصبر

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ الصَّبْرَ فِي كِتَابِهِ، فِي أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ مَوْضِعًا، وَقَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]. و﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا

مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [هود:١١٤-١١٥]، ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه:١٣٠]، ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥] الْآيَةَ، وَجَعَلَ (الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ) مَوْرُوثَةً عَنْ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٥٤]، فَإِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ عِلْمٌ بِالْحَقِّ وَعَمَلٌ بِهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ الصَّبْرِ، بَلْ وَطَلَبُ عِلْمِهِ يَحْتَاجُ إلَى الصَّبْرِ، كَمَا قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّ طَلَبَهُ للهِ عِبَادَةٌ، وَمَعْرِفَتَهُ خَشْيَةٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ؛ وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ.

بِهِ يُعْرَفُ اللهُ وَيُعْبَدُ، وَبِهِ يُمَجَّدُ اللهُ وَيُوَحَّدُ؛ يَرْفَعُ اللهُ بِالْعِلْمِ أَقْوَامًا يَجْعَلُهُمْ لِلنَّاسِ قَادَةً وَأَئِمَّةً، يَهْتَدُونَ بِهِمْ، وَيَنْتَهُونَ إلَى رَأْيِهِمْ. (١٠/ ٣٩).

الحسنة والسيئة

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانَ دَاوُد بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ، فَمَنْ قُضِيَ لَهُ بِالتَّوْبَةِ كَانَ كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا النَّارَ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَيَدْخُلُ بِهَا الْجَنَّةَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَتَكُونُ نُصْبَ عَيْنِهِ، وَيُعْجَبُ بِهَا، وَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَتَكُونُ نُصْبَ عَيْنِهِ، فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ وَيَتُوبُ إلَيْهِ مِنْهَا. (١٠/ ٤٥).

صفة المحبين المحبوبين

قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْمُحِبِّينَ الْمَحْبُوبِينَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ [المائدة:٥٤]، فَوَصَفَ الْمَحْبُوبِينَ الْمُحِبِّينَ بِأَنَّهُمْ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَأَنَّهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْجِهَادِ؛ لِأَنَّ الْمُحِبَّ يُحِبُّ مَا يُحِبُّ مَحْبُوبُهُ، وَيُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ مَحْبُوبُهُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِيهِ، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِيهِ؛ وَيَرْضَى لِرِضَاهُ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، وَيَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيَنْهَى عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ، فَهُوَ مُوَافِقٌ لَهُ فِي ذَلِكَ.

وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ يَرْضَى الرَّبُّ لِرِضَاهُمْ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِمْ؛ إذْ هُمْ إنَّمَا يَرْضَوْنَ لِرِضَاهُ، وَيَغْضَبُونَ لِمَا يَغْضَبُ لَهُ. (١٠/ ٥٨).

دواء العشق

إِذَا كَانَ الْقَلْبُ مُحِبًّا للهِ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لَمْ يُبْتَلَ بِحُبِّ غَيْرِهِ أَصْلًا، فَضْلًا أَنْ يُبْتَلَى بِالْعِشْقِ.

وَحَيْثُ أُبْتُلِيَ بِالْعِشْقِ فَلِنَقْصِ مَحَبَّتِهِ للهِ وَحْدَهُ، وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ يُوسُفُ مُحِبًّا للهِ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لَمْ يُبْتَلَ بِذَلِكَ بَلْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وَأَمَّا امْرَأَةُ الْعَزِيزِ فَكَانَتْ مُشْرِكَةً هِيَ وَقَوْمُهَا فَلِهَذَا أُبْتُلِيَتْ بِالْعِشْقِ وَمَا يُبْتَلَى بِالْعِشْقِ أَحَدٌ إلَّا لِنَقْصِ تَوْحِيدِهِ وَإِيمَانِهِ، وَإِلَّا فَالْقَلْبُ الْمُنِيبُ إلَى اللهِ الْخَائِفُ مِنْهُ فِيهِ صَارِفَانِ يَصْرِفَانِ عَنْ الْعِشْقِ:

أَحَدُهُمَا- إنَابَتُهُ إلَى اللهِ وَمَحَبَّتُهُ لَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَلَذُّ وَأَطْيَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا تَبْقَى مَعَ مَحَبَّةِ اللهِ مَحَبَّةُ مَخْلُوقٍ تُزَاحِمُهُ.

وَالثَّانِي- خَوْفُهُ مِنْ اللهِ؛ فَإِنَّ الْخَوْفَ الْمُضَادَّ لِلْعِشْقِ يَصْرِفُهُ وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا بِعِشْقٍ أَوْ غَيْرِ عِشْقٍ فَإِنَّهُ يُصْرَفُ عَنْ مَحَبَّتِهِ بِمَحَبَّةِ مَا هُوَ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنْهُ إذَا كَانَ يُزَاحِمُهُ وَيَنْصَرِفُ عَنْ مَحَبَّتِهِ بِخَوْفِ حُصُولِ ضَرَرٍ يَكُونُ أَبْغَضَ إلَيْهِ مِنْ تَرْكِ ذَاكَ الْحُبِّ، فَإِذَا كَانَ اللهُ أَحَبَّ إلَى الْعَبْدِ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَخْوَفَ عِنْدَهُ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَحْصُلْ مَعَهُ عِشْقٌ وَلَا مُزَاحَمَةٌ إلَّا عِنْدَ غَفْلَةٍ أَوْ عِنْدَ ضَعْفِ هَذَا الْحُبِّ وَالْخَوْفِ بِتَرْكِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ

وَفِعْلِ بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ فَكُلَّمَا فَعَلَ الْعَبْدُ الطَّاعَةَ مَحَبَّةً للهِ وَخَوْفًا مِنْهُ وَتَرَكَ الْمَعْصِيَةَ حُبًّا لَهُ وَخَوْفًا مِنْهُ قَوِيَ حُبُّهُ لَهُ وَخَوْفُهُ مِنْهُ فَيُزِيلُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ وَمَخَافَةِ غَيْرِهِ. (١٠/ ١٣٦).

طريق النبوة

مَنْ بَنَى الْكَلَامَ فِي الْعِلْمِ -الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ- عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْآثَارِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ السَّابِقِينَ؛ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَنَى الْإِرَادَةَ وَالْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ وَالسَّمَاعَ الْمُتَعَلِّقَ بِأُصُولِ الْأَعْمَالِ وَفُرُوعِهَا، مِنْ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ، عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ وَالْهَدْيِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ؛ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ، وَهَذِهِ طَرِيقُ أَئِمَّةِ الْهُدَى. (١٠/ ٣٦٣).

آفة الحسد

وَمِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ: (الْحَسَدُ)، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي حَدِّهِ: إِنَّهُ أَذًى يَلْحَقُ بِسَبَبِ الْعِلْمِ بِحُسْنِ حَالِ الْأَغْنِيَاءِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاضِلُ حَسُودًا؛ لِأَنَّ الْفَاضِلَ يَجْرِي عَلَى مَا هُوَ الْجَمِيلُ، وَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ النَّاسِ: إِنَّهُ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ الْمَحْسُودِ، وَإِنْ لَمْ يَصِرْ لِلْحَاسِدِ مِثْلُهَا، بِخِلَافِ الْغِبْطَةِ؛ فَإِنَّهُ تَمَنِّي مِثْلِهَا، مِنْ غَيْرِ حُبِّ زَوَالِهَا عَنْ الْمَغْبُوطِ.

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْحَسَدَ هُوَ الْبُغْضُ وَالْكَرَاهَةُ لِمَا يَرَاهُ مِنْ حُسْنِ حَالِ الْمَحْسُودِ.

وَهُوَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا- كَرَاهَةٌ لِلنِّعْمَةِ عَلَيْهِ مُطْلَقًا، فَهَذَا هُوَ الْحَسَدُ الْمَذْمُومُ، وَإِذَا أَبْغَضَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَتَأَلَّمُ وَيَتَأَذَّى بِوُجُودِ مَا يُبْغِضُهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَرَضًا فِي قَلْبِهِ، وَيَلْتَذُّ بِزَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ نَفْعٌ بِزَوَالِهَا؛ لَكِنَّ نَفْعَهُ زَوَالُ الْأَلَمِ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ

الْأَلَمَ لَمْ يَزُلْ إِلَّا بِمُبَاشَرَةِ مِنْهُ، وَهُوَ رَاحَةٌ، وَأَشَدُّهُ كَالْمَرِيضِ الَّذِي عُولِجَ بِمَا يُسَكِّنُ وَجَعَهُ، وَالْمَرَضُ بَاقٍ؛ فَإِنَّ بُغْضَهُ لِنِعْمَةِ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ مَرَضٌ، فَإِنَّ تِلْكَ النِّعْمَةَ قَدْ تَعُودُ عَلَى الْمَحْسُودِ، وَأَعْظَمُ مِنْهَا، وَقَدْ يَحْصُلُ نَظِيرُ تِلْكَ النِّعْمَةِ لِنَظِيرِ ذَلِكَ الْمَحْسُودِ.

وَالْحَاسِدُ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ فِي شَيْءٍ مُعَيَّنٍ؛ لَكِنَّ نَفْسَهُ تَكْرَهُ مَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَى النَّوْعِ، وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ، فَإِنَّ مَنْ كَرِهَ النِّعْمَةَ عَلَى غَيْرِهِ تَمَنَّى زَوَالَهَا بِقَلْبِهِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي- أَنْ يَكْرَهَ فَضْلَ ذَلِكَ الشَّخْصِ عَلَيْهِ، فَيُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ، أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ، فَهَذَا حَسَدٌ، وَهُوَ الَّذِي سَمَّوْهُ الْغِبْطَةَ، وَقَدْ سَمَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسَدًا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ**» هَذَا لَفْظُ ابْنِ مَسْعُودٍ(١)، وَلَفْظُ ابْنِ عُمَرَ(٢): «**رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ فِي الْحَقِّ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَلَفْظُهُ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا، فَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ هَذَا، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا لَيْتَنِي أُوتِيت مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا، فَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ هَذَا**»(٣)، فَهَذَا الْحَسَدُ الَّذِي نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا فِي مَوْضِعَيْنِ، هُوَ الَّذِي سَمَّاهُ أُولَئِكَ الْغِبْطَةَ، وَهُوَ أَنْ يُحِبَّ مِثْلَ حَالِ الْغَيْرِ، وَيَكْرَهَ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣) في كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) في كتاب صلاة المسافرين.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٤) في كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨١٥) في كتاب العلم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٢٦) في كتاب فضائل القرآن.

فَإِنْ قِيلَ: إِذًا لِمَ سُمِّيَ حَسَدًا، وَإِنَّمَا أَحَبَّ أَنْ يُنْعِمَ اللهُ عَلَيْهِ؟ قِيلَ: مَبْدَأُ هَذَا الْحُبِّ هُوَ نَظَرُهُ إِلَى إِنْعَامِهِ عَلَى الْغَيْرِ، وَكَرَاهَتُهُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ، وَلَوْلَا وُجُودُ ذَلِكَ الْغَيْرِ لَمْ يُحِبَّ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ مَبْدَأُ ذَلِكَ كَرَاهَتَهُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ الْغَيْرُ؛ كَانَ حَسَدًا؛ لِأَنَّهُ كَرَاهَةٌ تَتْبَعُهَا مَحَبَّةٌ، وَأَمَّا مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْعِمَ اللهُ عَلَيْهِ مَعَ عَدَمِ الْتِفَاتِهِ إِلَى أَحْوَالِ النَّاسِ فَهَذَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ الْحَسَدِ شَيْءٌ.

وَلِهَذَا يُبْتَلَى غَالِبُ النَّاسِ بِهَذَا الْقِسْمِ الثَّانِي، وَقَدْ تُسَمَّى الْمُنَافَسَةَ، فَيَتَنَافَسُ الِاثْنَانِ فِي الْأَمْرِ الْمَحْبُوبِ الْمَطْلُوبِ، كِلَاهُمَا يَطْلُبُ أَنْ يَأْخُذَهُ، وَذَلِكَ لِكَرَاهِيَةِ أَحَدِهِمَا أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ الْآخَرُ، كَمَا يَكْرَهُ الْمُسْتَبِقَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا أَنْ يَسْبِقَهُ الْآخَرُ، وَالتَّنَافُسُ لَيْسَ مَذْمُومًا مُطْلَقًا، بَلْ هُوَ مَحْمُودٌ فِي الْخَيْرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٦]، فَأَمَرَ الْمُنَافِسَ أَنْ يُنَافِسَ فِي هَذَا النَّعِيمِ، لَا يُنَافِسُ فِي نَعِيمِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِحَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ نَهَى عَنْ الْحَسَدِ، إِلَّا فِيمَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ، وَمَنْ أُوتِيَ الْمَالَ فَهُوَ يُنْفِقُهُ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ عِلْمًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ وَلَمْ يُعَلِّمْهُ، أَوْ أُوتِيَ مَالًا وَلَمْ يُنْفِقْهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، فَهَذَا لَا يَحْسُدُ وَلَا يُتَمَنَّى مِثْلُ حَالِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي خَيْرٍ يَرْغَبُ فِيهِ، بَلْ هُوَ مُعَرَّضٌ لِلْعَذَابِ، وَمَنْ وُلِّيَ وِلَايَةً فَيَأْتِيهَا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ أَدَّى الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَحَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهَذَا دَرَجَتُهُ عَظِيمَةٌ؛ لَكِنَّ هَذَا فِي جِهَادٍ عَظِيمٍ، كَذَلِكَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَالنُّفُوسُ لَا تَحْسُدُ مَنْ هُوَ فِي تَعَبٍ عَظِيمٍ، فَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ، وَإِنْ كَانَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلَ مِنْ الَّذِي يُنْفِقُ الْمَالَ؛ بِخِلَافِ الْمُنْفِقِ وَالْمُعَلِّمِ، فَإِنَّ هَذَيْنِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْعَادَةِ عَدُوٌّ مِنْ خَارِجٍ، فَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُمَا لَهُمَا عَدُوٌّ يُجَاهِدَانِهِ، فَذَلِكَ أَفْضَلُ لِدَرَجَتِهِمَا،

وَكَذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُصَلِّيَ وَالصَّائِمَ وَالْحَاجَّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ لَا يَحْصُلُ مِنْهَا فِي الْعَادَةِ مِنْ نَفْعِ النَّاسِ الَّذِي يُعَظِّمُونَ بِهِ الشَّخْصَ وَيُسَوِّدُونَهُ مَا يَحْصُلُ بِالتَّعْلِيمِ وَالْإِنْفَاقِ.

وَالْحَسَدُ فِي الْأَصْلِ إنَّمَا يَقَعُ لِمَا يَحْصُلُ لِلْغَيْرِ مِنْ السُّؤْدَدِ وَالرِّيَاسَةِ، وَإِلَّا فَالْعَامِلُ لَا يُحْسَدُ فِي الْعَادَةِ، وَلَوْ كَانَ تَنَعُّمُهُ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنِّكَاحِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، بِخِلَافِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ، فَإِنَّهُمَا يُحْسَدَانِ كَثِيرًا، وَلِهَذَا يُوجَدُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ مِنْ الْحَسَدِ مَا لَا يُوجَدُ فِيمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَكَذَلِكَ فِيمَنْ لَهُ أَتْبَاعٌ بِسَبَبِ إنْفَاقِ مَالِهِ، فَهَذَا يَنْفَعُ النَّاسَ بِقُوتِ الْقُلُوبِ، وَهَذَا يَنْفَعُهُمْ بِقُوتِ الْأَبْدَانِ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إلَى مَا يُصْلِحُهُمْ مِنْ هَذَا وَهَذَا. (١٠/ ١١١).

صبر الكرام

أُبْتُلِيَ يُوسُفُ بِحَسَدِ إخْوَتِهِ لَهُ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٨]، فَحَسَدُوهُمَا عَلَى تَفْضِيلِ الْأَبِ لَهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥]، ثُمَّ إنَّهُمْ ظَلَمُوهُ بِتَكَلُّمِهِمْ فِي قَتْلِهِ وَإِلْقَائِهِ فِي الْجُبِّ وَبَيْعِهِ رَقِيقًا لِمَنْ ذَهَبَ بِهِ إلَى بِلَادِ الْكُفْرِ، فَصَارَ مَمْلُوكًا لِقَوْمٍ كُفَّارٍ.

ثُمَّ إنَّ يُوسُفَ أُبْتُلِيَ بَعْدَ أَنْ ظُلِمَ بِمَنْ يَدْعُوهُ إلَى الْفَاحِشَةِ، وَيُرَاوِدُ عَلَيْهَا، وَيَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِمَنْ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَاسْتَعْصَمَ وَاخْتَارَ السَّجْنَ عَلَى الْفَاحِشَةِ، وَآثَرَ عَذَابَ الدُّنْيَا عَلَى سَخَطِ اللَّهِ، فَكَانَ مَظْلُومًا مِنْ جِهَةِ مَنْ أَحَبَّهُ لِهَوَاهُ وَغَرَضِهِ الْفَاسِدِ، فَهَذِهِ الْمُحِبَّةُ أَحَبَّتْهُ لِهَوَى مَحْبُوبِهَا، شِفَاؤُهَا وَشِفَاؤُهُ إنْ وَافَقَهَا، وَأُولَئِكَ الْمُبْغِضُونَ أَبْغَضُوهُ بِغْضَةً أَوْجَبَتْ أَنْ يَصِيرَ مُلْقًى فِي الْجُبِّ، ثُمَّ أَسِيرًا مَمْلُوكًا بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، فَأُولَئِكَ أَخْرَجُوهُ مِنْ

إِطْلَاقِ الْحُرِّيَّةِ إِلَى رِقِّ الْعُبُودِيَّةِ الْبَاطِلَةِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَهَذِهِ أَلْجَأَتْهُ إِلَى أَنْ اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوسًا مَسْجُونًا بِاخْتِيَارِهِ، فَكَانَتْ هَذِهِ أَعْظَمَ فِي مِحْنَتِهِ، وَكَانَ صَبْرُهُ هُنَا صَبْرًا اخْتِيَارِيًّا اقْتَرَنَ بِهِ التَّقْوَى، بِخِلَافِ صَبْرِهِ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ بَابِ الْمَصَائِبِ الَّتِي مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا صَبْرَ الْكِرَامِ؛ سَلَا سُلُوَّ الْبَهَائِمِ. (١٠/ ١٢٤).

الحسد بين المتشاركين

وَحَسَدُ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ لِبَعْضٍ كَثِيرٌ غَالِبٌ، لَا سِيَّمَا الْمُتَزَوِّجَات بِزَوْجٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ تَغَارُ عَلَى زَوْجِهَا لِحَظِّهَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ بِسَبَبِ الْمُشَارَكَةِ يَفُوتُ بَعْضُ حَظِّهَا.

وَهَكَذَا الْحَسَدُ يَقَعُ كَثِيرًا بَيْنَ الْمُتَشَارِكِينَ فِي رِئَاسَةٍ أَوْ مَالٍ، إِذَا أَخَذَ بَعْضُهُمْ قِسْطًا مِنْ ذَلِكَ وَفَاتَ الْآخَرَ؛ وَيَكُونُ بَيْنَ النُّظَرَاءِ لِكَرَاهَةِ أَحَدِهِمَا أَنْ يُفَضَّلَ الْآخَرُ عَلَيْهِ، كَحَسَدِ إِخْوَةِ يُوسُفَ، وكَحَسَدِ ابْنَيْ آدَمَ أَحَدُهُمَا لِأَخِيهِ، فَإِنَّهُ حَسَدَهُ لِكَوْنِ أَنَّ اللهَ تَقَبَّلَ قُرْبَانَهُ وَلَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ هَذَا؛ فَحَسَدَهُ عَلَى مَا فَضَّلَهُ اللهُ مِنْ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى - كَحَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ - وَقَتَلَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ بِهِ ثَلَاثَةٌ: الْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ، فَالْحِرْصُ مِنْ آدَمَ، وَالْكِبْرُ مِنْ إِبْلِيسَ، وَالْحَسَدُ مِنْ قَابِيلَ حَيْثُ قَتَلَ هَابِيلَ. (١٠/ ١٢٥).

العشــق

لَفْظُ (الْعِشْقِ) إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْعُرْفِ فِي مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ لِامْرَأَةٍ، أَوْ صَبِيٍّ، لَا يُسْتَعْمَلُ فِي مَحَبَّةٍ كَمَحَبَّةِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَطَنِ وَالْجَاهِ وَمَحَبَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَهُوَ مَقْرُونٌ كَثِيرًا بِالْفِعْلِ الْمُحَرَّمِ: إِمَّا بِمَحَبَّةِ امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ، أَوْ صَبِيٍّ، يَقْتَرِنُ بِهِ النَّظَرُ الْمُحَرَّمُ، وَاللَّمْسُ الْمُحَرَّمُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ الْمُحَرَّمَةِ. (١٠/ ١٣١).

من أمراض النفوس الغريبة

فَالنَّفْسُ إِذَا أَحَبَّتْ شَيْئًا سَعَتْ فِي حُصُولِهِ بِمَا يُمْكِنُ حَتَّى تَسْعَى فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ تَكُونُ كُلُّهَا مَقَامَاتٍ لِتِلْكَ الْغَايَةِ، فَمَنْ أَحَبَّ مَحَبَّةً مَذْمُومَةً، أَوْ أَبْغَضَ بُغْضًا مَذْمُومًا، وَفَعَلَ ذَلِكَ كَانَ آثِمًا، مِثْلَ أَنْ يُبْغِضَ شَخْصًا لِحَسَدِهِ لَهُ، فَيُؤْذِي مَنْ لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ، إِمَّا بِمَنْعِ حُقُوقِهِمْ، أَوْ بِعُدْوَانٍ عَلَيْهِمْ. أَوْ لِمَحَبَّةٍ لَهُ لِهَوَاهُ مَعَهُ، فَيَفْعَلُ لِأَجْلِهِ مَا هُوَ مُحَرَّمٌ، أَوْ مَا هُوَ مَأْمُورٌ بِهِ للهِ، فَيَفْعَلُهُ لِأَجْلِ هَوَاهُ، لَا للهِ، وَهَذِهِ أَمْرَاضٌ كَثِيرَةٌ فِي النُّفُوسِ، وَالْإِنْسَانُ قَدْ يُبْغِضُ شَيْئًا فَيُبْغِضُ لِأَجْلِهِ أُمُورًا كَثِيرَةً، بِمُجَرَّدِ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ. وَكَذَلِكَ يُحِبُّ شَيْئًا فَيُحِبُّ لِأَجْلِهِ أُمُورًا كَثِيرَةً؛ لِأَجْلِ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ، كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

أُحِبُّ لِحُبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى ... أُحِبُّ لِحُبِّهَا سُودَ الْكِلَابِ

فَقَدْ أَحَبَّ سَوْدَاءَ؛ فَأَحَبَّ جِنْسَ السَّوَادِ حَتَّى فِي الْكِلَابِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَرَضٌ فِي الْقَلْبِ، فِي تَصَوُّرِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعَافِيَ قُلُوبَنَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ؛ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْأَدْوَاءِ. (١٠/ ١٣٤).

اللذة العالية

وَلَذَّةُ الْقَلْبِ وَأَلَمُهُ أَعْظَمُ مِنْ لَذَّةِ الْجِسْمِ وَأَلَمِهِ، أَعْنِي أَلَمَهُ وَلَذَّتَهُ النَّفْسانِيّتين، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ مِنْ جِنْسِ مَا يَحْصُلُ فِي سَائِرِ الْبَدَنِ، بِسَبَبِ مَرَضِ الْجِسْمِ، فَذَلِكَ شَيْءٌ آخَرُ، فَلِذَلِكَ كَانَ مَرَضُ الْقَلْبِ وَشِفَاؤُهُ أَعْظَمَ مِنْ مَرَضِ الْجِسْمِ وَشِفَائِهِ، فَتَارَةً يَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الشُّبُهَاتِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، وَكَمَا صَنَّفَ الخرائطي كِتَابَ (اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ بِالْأَهْوَاءِ)[1].

---

(١) كتاب «اعتلال القلوب» للإمام أبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي. طبع أكثر من طبعة، منها: طبعة دار الفاروق ـ القاهرة، وعليها تعليقات نافعة، وهو كتاب يعالج أمراض القلوب، وعلى رأسها العشق =

فَفِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ الْمَرَضُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ: مِنْ جِهَةِ فَسَادِ الِاعْتِقَادَاتِ، وَفَسَادِ الْإِرَادَاتِ.

وَالْمَظْلُومُ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، وَهُوَ الْأَلَمُ الْحَاصِلُ بِسَبَبِ ظُلْمِ الْغَيْرِ لَهُ، فَإِذَا اسْتَوْفَى حَقَّهُ اشْتَفَى قَلْبُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤-١٥]، فَإِنَّ غَيْظَ الْقَلْبِ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ الْأَذَى وَالْأَلَمِ عَنْهُ، فَإِذَا انْدَفَعَ عَنْهُ الْأَذَى، وَاسْتَوْفَى حَقَّهُ؛ زَالَ غَيْظُهُ، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَارَ لَا يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ وَلَا يُبْصِرُ بِعَيْنِهِ وَلَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، كَانَ ذَلِكَ مَرَضًا مُؤْلِمًا لَهُ؛ يَفُوتُهُ مِنْ الْمَصَالِحِ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنْ الْمَضَارِّ، فَكَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يُبْصِرْ وَلَمْ يَعْلَمْ بِقَلْبِهِ الْحَقَّ مِنْ الْبَاطِلِ، وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ أَمْرَاضِ قَلْبِهِ وَأَلَمِهِ؛ وَكَمَا أَنَّهُ إِذَا اشْتَهَى مَا يَضُرُّهُ مِثْلَ الطَّعَامِ الْكَثِيرِ فِي الشَّهْوَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَمِثْلَ أَكْلِ الطِّينِ وَنَحْوِهِ، كَانَ ذَلِكَ مَرَضًا؛ فَإِنَّهُ يَتَأَلَّمُ حَتَّى يَزُولَ أَلَمُهُ بِهَذَا الْأَكْلِ الَّذِي يُوجِدُ أَلَمًا أَكْثَرَ مِنْ الْأَوَّلِ؛ فَهُوَ يَتَأَلَّمُ إِنْ أَكَلَ؛ وَيَتَأَلَّمُ إِنْ لَمْ يَأْكُلْ. فَكَذَلِكَ إِذَا بُلِيَ بِحُبِّ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْعِشْقُ وَنَحْوِهِ، سَوَاءٌ كَانَ لِصُورَةٍ أَوْ لِرِئَاسَةٍ أَوْ لِمَالٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ مَحْبُوبُهُ وَمَطْلُوبُهُ فَهُوَ مُتَأَلِّمٌ وَمَرِيضٌ سَقِيمٌ؛ وَإِنْ حَصَلَ مَحْبُوبُهُ فَهُوَ أَشَدُّ مَرَضًا وَأَلَمًا وَسَقَمًا؛ وَلِذَلِكَ كَمَا أَنَّ الْمَرِيضَ إِذَا كَانَ يُبْغِضُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَانَ ذَلِكَ الْأَلَمُ حَاصِلًا، وَكَانَ دَوَامُهُ عَلَى ذَلِكَ يُوجِبُ مِنْ الْأَلَمِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَقْتُلَهُ؛ حَتَّى يَزُولَ مَا يُوجِبُ بُغْضَهُ لِمَا يَنْفَعُهُ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ مُتَأَلِّمٌ فِي الْحَالِ، وَتَأَلُّمُهُ فِيمَا بَعْدُ إِنْ لَمْ يُعَافِهِ اللهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ.

=والحب المحرم، بإيراد نصوص زاخرة من الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية المسندة الصحيحة والضعيفة، وأقوال الصحابة والتابعين وعقلاء العرب، مستشهدًا بالأمثال والأشعار والأقوال المأثورة.

فَبُغْضُ الْحَاسِدِ لِنِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْمَحْسُودِ كَبُغْضِ الْمَرِيضِ لِأَكْلِ الْأَصِحَّاءِ لِأَطْعِمَتِهِمْ وَأَشْرِبَتِهِمْ، حَتَّى لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُمْ يَأْكُلُونَ؛ وَنَفْرَتُهُ عَنْ أَنْ يَقُومَ بِحَقِّهِ كَنَفْرَةِ الْمَرِيضِ عَمَّا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ؛ فَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ الْخَارِجُ عَنْ الِاعْتِدَالِ وَالصِّحَّةِ فِي النَّفْسِ كَالشَّهْوَةِ وَالنَّفْرَةِ الْخَارِجِ عَنْ الِاعْتِدَالِ وَالصِّحَّةِ فِي الْجِسْمِ.

وَعَمَى الْقَلْبِ وَبُكْمُهُ أَنْ يُبْصِرَ الْحَقَائِقَ وَيُمَيِّزَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ كَعَمَى الْجِسْمِ وَخَرَسِهِ عَنْ أَنْ يُبْصِرَ الْأُمُورَ الْمُرَتَّبَةَ، وَيَتَكَلَّمَ بِهَا، وَيُمَيِّزَ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ.

وَكَمَا أَنَّ الضَّرِيرَ إذَا أَبْصَرَ وَجَدَ أَنَّ الرَّاحَةَ وَالْعَافِيَةَ وَالسُّرُورَ أَمْرًا عَظِيمًا، فَبَصَرُ الْقَلْبِ وَرُؤْيَتُهُ الْحَقَائِقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَصَرِ الرَّأْسِ مِنْ التَّفَاوُتِ مَا لَا يُحْصِيهِ إلَّا اللهُ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ هُنَا تَشْبِيهُ أَحَدِ الْمَرَضَيْنِ بِالْآخَرِ، فَطِبُّ الْأَدْيَانِ يَحْتَذِي حَذْوَ طِبِّ الْأَبْدَانِ. (١٠/ ١٤٠).

الحمية والتقوى

وَ(التَّقْوَى) هِيَ الِاحْتِمَاءُ عَمَّا يَضُرُّهُ بِفِعْلِ مَا يَنْفَعُهُ؛ فَإِنَّ الِاحْتِمَاءَ عَنْ الضَّارِّ يَسْتَلْزِمُ اسْتِعْمَالَ النَّافِعِ، وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ النَّافِعِ فَقَدْ يَكُونُ مَعَهُ أَيْضًا اسْتِعْمَالُ لِضَارِّ، فَلَا يَكُونُ صَاحِبُهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ.

وَأَمَّا تَرْكُ اسْتِعْمَالِ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ فَهَذَا لَا يَكُونُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إذَا عَجَزَ عَنْ تَنَاوُلِ الْغِذَاءِ كَانَ مُغْتَذِيًا بِمَا مَعَهُ مِنْ الْمَوَادِّ الَّتِي تَضُرُّهُ، حَتَّى يَهْلَكَ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى وَلِلْمُتَّقِينَ؛ لِأَنَّهُمْ الْمُحْتَمُونَ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، فَعَاقِبَتُهُمْ الْإِسْلَامُ وَالْكَرَامَةُ، وَإِنْ وَجَدُوا أَلَمًا فِي الِابْتِدَاءِ لِتَنَاوُلِ الدَّوَاءِ وَالِاحْتِمَاءِ، كَفِعْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمَكْرُوهَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]. (١٠/ ١٤٤).

العلوم والحياة

قَالَ يَحْيَى بْنُ عَمَّارٍ: الْعُلُومُ خَمْسَةٌ:

١- فَعِلْمٌ هُوَ حَيَاةُ الدُّنْيَا، وَهُوَ عِلْمُ التَّوْحِيدِ.

٢- وَعِلْمٌ هُوَ غِذَاءُ الدِّينِ؛ وَهُوَ عِلْمُ التَّذَكُّرِ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ.

٣- وَعِلْمٌ هُوَ دَوَاءُ الدِّينِ؛ وَهُوَ عِلْمُ الْفَتْوَى؛ إِذَا نَزَلَ بِالْعَبْدِ نَازِلَةٌ احْتَاجَ إِلَى مَنْ يَشْفِيهِ مِنْهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ.

٤- وَعِلْمٌ هُوَ دَاءُ الدِّينِ، وَهُوَ الْكَلَامُ الْمُحْدَثُ.

٥- وَعِلْمٌ هُوَ هَلَاكُ الدِّينِ، وَهُوَ عِلْمُ السِّحْرِ وَنَحْوِهِ. (١٠/ ١٤٦).

فائدة: العبادة

الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ؛ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ؛ كالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ؛ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادِ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءِ، وَالذِّكْرِ، وَالْقِرَاءَةِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَخَشْيَةُ اللهِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ؛ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ، وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ- هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ لله.

وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ للهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ، وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ، الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وَكَذَلِكَ

قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]. (١٠/ ١٤٩).

الأهواء تعصف بأهلها

قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ؟ فَقَالَ: أَنَسِيتَ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة:٩٣]، أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنْ الْكَلَامِ، فَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، وَقَالَ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠]، وَقَالَ: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم:٢٣]، وَلِهَذَا يَمِيلُ هَؤُلَاءِ إلَى سَمَاعِ الشِّعْرِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُهَيِّجُ الْمَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، بَلْ يَشْتَرِكُ فِيهَا مُحِبُّ الرَّحْمَنِ وَمُحِبُّ الْأَوْثَانِ، وَمُحِبُّ الصُّلْبَانِ، وَمُحِبُّ الْأَوْطَانِ، وَمُحِبُّ الْإِخْوَانِ، وَمُحِبُّ المردان، وَمُحِبُّ النِّسْوَانِ.

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَذْوَاقَهُمْ وَمَوَاجِيدَهُمْ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ.

فَالْمُخَالِفُ لِمَا بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ؛ مِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ لَا يَكُونُ مُتَّبِعًا لِدِينِ شَرَعَهُ اللهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية:١٧-١٨]، بَلْ يَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١]، وَهُمْ فِي ذَلِكَ تَارَةً يَكُونُونَ عَلَى بِدْعَةٍ يُسَمُّونَهَا حَقِيقَةً، يُقَدِّمُونَهَا عَلَى مَا شَرَعَهُ اللهُ، وَتَارَةً يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ عَلَى الشَّرِيعَةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ. (١٠/ ١٧٠).

زينة الأخلاق

وَاللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ (الْهَجْرَ الْجَمِيلَ)، و(الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)، و(الصَّبْرَ الْجَمِيلَ)، وَقَدْ قِيلَ: إنَّ (الْهَجْرَ الْجَمِيلَ) هُوَ هَجْرٌ بِلَا أَذًى، وَ(الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) صَفْحٌ بِلَا مُعَاتَبَةٍ، وَ(الصَّبْرَ الْجَمِيلَ) صَبْرٌ بِغَيْرِ شَكْوَى إلَى الْمَخْلُوقِ؛ وَلِهَذَا قُرِئَ عَلَى أَحْمَد ابْنِ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِهِ أَنَّ طاوسًا[1] كَانَ يَكْرَهُ أَنِينَ الْمَرِيضِ، وَيَقُولُ: إنَّهُ شَكْوَى. فَمَا أَنَّ أَحْمَدُ حَتَّى مَاتَ.

وَأَمَّا الشَّكْوَى إلَى الْخَالِقِ فَلَا تُنَافِي الصَّبْرَ الْجَمِيلَ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف:١٨]، وَقَالَ: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٦]، وَكَانَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ بِسُورَةِ (يُونُسَ) و(يُوسُفَ) و(النَّحْلِ)، فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي قِرَاءَتِهِ فَبَكَى، حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ مِنْ آخِرِ الصُّفُوفِ[2]. (١٠/ ١٨٣).

---

(١) هو الإمام طاوس بن كيسان، وطاوس يكنى أبا عبدالرحمن، أحد أعلام التابعين وساداتها دينًا، وورعًا، وفضلًا، وعلمًا، ويقال طاوس بن أبي حنيفة، مولى يحيى بن ريسان الحميري اليماني.

(٢) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الأذان، (٧٠) باب: إذا بكى الإمام في الصلاة، عن عبد الله بن شداد بصيغة الجزم، ووصله سعيد بن منصور في «السنن»، والبيهقي في «شعب الإيمان» انظر فتح الباري (٢/ ٢٠٦) و«تغليق التعليق» (٢/ ٣٠٠) للحافظ ابن حجر.

عقوبات عشق الصور

فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»(١). وَهَذَا لَعَمْرِي إِذَا كَانَ قَدْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُبَاحَةٌ، فَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُحَرَّمَةٌ -امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا- فَهَذَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يَدَانِ فِيهِ.

وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَذَابًا، وَأَقَلِّهِمْ ثَوَابًا، فَإِنَّ الْعَاشِقَ لِصُورَةٍ إِذَا بَقِيَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِهَا مُسْتَعْبَدًا لَهَا؛ اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ، وَلَوْ سَلِمَ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى، فَدَوَامُ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهَا بِلَا فِعْلِ الْفَاحِشَةِ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِ مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ وَيَزُولُ أَثَرُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَهَؤُلَاءِ يُشَبَّهُونَ بِالسُّكَارَى وَالْمَجَانِينِ، كَمَا قِيلَ:

سَكْرَانُ: سُكْرَ هَوًى وَسُكْرَ مُدَامَةٍ ... وَمَتَى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ

وَقِيلَ:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذَا الْبَلَاءِ إِعْرَاضُ الْقَلْبِ عَنْ اللهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ؛ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَلَذُّ وَلَا أَطْيَبُ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا بِمَحْبُوبٍ آخَرَ يَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ، أَوْ خَوْفًا مِنْ مَكْرُوهٍ، فَالْحُبُّ الْفَاسِدُ إِنَّمَا يَنْصَرِفُ الْقَلْبُ عَنْهُ بِالْحُبِّ الصَّالِحِ؛ أَوْ بِالْخَوْفِ مِنَ الضَّرَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) في كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥١) في كتاب الزكاة، عن أبي هريرة.

قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فَاللَّهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ؛ مِنْ الْمَيْلِ إِلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ بِإِخْلَاصِهِ لله.

وَلِهَذَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَذُوقَ حَلَاوَةَ الْعُبُودِيَّةِ للهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى اتِّبَاعِ هَوَاهَا، فَإِذَا ذَاقَ طَعْمَ الْإِخْلَاصِ، وَقَوِيَ فِي قَلْبِهِ؛ انْقَهَرَ لَهُ هَوَاهُ بِلَا عِلَاجٍ. (١٠/ ١٨٧).

الصلاة نور

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا دَفْعٌ لِلْمَكْرُوهِ، وَهُوَ الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ، وَفِيهَا تَحْصِيلُ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ ذِكْرُ الله، وَحُصُولُ هَذَا الْمَحْبُوبِ أَكْبَرُ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ، فَإِنَّ ذِكْرَ الله عِبَادَةٌ لله، وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ لله مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا.

وَأَمَّا انْدِفَاعُ الشَّرِّ عَنْهُ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ. (١٠/ ١٨٨).

الذوق الشرعي

إِنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ حَلَاوَةَ عُبُودِيَّتِهِ للهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ؛ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ، وَبِذَلِكَ يصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ لله السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فَإِنَّ الْمُخْلِصَ لله ذَاقَ مِنْ حَلَاوَةِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ عُبُودِيَّتِهِ لِغَيْرِهِ، وَمِنْ حَلَاوَةِ مَحَبَّتِهِ للهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ؛ إِذْ لَيْسَ عِنْدَ الْقَلْبِ لَا أَحْلَى وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَطْيَبَ وَلَا أَلْيَنَ وَلَا أَنْعَمَ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمِّنِ عُبُودِيَّتَهُ للهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ، وَإِخْلَاصَهُ الدِّينَ لَهُ. (١٠/ ٢١٥).

أهواء وأذكار

(يا هو يا هو)

وَالذِّكْرُ بِالِاسْمِ الْمُضْمَرِ الْمُفْرَدِ أَبْعَدُ عَنْ السُّنَّةِ، وَأَدْخَلُ فِي الْبِدْعَةِ، وَأَقْرَبُ إلَى إضْلَالِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: يَا هُوَ يَا هُوَ. أَوْ: هُوَ هُوَ. وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ لَمْ يَكُنْ الضَّمِيرُ عَائِدًا إلَّا إلَى مَا يُصَوِّرُهُ قَلْبُهُ، وَالْقَلْبُ قَدْ يَهْتَدِي وَقَدْ يَضِلُّ، وَقَدْ صَنَّفَ صَاحِبُ (الْفُصُوصِ) كِتَابًا سَمَّاهُ (كِتَابَ الهو)[1]، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]. مَعْنَاهُ: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هَذَا الِاسْمِ الَّذِي هُوَ (الهو). وَقِيلَ هَذَا، وَإِنْ كَانَ مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ، بَلْ الْعُقَلَاءُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَبْيَنِ الْبَاطِلِ، فَقَدْ يَظُنُّ ذَلِكَ مَنْ يَظُنُّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ، حَتَّى قُلْتُ مَرَّةً لِبَعْضِ مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ: لَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قُلْتَهُ لَكَتَبْتُ (وَمَا يَعْلَمُ) تَأْوِيلَ (هُوَ)، مُنْفَصِلَةً. ثُمَّ كَثِيرًا مَا يَذْكُرُ بَعْضُ الشُّيُوخِ أَنَّهُ يَحْتَجُّ عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِ: (اللهُ) بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، وَيَظُنُّ أَنَّ اللهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَقُولَ الِاسْمَ الْمُفْرَدَ، وَهَذَا غَلَطٌ، بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، مَعْنَاهُ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَهُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩١]، أَيْ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى. رَدَّ بِذَلِكَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. فَقَالَ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١]، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أَنْزَلَهُ، ثُمَّ ذَرْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، وَمِمَّا يُبَيِّنُ مَا تَقَدَّمَ: مَا ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ أَنَّ الْعَرَبَ يَحْكُونَ بِالْقَوْلِ مَا كَانَ كَلَامًا، لَا يَحْكُونَ بِهِ مَا كَانَ قَوْلًا، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ إلَّا كَلَامٌ تَامٌّ، أَوْ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ، أَوْ فِعْلِيَّةٌ، وَلِهَذَا يَكْسِرُونَ إنَّ إذَا جَاءَتْ بَعْدَ الْقَوْلِ، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ اسْمٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا

(١) ابن عربي تقدمت ترجمته صفحة [٣٧].

يَأْمُرُ أَحَدًا بِذِكْرِ اسْمٍ مُفْرَدٍ، وَلَا شَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ اسْمًا مُفْرَدًا مُجَرَّدًا، وَالِاسْمُ الْمُجَرَّدُ لَا يُفِيدُ الْإِيمَانَ، بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمُخَاطَبَاتِ، وَنَظِيرُ مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى الِاسْمِ الْمُفْرَدِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ مَرَّ بِمُؤَذِّنٍ يَقُولُ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ». بِالنَّصْبِ، فَقَالَ: مَاذَا يَقُولُ هَذَا؟ هَذَا الِاسْمُ فَأَيْنَ الْخَبَرُ عَنْهُ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ؟ (١٠/ ٢٢٧).

أدب الدعاء

وَقَدْ سُئِلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ قَوْلِهِ: «**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[1]. فَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ، وَأَنْشَدَ قَوْلَ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ؛ يَمْدَحُ ابْنَ جدعان:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

قَالَ: فَهَذَا مَخْلُوقٌ يُخَاطِبُ مَخْلُوقًا، فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ تَعَالَى؟!

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الدُّعَاءُ الْمَأْثُورُ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ، وَعَلَيْكَ التكلان». فَهَذَا خَبَرٌ يَتَضَمَّنُ السُّؤَالَ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، فَوَصَفَ نَفْسَهُ، وَوَصَفَ رَبَّهُ بِوَصْفٍ يَتَضَمَّنُ سُؤَالَ رَحْمَتِهِ، بِكَشْفِ ضُرِّهِ، وَهِيَ صِيغَةُ خَبَرٍ تَضَمَّنَتْ السُّؤَالَ، وَهَذَا مِنْ بَابِ حُسْنِ الْأَدَبِ فِي السُّؤَالِ وَالدُّعَاءِ،

---

(١) حسن. أخرجه مالك (١/ ٢١٤و٤٢٢) عن طلحة بن عبيد بن كريز مرسلا، وحسنه الألباني لشواهده، كما في «الصحيحة» (١٥٠٣).

فَقَوْلُ الْقَائِلِ لِمَنْ يُعَظِّمُهُ وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ: أَنَا جَائِعٌ، أَنَا مَرِيضٌ. حُسْنُ أَدَبٍ فِي السُّؤَالِ. وَإِنْ كَانَ فِي قَوْلِهِ: أَطْعِمْنِي، وَدَاوِنِي. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ بِصِيغَةِ الطَّلَبِ طَلَبٌ جَازِمٌ مِنْ الْمَسْئُولِ، فَذَاكَ فِيهِ إظْهَارُ حَالِهِ، وَإِخْبَارُهُ عَلَى وَجْهِ الذُّلِّ وَالِافْتِقَارِ الْمُتَضَمِّنِ لِسُؤَالِ الْحَالِ، وَهَذَا فِيهِ الرَّغْبَةُ التَّامَّةُ وَالسُّؤَالُ الْمَحْضُ بِصِيغَةِ الطَّلَبِ. (١٠/ ٢٤٥).

الاستغناء والاستعفاف

[في الحديث]: «**مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(١).

و(الِاسْتِغْنَاءُ) أَلَّا يَرْجُوَ بِقَلْبِهِ أَحَدًا فَيَتَشَرَّفَ إلَيْهِ، و(الِاسْتِعْفَافُ) أَلَّا يَسْأَلَ بِلِسَانِهِ أَحَدًا. (١٠/ ٢٥٩).

هم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَيُوسُفُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَمَّ هَمًّا تَرَكَهُ لله، وَلِذَلِكَ صَرَفَ اللهُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ؛ لِإِخْلَاصِهِ، وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ إذَا قَامَ الْمُقْتَضِي لِلذَّنْبِ، وَهُوَ الْهَمُّ، وَعَارَضَهُ الْإِخْلَاصُ الْمُوجِبُ لِانْصِرَافِ الْقَلْبِ عَنْ الذَّنْبِ لله، فَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ إلَّا حَسَنَةٌ يُثَابُ عَلَيْهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]. وَأَمَّا مَا يُنْقَلُ: مِنْ أَنَّهُ حَلَّ سَرَاوِيلَهُ، وَجَلَسَ مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنْ الْمَرْأَةِ، وَأَنَّهُ رَأَى صُورَةَ يَعْقُوبَ عَاضًّا عَلَى يَدِهِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَكُلُّهُ مِمَّا لَمْ يُخْبِرْ اللهُ بِهِ، وَلَا رَسُولُهُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مَأْخُوذٌ عَنْ الْيَهُودِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٠) في كتاب الرقاق، باب: الصبر عن محارم الله عن أبي سعيد الخدري، وطرفه: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله...».

أَعْظَمِ النَّاسِ كَذِبًا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْحًا فِيهِمْ، وَكُلُّ مَنْ نَقَلَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَعَنْهُمْ نَقَلَهُ؛ لَمْ يَنْقُلْ مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرْفًا وَاحِدًا. (١٠/ ٢٩٧).

الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين

وقول من قَالَ مِنْ الْعُلَمَاءِ: الِاسْتِغْفَارُ مَعَ الْإِصْرَارِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، فَهَذَا إذَا كَانَ الْمُسْتَغْفِرُ يَقُولُهُ عَلَى وَجْهِ التَّوْبَةِ، أَوْ يَدَّعِي أَنَّ اسْتِغْفَارَهُ تَوْبَةٌ، وَأَنَّهُ تَائِبٌ بِهَذَا الِاسْتِغْفَارِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مَعَ الْإِصْرَارِ لَا يَكُونُ تَائِبًا، فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَالْإِصْرَارَ ضِدَّانِ: الْإِصْرَارُ يُضَادُّ التَّوْبَةَ، لَكِنْ لَا يُضَادُّ الِاسْتِغْفَارَ بِدُونِ التَّوْبَةِ. (١٠/ ٣١٩).

لذة المناجاة

قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ: إنَّهُ لَيَكُونُ لِي إلَى الله حَاجَةٌ فَأَدْعُوهُ فَيُفْتَحُ لِي مِنْ لَذِيذِ مَعْرِفَتِهِ وَحَلَاوَةِ مُنَاجَاتِهِ مَا لَا أُحِبُّ مَعَهُ أَنْ يُعَجِّلَ قَضَاءَ حَاجَتِي، خَشْيَةَ أَنْ تَنْصَرِفَ نَفْسِي عَنْ ذَلِكَ. (١٠/ ٣٣٣).

الناس أربعة أصناف في محبة الله

الْأَصْلُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَعْتَصِمَ بِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُرِيدًا مُحِبًّا لِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، كَارِهًا مُبْغِضًا لِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِكَرَاهَتِهِ وَبُغْضِهِ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ (أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ):

١- أَكْمَلُهُمْ: الَّذِينَ يُحِبُّونَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُبْغِضُونَ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَيُرِيدُونَ مَا أَمَرَهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ بِإِرَادَتِهِ، وَيَكْرَهُونَ مَا أَمَرَهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ بِكَرَاهَتِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ حُبّ وَلَا بُغْضٌ لِغَيْرِ ذَلِكَ.

٢- عَكْسُ هَذَا: وَهُوَ أَنَّهُمْ يَتْبَعُونَ هَوَاهُمْ، لَا أَمْرَ اللهِ؛ فَهَؤُلَاءِ لَا يَفْعَلُونَ وَلَا يَأْمُرُونَ إلَّا بِمَا يُحِبُّونَهُ بِهَوَاهُمْ، وَلَا يَتْرُكُونَ وَيَنْهَوْنَ إلَّا عَمَّا يَكْرَهُونَهُ بِهَوَاهُمْ، وَهَؤُلَاءِ

شَرُّ الْخَلْقِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]، قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الْمُنَافِقُ لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْحَقَّ إِذَا وَافَقَ هَوَاهُ، وَيُخَالِفُهُ إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ، فَإِذَا أَنْتَ لَا تُثَابُ عَلَى مَا اتَّبَعْته مِنْ الْحَقِّ، وَتُعَاقَبُ عَلَى مَا خَالَفْته. وَهُوَ كَمَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ إنَّمَا قَصَدَ اتِّبَاعَ هَوَاهُ، لَمْ يَعْمَلْ لله.

٣- الَّذِي يُرِيدُ تَارَةً إرَادَةً يُحِبُّهَا اللهُ؛ وَتَارَةً إرَادَةً يُبْغِضُهَا اللهُ، وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ يُطِيعُونَ اللهَ تَارَةً وَيُرِيدُونَ مَا أَحَبَّهُ، وَيَعْصُونَهُ تَارَةً وَيُرِيدُونَ مَا يَهْوُونَهُ، وَإِنْ كَانَ يَكْرَهُهُ.

٤- أَنْ يَخْلُوَ عَنْ الْإِرَادَتَيْنِ، فَلَا يُرِيدُ للهِ وَلَا لِهَوَاهُ، وَهَذَا يَقَعُ لِكَثِيرِ مِنْ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ، وَيَقَعُ لِكَثِيرِ مِنْ الزُّهَّادِ وَالنُّسَّاكِ فِي كَثِيرِ مِنْ الْأُمُورِ. (١٠/ ٤٧٩ بتصرف).

كتاب إحياء علوم الدين في الميزان

وَأَمَّا مَا فِي (الْإِحْيَاءِ)[1] مِنْ الْكَلَامِ فِي (الْمُهْلِكَاتِ) مِثْلُ الْكَلَامِ عَلَى الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَغَالِبُهُ مَنْقُولٌ مِنْ كَلَامِ الْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ فِي (الرِّعَايَةِ)، وَمِنْهُ مَا هُوَ مَقْبُولٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ مَرْدُودٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَنَازَعٌ فِيهِ.

---

(١) هو كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، وانظر كتاب «الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين من قبل أمير المؤمنين ابن تاشفين» للشيخ محمد المغراوي، والرسالة النافعة «وقفات مع كتاب إحياء علوم الدين للغزالي» اختصار سعد بن عبدالرحمن الحصين. دار الإمام أحمد.

و(الْإِحْيَاءُ) فِيهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ؛ لَكِنْ فِيهِ مَوَادُّ مَذْمُومَةٌ، فَإِنَّهُ فِيهِ مَوَادُّ فَاسِدَةٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَاسِفَةِ؛ تَتَعَلَّقُ بِالتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، فَإِذَا ذَكَرَ مَعَارِفَ الصُّوفِيَّةِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَخَذَ عَدُوًّا لِلْمُسْلِمِينَ أَلْبَسَهُ ثِيَابَ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ أَنْكَرَ أَئِمَّةُ الدِّينِ عَلَى (أَبِي حَامِدٍ) هَذَا فِي كُتُبِهِ، وَقَالُوا: مَرَّضَهُ (الشِّفَاءُ). يَعْنِي شِفَاءَ ابْنِ سِينَا فِي الْفَلْسَفَةِ.

وَفِيهِ أَحَادِيثُ وَآثَارٌ ضَعِيفَةٌ؛ بَلْ مَوْضُوعَةٌ كَثِيرَةٌ.

وَفِيهِ أَشْيَاءُ مِنْ أَغَالِيطِ الصُّوفِيَّةِ وَتُرَّهَاتِهِمْ.

وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ الْعَارِفِينَ الْمُسْتَقِيمِينَ فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الْمُوَافِقِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْأَدَبِ مَا هُوَ مُوَافِقٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِمَّا يُرَدُّ مِنْهُ، فَلِهَذَا اخْتَلَفَ فِيهِ اجْتِهَادُ النَّاسِ وَتَنَازَعُوا فِيهِ. (١٠/ ٥٥١).

الذكر المشروع

إِنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَسْتَحِبَّ مِنَ الذِّكْرِ إِلَّا مَا كَانَ كَلَامًا تَامًّا مُفِيدًا، مِثْلَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَمِثْلَ (اللهُ أَكْبَرُ)، وَمِثْلَ (سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ)، وَمِثْلَ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)، وَمِثْلَ: ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن:٧٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك:١]، ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد:١]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [الفرقان:١].

فَأَمَّا (الِاسْمُ الْمُفْرَدُ) مُظْهَرًا مِثْلَ: (اللهُ) (اللهُ)، أَوْ (مُضْمَرًا) مِثْلَ: (هُو)» (هُوَ)، فَهَذَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا هُوَ مَأْثُورٌ أَيْضًا عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَلَا عَنْ أَعْيَانِ الْأُمَّةِ الْمُقْتَدَى بِهِمْ، وَإِنَّمَا لَهِجَ بِهِ قَوْمٌ مِنْ ضُلَّالِ الْمُتَأَخِّرِينَ. (١٠/ ٥٥٦).

كلمة الحق عند المؤمن والرئيس

وَطَالِبُ الرِّئَاسَةِ -وَلَوْ بِالْبَاطِلِ- تُرْضِيهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي فِيهَا تَعْظِيمُهُ، وَإِنْ كَانَتْ بَاطِلًا، وَتُغْضِبُهُ الْكَلِمَةُ الَّتِي فِيهَا ذَمُّهُ، وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا.

وَالْمُؤْمِنُ تُرْضِيهِ كَلِمَةُ الْحَقِّ، لَهُ وَعَلَيْهِ، وَتُغْضِبُهُ كَلِمَةُ الْبَاطِلِ، لَهُ وَعَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْحَقَّ وَالصِّدْقَ وَالْعَدْلَ، وَيُبْغِضُ الْكَذِبَ وَالظُّلْمَ. (١٠/ ٦٠٠).

علاج ميل النفس إلى الحرام

فَمَنْ مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى مُحَرَّمٍ فَلْيَأْتِ بِعِبَادَةِ اللهِ كَمَا أَمَرَ اللهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَصْرِفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ. (١٠/ ٦٢٦).

بصائر وعبر

- قُوَّةُ الْإِيمَانِ أَقْوَى وَأَكْمَلُ مِنْ قُوَّةِ الْعَمَلِ. (٧/ ٣٤٢).
- إِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ كَانَ دَلِيلًا عَلَى ضَعْفِ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي قَلْبِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَحْبُوبَاتِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهَاتِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحَبَّةً صَالِحَةً أَوْ فَاسِدَةً، فَالْمُحِبُّونَ لِلْمَالِ وَالرِّئَاسَةِ وَالصُّوَرِ لَا يَنَالُونَ مَطَالِبَهُمْ إِلَّا بِضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. (١٠/ ١٩٣).
- مَنْ جَعَلَ غَيْرَ الرَّسُولِ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَإِنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَقَدْ جَعَلَهُ نِدًّا. (١٠/ ٢٦٧).
- غَايَةُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ. (١١/ ٢٩٨).
- وَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يُنَصِّبَ لِلْأُمَّةِ شَخْصًا يَدْعُو إِلَى طَرِيقَتِهِ، وَيُوَالِي وَيُعَادِي عَلَيْهَا، غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يُنَصِّبَ لَهُمْ كَلَامًا يُوَالِي عَلَيْهِ وَيُعَادِي، غَيْرَ كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ

وَمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ، بَلْ هَذَا مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ الَّذِينَ يُنَصِّبُونَ لَهُمْ شَخْصًا أَوْ كَلَامًا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، يُوَالُونَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْكَلَامِ أَوْ تِلْكَ النِّسْبَةِ، وَيُعَادُونَ. (٢٠/ ١٦٤).

❁ مِنْ أَهْلِ الْمُنْكَرِ يُحِبُّونَ مَنْ يُوَافِقُهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ؛ وَيُبْغِضُونَ مَنْ لَا يُوَافِقُهُمْ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الدِّيَانَاتِ الْفَاسِدَةِ، مِنْ مُوَالَاةِ كُلِّ قَوْمٍ لِمُوَافِقِيهِمْ؛ وَمُعَادَاتِهِمْ لِمُخَالِفِيهِمْ، وَكَذَلِكَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالشَّهَوَاتِ كَثِيرًا مَا يَخْتَارُونَ وَيُؤْثِرُونَ مَنْ يُشَارِكُهُمْ: إِمَّا لِلْمُعَاوَنَةِ عَلَى ذَلِكَ؛ كَمَا فِي الْمُتَغَلِّبِينَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاسَاتِ وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَنَحْوِهِمْ، وَإِمَّا بِالْمُوَافَقَةِ؛ كَمَا فِي الْمُجْتَمِعِينَ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ؛ فَإِنَّهُمْ يَخْتَارُونَ أَنْ يَشْرَبَ كُلُّ مَنْ حَضَرَ عِنْدَهُمْ، وَإِمَّا لِكَرَاهَتِهِمْ امْتِيَازَهُ عَنْهُمْ بِالْخَيْرِ: إِمَّا حَسَدًا لَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَعْلُوَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيُحْمَدُ دُونَهُمْ، وَإِمَّا لِئَلَّا يَكُونَ لَهُ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ، وَإِمَّا لِخَوْفِهِمْ مِنْ مُعَاقَبَتِهِ لَهُمْ بِنَفْسِهِ؛ أَوْ بِمَنْ يَرْفَعُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ؛ وَلِئَلَّا يَكُونُوا تَحْت مِنَّتِهِ وَخَطَرِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ. (٢٨/ ١٥٠).

❁ كُلُّ مَا خَرَجَ عَنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ: مِنْ نَسَبٍ أَوْ بَلَدٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ طَرِيقَةٍ: فَهُوَ مِنْ عَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. (٢٨/ ٣٢٨).

الطريق الأقوم

على الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَيْرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ، وَأَنَّ أَفْضَلَ الطُّرُقِ وَالسُّبُلِ إِلَى اللهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، وَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]،

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(١)، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ -الْمُتَّقِينَ أَوْلِيَاءِ اللهِ- قَدْ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لِلصَّحَابَةِ، فَيَتَّقِي اللهَ مَا اسْتَطَاعَ، وَيُطِيعُهُ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ خَطَأٌ، إمَّا فِي عُلُومِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَإِمَّا فِي أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَيُثَابُونَ عَلَى طَاعَتِهِمْ، وَيُغْفَرُ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ - إلَى قَوْلِهِ - ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٥-٢٨٦]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَدْ فَعَلْتُ.

فَمَنْ جَعَلَ طَرِيقَ أَحَدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ، أَوْ طَرِيقَ أَحَدٍ مِنْ الْعُبَّادِ وَالنُّسَّاكِ أَفْضَلَ مِنْ طَرِيقِ الصَّحَابَةِ؛ فَهُوَ مُخْطِئٌ، ضَالٌّ، مُبْتَدِعٌ. (١١/ ١٤).

التحزب المحمود والمذموم

مَنْ تَكَفَّلَ بِأَمْرِ طَائِفَةٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ: هُوَ زَعِيمٌ. فَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَفَّلَ بِخَيْرٍ كَانَ مَحْمُودًا عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا كَانَ مَذْمُومًا عَلَى ذَلِكَ، وَأَمَّا رَأْسُ الْحِزْبِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الطَّائِفَةِ الَّتِي تَتَحَزَّبُ، أَيْ تَصِيرُ حِزْبًا، فَإِنْ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ، لَهُمْ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ زَادُوا فِي ذَلِكَ وَنَقَصُوا؛ مِثْلَ التَّعَصُّبِ لِمَنْ دَخَلَ فِي حِزْبِهِمْ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْإِعْرَاضِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) في كتاب الاعتصام، وطرفه: «دعوني ما تركتكم..». ومسلم (١٣٣٧) في كتاب الفضائل، وطرفه: «ذروني ما تركتكم»، عن أبي هريرة.

عَمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي حِزْبِهِمْ، سَوَاءٌ كَانَ عَلَى الْحَقِّ أو الْبَاطِلِ، فَهَذَا مِنْ التَّفَرُّقِ الَّذِي ذَمَّهُ اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ أَمَرَا بِالْجَمَاعَةِ والائتلاف، وَنَهَيَا عَنْ التَّفْرِقَةِ وَالِاخْتِلَافِ، وَأَمَرَا بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَنَهَيَا عَنْ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ؛ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ، بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**»[(١)].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**». وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[(٢)]. (١١/ ٩٢).

أحاديث غير ثابتة

كُلُّ حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِدَّةِ (الْأَوْلِيَاءِ) و(الْأَبْدَالِ) و(النُّقَبَاءِ) و(النُّجَبَاءِ) و(الْأَوْتَادِ) و(الْأَقْطَابِ)، مِثْلُ أَرْبَعَةٍ أَوْ سَبْعَةٍ أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ أَوْ ثَلَاثمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَوْ الْقُطْبِ الْوَاحِدِ؛ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ صَحِيحٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَنْطِقْ السَّلَفُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ، إلَّا بِلَفْظِ (الْأَبْدَالِ)[(٣)].

وَرُوِيَ فِيهِمْ حَدِيثٌ أَنَّهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، وَأَنَّهُمْ بِالشَّامِ، وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْقَطِعٌ لَيْسَ بِثَابِتٍ. (١١/ ١٦٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٦) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) في كتاب البر والصلة، عن النعمان بن بشير.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١) في كتاب الصلاة، ومسلم (٢٥٨٥) في كتاب البر والصلة، عن أبي موسى.

(٣) قال العلامة الألباني في «الضعيفة» (١٣٩٣): واعلم أن أحاديث الأبدال كلها ضعيفة، لا يصح منها شيء، وبعضها أشد ضعفًا من بعض، وقد سبق من حديث عبادة بن الصامت برقم (٩٣٦)، وتحته حديث عوف ابن مالك، وسيأتي من حديث علي بن أبي طالب برقم (٢٩٩٣). ثم تتبعت أحاديث كثيرة من أحاديث الأبدال التي جمعها السيوطي في رسالته التي سماها «الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال»، وتكلمت على أسانيدها وكشفت عن عللها التي سكت السيوطي عنها، وذلك في آخر هذا المجلد برقم (١٤٧٤ - ١٤٧٩).

الكرامة والحاجة

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الْكَرَامَاتِ قَدْ تَكُونُ بِحَسَبِ حَاجَةِ الرَّجُلِ، فَإِذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا الضَّعِيفُ الْإِيمَانِ، أَوْ الْمُحْتَاجُ، أَتَاهُ مِنْهَا مَا يُقَوِّي إِيمَانَهُ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُ، وَيَكُونُ مَنْ هُوَ أَكْمَلُ وِلَايَةً للهِ مِنْهُ مُسْتَغْنِيًا عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يَأْتِيه مِثْلُ ذَلِكَ لِعُلُوِّ دَرَجَتِهِ وَغِنَاهُ عَنْهَا، لَا لِنَقْصِ وِلَايَتِهِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي الصَّحَابَةِ؛ بِخِلَافِ مَنْ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ الْخَوَارِقُ؛ لِهَدْيِ الْخَلْقِ، وَلِحَاجَتِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ دَرَجَةً. (١١/ ٢٨٣).

الاستقامة مطلوب الصالحين

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْجَوْزَجَانِيُّ: كُنْ طَالِبًا لِلِاسْتِقَامَةِ، لَا طَالِبًا لِلْكَرَامَةِ، فَإِنَّ نَفْسَك منجبلة عَلَى طَلَبِ الْكَرَامَةِ، وَرَبُّك يَطْلُبُ مِنْك الِاسْتِقَامَةَ.

قَالَ الشَّيْخُ السُّهْرَوَرْدِيُّ فِي (عَوَارِفِهِ)(١): وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ أَصْلٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ فِي الْبَابِ، وَسِرٌّ غَفَلَ عَنْ حَقِيقَتِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّلُوكِ وَالطُّلَّابِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ والمتعبدين سَمِعُوا عَنْ سَلَفِ الصَّالِحِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمَا مُنِحُوا بِهِ مِنْ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، فَأَبَدًا نُفُوسُهُمْ لَا تَزَالُ تَتَطَلَّعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُرْزَقُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَبْقَى مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ مُتَّهِمًا لِنَفْسِهِ فِي صِحَّةِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَمْ يُكَاشَفْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ عَلِمُوا سِرَّ ذَلِكَ لَهَانَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرُ، فَيُعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَفْتَحُ عَلَى بَعْضِ الْمُجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ ذَلِكَ بَابًا، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ أَنْ يَزْدَادَ بِمَا يَرَى مِنْ

(١) هو عمر بن محمد بن عبد الله التيمي السهروردي، الشيخ، العارف، الصوفي، شهاب الدين، ولد سنة ٥٣٩هـ وتوفي سنة ٦٣٢هـ، صنف في التصوف كتابا شرح فيه أحوال القوم سماه «عوارف المعارف». انظر ترجمته «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٧٣) و«شذرات الذهب (٥/ ١٥٣).

خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَآثَارِ الْقُدْرَةِ تَفَنُّنًا، فَيَقْوَى عَزْمُهُ عَلَى هَذَا الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالْخُرُوجِ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ عِبَادِهِ يُكَاشَفُ بِصِدْقِ الْيَقِينِ، وَيُرْفَعُ عَنْ قَلْبِهِ الْحِجَابُ، وَمَنْ كُوشِفَ بِصِدْقِ الْيَقِينِ أُغْنِيَ بِذَلِكَ عَنْ رُؤْيَةِ خَرْقِ الْعَادَاتِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا كَانَ حُصُولَ الْيَقِينِ، وَقَدْ حَصَلَ الْيَقِينُ، فَلَوْ كُوشِفَ هَذَا الْمَرْزُوقُ صِدْقَ الْيَقِينِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَازْدَادَ يَقِينًا، فَلَا تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ كَشْفَ الْقُدْرَةِ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ لِهَذَا الْمَوْضِعِ، اسْتِغْنَاءً بِهِ، وَتَقْتَضِي الْحِكْمَةُ كَشْفَ ذَلِكَ الْآخَرِ لِمَوْضِعِ حَاجَتِهِ، وَكَانَ هَذَا الثَّانِي يَكُونُ أَتَمَّ اسْتِعْدَادًا وَأَهْلِيَّةً مِنَ الْأَوَّلِ، فَسَبِيلُ الصَّادِقِ مُطَالَبَةُ النَّفْسِ بِالِاسْتِقَامَةِ، فَهِيَ كُلُّ الْكَرَامَةِ.

ثُمَّ إِذَا وَقَعَ فِي طَرِيقِهِ شَيْءٌ خَارِقٌ كَانَ كَأَنْ لَمْ يَقَعْ، فَمَا يُبَالِي وَلَا يَنْقُصُ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَنْقُصُ بِالْإِخْلَالِ بِوَاجِبِ حَقِّ الِاسْتِقَامَةِ. (١١/ ٣٢٠).

فعل المباح على وجه التعبد

مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الدِّينَ لَهُ (أَصْلَانِ)، فَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَ اللهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَابَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ، وَشَرَعُوا دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ.

وَلَوْ سُئِلَ الْعَالِمُ عَمَّنْ يَعْدُو بَيْنَ جَبَلَيْنِ: هَلْ يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ، كَمَا يَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا والمروة. قَالَ: إِنَّ فِعْلَهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ حَرَامٌ مُنْكَرٌ يُسْتَتَابُ فَاعِلُهُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ.

وَلَوْ سُئِلَ عَنْ كَشْفِ الرَّأْسِ، وَلُبْسِ الْإِزَارِ وَالرِّدَاءِ- أَفْتَى بِأَنَّ هَذَا جَائِزٌ، فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ الْإِحْرَامِ، كَمَا يُحْرِمُ الْحَاجُّ. قَالَ: إِنَّ هَذَا حَرَامٌ مُنْكَرٌ.

وَلَوْ سُئِلَ عَمَّنْ يَقُومُ فِي الشَّمْسِ، قَالَ: هَذَا جَائِزٌ. فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهُ يَفْعَلُهُ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ. قَالَ: هَذَا مُنْكَرٌ. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قَالُوا: هَذَا أَبُو إِسْرَائِيلَ يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ، وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَجْلِسْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»(١). فَهَذَا لَوْ فَعَلَهُ لِرَاحَةٍ أَوْ غَرَضٍ مُبَاحٍ لَمْ يُنْهَ عَنْهُ؛ لَكِنْ لَمَّا فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ نُهِيَ عَنْهُ.

وَكَذَلِكَ لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ إِلَى بَيْتِهِ مِنْ خَلْفِ الْبَيْتِ لَمْ يَحْرُمْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ عِبَادَةٌ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَحْرَمَ لَمْ يَدْخُلْ تَحْتَ سَقْفٍ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِبِرٍّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَرَامًا، فَمَنْ فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْبِرِّ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ كَانَ عَاصِيًا مَذْمُومًا مُبْتَدِعًا، وَالْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّ الْعَاصِيَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَاصٍ فَيَتُوبُ، وَالْمُبْتَدِعَ يَحْسَبُ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُهُ طَاعَةٌ فَلَا يَتُوبُ. وَلِهَذَا مَنْ حَضَرَ السَّمَاعَ لِلَّعِبِ وَاللَّهْوِ لَا يَعُدُّهُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ وَلَا يَرْجُو بِهِ الثَّوَابَ، وَأَمَّا مَنْ فَعَلَهُ عَلَى أَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَتَّخِذُهُ دِينًا، وَإِذَا نُهِيَ عَنْهُ كَانَ كَمَنْ نُهِيَ عَنْ دِينِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ انْقَطَعَ عَنِ اللهِ، وَحُرِمَ نَصِيبَهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِذَا تَرَكَهُ. فَهَؤُلَاءِ ضُلَّالٌ بِاتِّفَاقِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّ اتِّخَاذَ هَذَا دِينًا، وَطَرِيقًا إِلَى اللهِ تَعَالَى أَمْرٌ مُبَاحٌ؛ بَلْ مَنْ جَعَلَ هَذَا دِينًا وَطَرِيقًا إِلَى اللهِ تَعَالَى فَهُوَ ضَالٌّ مُفْتَرٍ، مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٠٤) في كتاب الأيمان والنذور.

فَمَنْ فَعَلَ مَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَلَا مُسْتَحَبٍّ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْوَاجِبِ أَوْ الْمُسْتَحَبِّ؛ فَهُوَ ضَالٌّ مُبْتَدِعٌ، وَفِعْلُهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ حَرَامٌ، بِلَا رَيْبٍ. (١١/ ٦٣١).

سبب ضعف المسلمين

وَإِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ مُسْتَظْهِرًا عَلَيْهِمْ؛ كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ؛ إمَّا لِتَفْرِيطِهِمْ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَإِمَّا لِعُدْوَانِهِمْ بِتَعَدِّي الْحُدُودِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:٤٠-٤١]. (١١/ ٦٤٥).

صفات جند الله تعالى

الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَغَيْرِهَا، وَيُخْلِصُونَ دِينَهُمْ للهِ، فَلَا يَدْعُونَ إلَّا اللهَ، وَلَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَلَا يُنْذِرُونَ إلَّا للهِ، وَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ فَهَؤُلَاءِ جُنْدُ اللهِ الْغَالِبُونَ، وَحِزْبُ اللهِ الْمُفْلِحُونَ، فَإِنَّهُ يُؤَيِّدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ.

وَهَؤُلَاءِ يَهْزِمُونَ شَيَاطِينَ أُولَئِكَ الضَّالِّينَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَ شُهُودِ هَؤُلَاءِ وَاسْتِغَاثَتِهِمْ بِاللَّهِ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيَّةِ، بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُمْ تِلْكَ الشَّيَاطِينُ، وَهَؤُلَاءِ مُعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ. يَقُولُونَ: أَحْوَالُنَا مَا تَنْفُذُ قُدَّامَ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا تَنْفُذُ قُدَّامَ مَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ مِنَ الْأَعْرَابِ وَالتُّرْكِ وَالْعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ. (١١/ ٦٦٨).

فائدة: حاجتنا إلى التوبة

تَخْلِيصُ الْأَعْمَالِ مِمَّا يُفْسِدُهَا أَشَدُّ عَلَى الْعَامِلِينَ مِنْ طُولِ الِاجْتِهَادِ، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ احْتِيَاجَ النَّاسِ إِلَى التَّوْبَةِ دَائِمًا.

وَلِهَذَا قِيلَ: هِيَ مَقَامٌ يَسْتَصْحِبُهُ الْعَبْدُ مِنْ أَوَّلِ مَا يَدْخُلُ فِيهِ إِلَى آخِرِ عُمُرِهِ، وَلَا بُدَّ مِنْهُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ؛ فَجَمِيعُ الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتُوبُوا وَأَنْ يَسْتَدِيمُوا التَّوْبَةَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣-٧٤]، فَغَايَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ التَّوْبَةُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ لِأَفْضَلِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَفْضَلِ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُمْ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، وَمِنْ أَوَاخِرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ قَوْلُهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣]. (١١/ ٦٨٨).

الاستغفار دواء التقصير

وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ أَكْبَرِ الْحَسَنَاتِ وَبَابُهُ وَاسِعٌ، فَمَنْ أَحَسَّ بِتَقْصِيرٍ فِي قَوْلِهِ أَوْ عَمَلِهِ أَوْ حَالِهِ أَوْ رِزْقِهِ أَوْ تَقَلُّبِ قَلْبٍ: فَعَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَفِيهِمَا الشِّفَاءُ إِذَا كَانَا بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ، وَكَذَلِكَ إِذَا وَجَدَ الْعَبْدُ تَقْصِيرًا فِي حُقُوقِ الْقَرَابَةِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ وَالْجِيرَانِ وَالْإِخْوَانِ، فَعَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِغْفَارِ. (١١/ ٦٩٨).

أكاذيب

❁ أَنْ عُمَرَ تَزَوَّجَ امْرَأَةَ أَبِي بَكْرٍ لِيُعْرَفَ حَالُهُ فِي الْبَاطِنِ فَقَالَتْ: كُنْت أَشُمُّ رَائِحَةَ الْكَبِدِ الْمَشْوِيَّةِ، فَهَذَا كَذِبٌ، وَعُمَرُ لَمْ يَتَزَوَّجْ امْرَأَةَ أَبِي بَكْرٍ، بَلْ تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَكَانَتْ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ عِنْدَ جَعْفَرٍ وَهِيَ أَسْمَاءُ بِنْتُ عميس وكانت من عقلاء النساء. (١١/ ١١٠).

❁ مَا يُذْكَرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ مِنْ الْجَنَّةِ وَمَعَهُ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ مِنْ حَدِيدٍ السِّنْدَانُ وَالْكَلْبَتَانِ وَالْمِنْقَعَةُ وَالْمِطْرَقَةُ وَالْإِبْرَةُ. فَهُوَ كَذِبٌ لَا يَثْبُتُ مِثْلُهُ. (١٢/ ٢٥٢).

الصِّفات لها ثلاث اعتبارات:
مطلقة أو مضافة للعبد أو مضافة للرب

الصِّفَاتُ لَهَا ثَلَاثُ اعْتِبَارَاتٍ: تَارَةً تُعْتَبَرُ مُضَافَةً إلَى الرَّبِّ. وَتَارَةً تُعْتَبَرُ مُضَافَةً إلَى الْعَبْدِ وَتَارَةً تُعْتَبَرُ مُطْلَقَةً لَا تَخْتَصُّ بِالرَّبِّ وَلَا بِالْعَبْدِ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: حَيَاةُ اللهِ وَعِلْمُ اللهِ وَقُدْرَةُ اللهِ وَكَلَامُ اللهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهَذَا كُلُّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَا يُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَإِذَا قَالَ عِلْمُ الْعَبْدِ وَقُدْرَةُ الْعَبْدِ وَكَلَامُ الْعَبْدِ فَهَذَا كُلُّهُ مَخْلُوقٌ وَلَا يُمَاثِلُ صِفَاتِ الرَّبِّ. وَإِذَا قَالَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْكَلَامُ فَهَذَا مُجْمَلٌ مُطْلَقٌ لَا يُقَالُ عَلَيْهِ كُلِّهِ إنَّهُ مَخْلُوقٌ وَلَا إنَّهُ

غَيْرُ مَخْلُوق بَلْ مَا اتَّصَفَ بِهِ الرَّبُّ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَمَا اتَّصَفَ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ فَالصِّفَةُ تَتْبَعُ الْمَوْصُوفَ. فَإِنْ كَانَ الْمَوْصُوفُ هُوَ الْخَالِقَ فَصِفَاتُهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ وَإِنْ كَانَ الْمَوْصُوفُ هُوَ الْعَبْدَ الْمَخْلُوقَ. فَصِفَاتُهُ مَخْلُوقَةٌ. ثُمَّ إذَا قَرَأَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا مِنْ كَلَامِ اللهِ فَالْقُرْآنُ فِي نَفْسِهِ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَإِنْ كَانَ حَرَكَاتُ الْعِبَادِ وَأَصْوَاتُهُمْ مَخْلُوقَةً. (١٢/ ٦٦).

ضبط المصاحف بالشكل

إِنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا كَتَبُوا الْمَصَاحِفَ كَتَبُوهَا غَيْرَ مَشْكُولَةٍ، وَلَا مَنْقُوطَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى حِفْظِهِ فِي صُدُورِهِمْ، لَا عَلَى الْمَصَاحِفِ، وَهُوَ مَنْقُولٌ بِالتَّوَاتُرِ، مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْ عُدِمَتْ الْمَصَاحِفُ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بِهَا حَاجَةٌ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسُوا كَأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي تَقْبَلُ التَّغَيُّرَ، وَاللَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ فَتَلَقَّاهُ تَلَقِّيًا، وَحَفِظَهُ فِي قَلْبِهِ، لَمْ يُنَزِّلْهُ مَكْتُوبًا كَالتَّوْرَاةِ، وَأَنْزَلَهُ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا؛ لِيُحْفَظَ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى كِتَابٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء:١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [طه:١١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧].

وَفِي الصَّحِيحِ(١)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِنْ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَك، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَرِّكُهُمَا. فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧]، قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِك، ثُمَّ تَقْرَؤُهُ؛ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩]، أَيْ: نُبَيِّنُهُ بِلِسَانِك،

(١) أخرجه البخاري (٥) في كتاب بدء الوحي، ومسلم (٤٤٨) في كتاب الصلاة.

فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَقْرَأَهُ. فَلِهَذَا لَمْ تَكُنْ الصَّحَابَةُ يَنْقُطُونَ الْمَصَاحِفَ وَيَشْكُلُونَهَا، وَأَيْضًا كَانُوا عَرَبًا لَا يَلْحَنُونَ؛ فَلَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى تَقْيِيدِهَا بِالنَّقْطِ، وَكَانَ فِي اللَّفْظِ الْوَاحِدِ قِرَاءَتَانِ: يُقْرَأُ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ؛ مِثْلَ: يَعْمَلُونَ وَتَعْمَلُونَ، فَلَمْ يُقَيِّدُوهُ بِأَحَدِهِمَا لِيَمْنَعُوهُ مِنْ الْأُخْرَى، ثُمَّ إِنَّهُ فِي زَمَنِ التَّابِعِينَ لَمَّا حَدَثَ اللَّحْنُ صَارَ بَعْضُ التَّابِعِينَ يَشْكُلُ الْمَصَاحِفَ وَيَنْقُطُهَا، وَكَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِالْحُمْرَةِ، وَيَعْمَلُونَ الْفَتْحَ بِنُقْطَةٍ حَمْرَاءَ فَوْقَ الْحَرْفِ، وَالْكَسْرَةَ بِنُقْطَةٍ حَمْرَاءَ تَحْتَهُ، وَالضَّمَّةَ بِنُقْطَةٍ حَمْرَاءَ أَمَامَهُ، ثُمَّ مَدُّوا النُّقْطَةَ وَصَارُوا يَعْمَلُونَ الشَّدَّةَ بِقَوْلِك «شُدَّ»؛ وَيَعْمَلُونَ الْمَدَّةَ بِقَوْلِك «مُدَّ»، وَجَعَلُوا عَلَامَةَ الْهَمْزَةِ تُشْبِهُ الْعَيْنَ؛ لِأَنَّ الْهَمْزَةَ أُخْتُ الْعَيْنِ، ثُمَّ خَفَّفُوا ذَلِكَ حَتَّى صَارَتْ عَلَامَةُ الشَّدَّةِ مِثْلَ رَأْسِ السِّينِ، وَعَلَامَةُ الْمَدَّةِ مُخْتَصَرَةً كَمَا يَخْتَصِرُ أَهْلُ الدِّيوَانِ أَلْفَاظَ الْعَدَدِ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَكَمَا يَخْتَصِرُ الْمُحَدِّثُونَ (أَخْبَرَنَا) وَ(حَدَّثَنَا) فَيَكْتُبُونَ أَوَّلَ اللَّفْظِ وَآخِرَهُ عَلَى شَكْلٍ (أَنَا) وَعَلَى شَكْلِ (ثنا). (١٢/ ١٠٠).

لفظ الاختلاف في القرآن

وَلَفْظُ (الِاخْتِلَافِ) فِي الْقُرْآنِ يُرَادُ بِهِ التَّضَادُّ وَالتَّعَارُضُ؛ لَا يُرَادُ بِهِ مُجَرَّدُ عَدَمِ التَّمَاثُلِ - كَمَا هُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنْ النُّظَّارِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات:٨-٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣]. (١٣/ ٩).

الاعتبار

الِاعْتِبَارُ أَنْ يُقْرَنَ الشَّيْءُ بِمِثْلِهِ، فَيُعْلَمَ أَنَّ حُكْمَهُ مِثْلُ حُكْمِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَلَّا اعْتَبَرْتُمْ الْأَصَابِعَ بِالْأَسْنَانِ؟ فَإِذَا قَالَ: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر:٢]، وَقَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، أَفَادَ أَنَّ مَنْ عَمِلَ مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ جُوزِيَ مِثْلَ جَزَائِهِمْ. (١٣/ ٢٠).

كلنا للكتاب والسنة تبع ليس غير

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١]، قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تفتاتوا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، حَتَّى يَقْضِيَهُ اللهُ عَلَى لِسَانِهِ(١).

﴿تُقَدِّمُوا۟﴾ مَعْنَاهُ: تَتَقَدَّمُوا، وَهُوَ فِعْلٌ لَازِمٌ، وَقَدْ قُرِئَ «يُقَدِّمُوا»، يُقَالُ: قَدَّمَ وَتَقَدَّمَ، كَمَا يُقَالُ: بَيَّنَ وَتَبَيَّنَ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ قَدَّمَ مُتَعَدِّيًا، أَيْ قَدَّمَ غَيْرَهُ، لَكِنْ هُنَا هُوَ فِعْلٌ لَازِمٌ، فَلَا تُقَدِّمُوا مَعْنَاهُ: لَا تَتَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَرَسُولِهِ.

فَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ الدِّينِ إلَّا تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا يَتَقَدَّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ بَلْ يَنْظُرُ مَا قَالَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ تَبَعًا لِقَوْلِهِ، وَعَمَلُهُ تَبَعًا لِأَمْرِهِ، فَهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يُعَارِضُ النُّصُوصَ بِمَعْقُولِهِ، وَلَا يُؤَسِّسُ دِينًا غَيْرَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَإِذَا أَرَادَ مَعْرِفَةَ شَيْءٍ مِنْ الدِّينِ وَالْكَلَامَ فِيهِ نَظَرَ فِيمَا قَالَهُ اللهُ وَالرَّسُولُ، فَمِنْهُ يَتَعَلَّمُ، وَبِهِ يَتَكَلَّمُ، وَفِيهِ يَنْظُرُ وَيَتَفَكَّرُ، وَبِهِ يَسْتَدِلُّ، فَهَذَا أَصْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَهْلُ الْبِدَعِ لَا يَجْعَلُونَ اعْتِمَادَهُمْ فِي الْبَاطِنِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى مَا تَلَقَّوْهُ عَنْ الرَّسُولِ؛ بَلْ عَلَى مَا رَأَوْهُ أَوْ ذَاقُوهُ، ثُمَّ إنْ

---

(١) انظر. «تفسير الطبري» (١١/ ٣٧٧)، وتفسير البغوي «معالم التنزيل»(٤/ ٢٠٩).

وَجَدُوا السُّنَّةَ تُوَافِقُهُ وَإِلَّا لَمْ يُبَالُوا بِذَلِكَ، فَإِذَا وَجَدُوهَا تُخَالِفُهُ أَعْرَضُوا عَنْهَا تَفْوِيضًا، أَوْ حَرَّفُوهَا تَأْوِيلًا.

فَهَذَا هُوَ الْفُرْقَانُ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَالْبِدْعَةِ، وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ نَصِيبٌ وَافِرٌ مِنَ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ، لَكِنَّ فِيهِمْ مِنَ النِّفَاقِ وَالْبِدْعَةِ بِحَسَبِ مَا تَقَدَّمُوا فِيهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَخَالَفُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ إِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ يُخَالِفُ الرَّسُولَ، وَلَوْ عَلِمُوا لَمَا قَالُوهُ، لَمْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ، بَلْ نَاقِصِي الْإِيمَانِ مُبْتَدِعِينَ، وَخَطَؤُهُمْ مَغْفُورٌ لَهُمْ، لَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ، وَإِنْ نَقَصُوا بِهِ. (١٣/ ٦٢).

أسباب صرع الجن للإنس

وَصَرْعُ الْجِنِّ لِلْإِنْسِ هُوَ لِأَسْبَابٍ ثَلَاثَةٍ:

١- تَارَةً يَكُونُ الْجِنِّيُّ يُحِبُّ الْمَصْرُوعَ فَيَصْرَعُهُ لِيَتَمَتَّعَ بِهِ، وَهَذَا الصَّرْعُ يَكُونُ أَرْفَقَ مِنْ غَيْرِهِ، وَأَسْهَلَ.

٢- وَتَارَةً يَكُونُ الْإِنْسِيُّ آذَاهُمْ؛ إِذَا بَالَ عَلَيْهِمْ، أَوْ صَبَّ عَلَيْهِمْ مَاءً حَارًّا، أَوْ يَكُونُ قَتَلَ بَعْضَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى، وَهَذَا أَشَدُّ الصَّرْعِ، وَكَثِيرًا مَا يَقْتُلُونَ الْمَصْرُوعَ.

٣- وَتَارَةً يَكُونُ بِطَرِيقِ الْعَبَثِ بِهِ، كَمَا يَعْبَثُ سُفَهَاءُ الْإِنْسِ بِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ. (١٣/ ٨٢).

الاحتراز من التكفير

يَجِبُ الِاحْتِرَازُ مِنْ تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ بِدْعَةٍ ظَهَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ، فَكَفَّرَ أَهْلُهَا الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَحَلُّوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ. (١٣/ ٣١).

العبودية لله أشرف مرتبة

سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُعْطِيَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَهُ، وَسُخِّرَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَهَذَا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تَفَلَّتَ عَلَيْهِ الْعِفْرِيتُ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ قَالَ: «**فَأَخَذْتُه فَذُغتُه حَتَّى سَالَ لُعَابُهُ عَلَى يَدِي، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ ذَكَرت دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ، فَأَرْسَلْته**»[1]. فَلَمْ يَسْتَخْدِمْ الْجِنَّ أَصْلًا؛ لَكِنْ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ، وَبَلَّغَهُمْ الرِّسَالَةَ، وَبَايَعَهُمْ كَمَا فَعَلَ بِالْإِنْسِ. وَالَّذِي أُوتِيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ مِمَّا أُوتِيَهُ سُلَيْمَانُ؛ فَإِنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَسَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَا لِغَرَضٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا عَلَى أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا، فَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ وَيُوسُفُ أَنْبِيَاءُ مُلُوكٌ، وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ رُسُلٌ عَبِيدٌ، فَهُوَ أَفْضَلُ كَفَضْلِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ عَلَى الْأَبْرَارِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. (١٣/ ٨٩).

عبرة

إِنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ كَانَ انْقِرَاضُهَا بِسَبَبِ هَذَا الْجَعْدِ الْمُعَطِّلِ[2]، وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَوْجَبَتْ إِدْبَارَهَا. (١٣/ ١٨٢).

تفسير النصوص بالهوى

مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ أَوْ الْحَدِيثَ وَتَأَوَّلَهُ عَلَى غَيْرِ التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى الله، مُلْحِدٌ فِي آيَاتِ الله، مُحَرِّفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٣) في كتاب أحاديث الأنبياء، عن أبي هريرة.

(٢) تقدمت ترجمته.

وَهَذَا فَتْحٌ لِبَابِ الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ، وَهُوَ مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ. (١٣/ ٢٤٣).

أقسام القلوب

جَعَلَ اللهُ الْقُلُوبَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: قَاسِيَةً، وَذَاتَ مَرَضٍ، وَمُؤْمِنَةً مُخْبِتَةً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ يَابِسَةً جَامِدَةً لَا تَلِينُ لِلْحَقِّ اعْتِرَافًا وَإِذْعَانًا، أَوْ لَا تَكُونُ يَابِسَةً جَامِدَةً.

فـ(الْأَوَّلُ) هُوَ الْقَاسِي، وَهُوَ الْجَامِدُ الْيَابِسُ، بِمَنْزِلَةِ الْحَجَرِ لَا يَنْطَبِعُ وَلَا يُكْتَبُ فِيهِ الْإِيمَانُ وَلَا يَرْتَسِمُ فِيهِ الْعِلْمُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي مَحَلًّا لَيِّنًا قَابِلًا.

و(الثَّانِي) لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ ثَابِتًا فِيهِ لَا يَزُولُ عَنْهُ؛ لِقُوَّتِهِ مَعَ لِينِهِ، أَوْ يَكُونَ لِينُهُ مَعَ ضَعْفٍ وَانْحِلَالٍ، فَالثَّانِي هُوَ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْقَوِيُّ اللَّيِّنُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ بِمَنْزِلَةِ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ كَالْيَدِ مَثَلًا، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ جَامِدَةً يَابِسَةً لَا تَلْتَوِي وَلَا تَبْطِشُ، أَوْ تَبْطِشُ بِعُنْفٍ؛ فَذَلِكَ مَثَلُ الْقَلْبِ الْقَاسِي، أَوْ تَكُونَ ضَعِيفَةً مَرِيضَةً عَاجِزَةً لِضَعْفِهَا وَمَرَضِهَا؛ فَذَلِكَ مَثَلُ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ، أَوْ تَكُونَ بَاطِشَةً بِقُوَّةٍ وَلِينٍ، فَهُوَ مَثَلُ الْقَلْبِ الْعَلِيمِ الرَّحِيمِ، فَبِالرَّحْمَةِ خَرَجَ عَنْ الْقَسْوَةِ، وَبِالْعِلْمِ خَرَجَ عَنْ الْمَرَضِ؛ فَإِنَّ الْمَرَضَ مِنْ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ.

وَلِهَذَا وُصِفَ مَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِخْبَاتِ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤]، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ يَدُلُّ عَلَى الْإِيمَانِ. (١٣/ ٢٧٠).

حقيقة العلم

وَالْعِلْمُ إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ عَنْ مَعْصُومٍ، وَإِمَّا قَوْلٌ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مَعْلُومٌ، وَمَا سِوَى هَذَا فَإِمَّا مُزَيَّفٌ مَرْدُودٌ، وَإِمَّا مَوْقُوفٌ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ بَهْرَجٌ وَلَا مَنْقُودٌ. (١٣/ ٣٢٩).

حاجة الأمة إلى فهم القرآن

وَحَاجَةُ الْأُمَّةِ مَاسَّةٌ إِلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ التَّرْدِيدِ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ؛ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]. (١٣/ ٣٣٠).

أحاديث مكذوبة

❁ **«إِذَا أَغْيَتْكُمُ الْأُمُورُ فَعَلَيْكُمْ بِأَهْلِ -بأصحاب- الْقُبُورِ»، أَوْ: «فَاسْتَعِينُوا بِأَهْلِ الْقُبُورِ».**

فَهَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ مُفْتَرًى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِجْمَاعِ الْعَارِفِينَ بِحَدِيثِهِ، لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ بِذَلِكَ، وَلَا يُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ. (١/ ٣٥٦ و١١/ ٢٩٣).

❁ «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ بِجَاهِي فَإِنَّ جَاهِي عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ».

هَذَا الْحَدِيثُ كَذِبٌ، لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْحَدِيثِ، وَلَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ، مَعَ أَنَّ جَاهَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ جَاهِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ. (١/ ٣١٩و ٢٧/ ١٢٦و ٢٤/ ٣٣٥).

❁ «إِذَا كَانَتْ لَكُمْ حَاجَةٌ فَاسْأَلُوا اللهَ بِجَاهِي».

حَدِيثٌ بَاطِلٌ، لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَا هُوَ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ، وَإِنَّمَا الْمَشْرُوعُ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ فِي دُعَاءٍ. (١/ ٣٤٦).

❁ «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ».

لَا أَصْلَ لَهُ، وَلَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَفْعَالِهِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ؛ بَلْ هُوَ أَفْضَلُ مَا تَطَوَّعَ بِهِ الْإِنْسَانُ. (١١/ ١٩٧).

❁ «لَوْ أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ ظَنَّهُ بِحَجَرٍ لَنَفَعَهُ اللهُ بِهِ».

هُوَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْبُهْتَانِ، فَإِنَّ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ أَحْسَنُوا ظَنَّهُمْ بِهَا، فَكَانُوا هُمْ وَإِيَّاهَا مِنْ حَصَبِ جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. (١١/ ٥١٣و ٢٤/ ٣٣٥).

الكلمتان الجامعتان

جَاءَ مَأْثُورًا عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُ؛ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ عِلْمَهَا فِي الْأَرْبَعَةِ، وَجَمَعَ عِلْمَ الْأَرْبَعَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ عِلْمَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، وَجَمَعَ عِلْمَ الْمُفَصَّلِ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ عِلْمَ أُمِّ الْقُرْآنِ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ الْجَامِعَتَيْنِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وَإِنَّ عِلْمَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ اجْتَمَعَ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ الْجَامِعَتَيْنِ. (١٤/ ٧).

حاجتنا إلى الهداية

وَالْعَبْدُ مُضْطَرٌّ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، فَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلَى مَقْصُودِ هَذَا الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنْ الْعَذَابِ، وَلَا وُصُولَ إِلَى السَّعَادَةِ إِلَّا بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ، فَمَنْ فَاتَهُ فَهُوَ إِمَّا مِنْ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَإِمَّا مِنْ الضَّالِّينَ، وَهَذَا الْهُدَى لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِهُدَى اللهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُبَيِّنُ فَسَادَ مَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ.

وَأَمَّا سُؤَالُ مَنْ يَقُولُ: فَقَدْ هَدَاهُمْ فَلَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَى السُّؤَالِ، وَجَوَابُ مَنْ أَجَابَهُ بِأَنَّ الْمَطْلُوبَ دَوَامُهَا- فَكَلَامُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ الْأَسْبَابِ، وَمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ؛ فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا أُمِرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ، وَلَا يَفْعَلُ مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَهَذَا يَحْتَاجُ فِي كُلِّ وَقْتٍ إِلَى أَنْ يَعْلَمَ وَيَعْمَلَ مَا أُمِرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ، وَإِلَى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ إِرَادَةٌ جَازِمَةٌ لِفِعْلِ الْمَأْمُورِ، وَكَرَاهَةٌ جَازِمَةٌ لِتَرْكِ الْمَحْظُورِ، فَهَذَا الْعِلْمُ الْمُفَصَّلُ، وَالْإِرَادَةُ الْمُفَصَّلَةُ، لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَحْصُلَ لِلْعَبْدِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بَلْ كُلُّ وَقْتٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ اللهُ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْعُلُومِ وَالْإِرَادَاتِ مَا يَهْتَدِي بِهِ فِي ذَلِكَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

نَعَمْ، حَصَلَ لَهُ هُدًى مُجْمَلٌ بِأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَالرَّسُولَ حَقٌّ، وَدِينَ الْإِسْلَامِ حَقٌّ، وَذَلِكَ حَقٌّ؛ وَلَكِنَّ هَذَا الْمُجْمَلَ لَا يُغْنِيهِ، إِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هُدًى مُفَصَّلٌ فِي كُلِّ مَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ مِنْ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي يَحَارُ فِيهَا أَكْثَرُ عُقُولِ الْخَلْقِ، وَيَغْلِبُ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتُ أَكْثَرَ عُقُولِهِمْ؛ لِغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ عَلَيْهِمْ.

وَالْإِنْسَانُ خُلِقَ ظَلُومًا جَهُولًا، فَالْأَصْلُ فِيهِ عَدَمُ الْعِلْمِ، وَمَيْلُهُ إِلَى مَا يَهْوَاهُ مِنْ الشَّرِّ، فَيَحْتَاجُ دَائِمًا إِلَى عِلْمٍ مُفَصَّلٍ يَزُولُ بِهِ جَهْلُهُ، وَعَدْلٍ فِي مَحَبَّتِهِ وَبُغْضِهِ، وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ، وَفِعْلِهِ وَتَرْكِهِ، وَإِعْطَائِهِ وَمَنْعِهِ، وَأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ، وَنَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ، فَكُلُّ مَا يَقُولُهُ

وَيَعْمَلُهُ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى عِلْمٍ يُنَافِي جَهْلَهُ، وَعَدْلٍ يُنَافِي ظُلْمَهُ، فَإِنْ لَمْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ الْمُفَصَّلِ، وَالْعَدْلِ الْمُفَصَّلِ، كَانَ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ، بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١-٢]، فَإِذَا كَانَ هَذِهِ حَالُهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، فَكَيْفَ حَالُ غَيْرِهِ.

والصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ فُسِّرَ بِالْقُرْآنِ، وَبِالْإِسْلَامِ، وَطَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَكُلُّ هَذَا حَقٌّ، فَهُوَ مَوْصُوفٌ بِهَذَا وَبِغَيْرِهِ، فـ(الْقُرْآنُ) مُشْتَمِلٌ عَلَى مُهِمَّاتٍ، وَأُمُورٍ دَقِيقَةٍ، وَنَوَاهٍ، وَأَخْبَارٍ وَقَصَصٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ إِنْ لَمْ يَهْدِ اللهُ الْعَبْدَ إِلَيْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِهَا، ضَالٌّ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ (الْإِسْلَامُ) وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَكَارِمِ وَالطَّاعَاتِ وَالْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَكَذَلِكَ (الْعِبَادَةُ) وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ.

فَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَى سُؤَالِ هَذِهِ الْهِدَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ فِي سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ وَفَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ حَاجَتِهِ إِلَى الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ، فَإِنَّ اللهَ يَرْزُقُهُ، فَإِذَا انْقَطَعَ رِزْقُهُ مَاتَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْهُدَى بِهِ كَانَ سَعِيدًا قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ، وَكَانَ الْمَوْتُ مُوَصِّلًا إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَكَذَلِكَ النَّصْرُ إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ غُلِبَ حَتَّى قُتِلَ؛ فَإِنَّهُ يَمُوتُ شَهِيدًا، وَكَانَ الْقَتْلُ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الْهُدَى أَعْظَمُ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى النَّصْرِ وَالرِّزْقِ، بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا هُدِيَ كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وَكَانَ مِمَّنْ يَنْصُرُ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ نَصَرَ اللهَ نَصَرَهُ اللهُ، وَكَانَ مِنْ جُنْدِ اللهِ وَهُمُ الْغَالِبُونَ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ هُوَ الْمَفْرُوضُ. (١٤/ ٣٧ـ ٣٩).

نكاح الكتابية

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾

نِكَاحُ الْكِتَابِيَّةِ جَائِزٌ بِالْآيَةِ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥]. وَهَذَا مَذْهَبُ جَمَاهِيرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَرِهَ نِكَاحَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ شِرْكًا أَعْظَمَ مِمَّنْ تَقُولُ إنَّ رَبَّهَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. وَهُوَ الْيَوْمَ مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَقَدْ احْتَجُّوا بِالْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

وَالْجَوَابُ عَنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْمُشْرِكِينَ، فَجُعِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج:١٧].

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ وَصَفَهُمْ بِالشِّرْكِ بِقَوْلِهِ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

قِيلَ: إنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَيْسَ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ شِرْكٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إنَّمَا بَعَثَ الرُّسُلَ بِالتَّوْحِيدِ، فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَالْكُتُبِ لَمْ يَكُنْ فِي أَصْلِ دِينِهِمْ شِرْكٌ، وَلَكِنَّ النَّصَارَى ابْتَدَعُوا الشِّرْكَ، كَمَا قَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، فَحَيْثُ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا فَلِأَجْلِ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي لَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ بِهِ؛ وَجَبَ تَمَيُّزُهُمْ

عَنْ الْمُشْرِكِينَ، لِأَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ اتِّبَاعُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِالتَّوْحِيدِ؛ لَا بِالشِّرْكِ. فَإِذَا قِيلَ: أَهْلُ الْكِتَابِ لَمْ يَكُونُوا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ مُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أُضِيفُوا إِلَيْهِ لَا شِرْكَ فِيهِ، كَمَا إِذَا قِيلَ: الْمُسْلِمُونَ وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ؛ لَا اتِّحَادٌ وَلَا رَفْضٌ وَلَا تَكْذِيبٌ بِالْقَدَرِ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْبِدَعِ. وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الدَّاخِلِينَ فِي الْأُمَّةِ قَدْ ابْتَدَعَ هَذِهِ الْبِدَعَ؛ لَكِنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مَنْ هُوَ مُتَّبِعٌ لِشَرِيعَةِ التَّوْحِيدِ؛ بِخِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَلَمْ يُخْبِرْ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ بِالِاسْمِ، بَلْ قَالَ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠]، بِالْفِعْلِ، وَآيَةُ الْبَقَرَةِ قَالَ فِيهَا: (الْمُشْرِكِينَ) و(الْمُشْرِكَاتِ) بِالِاسْمِ، وَالِاسْمُ أَوْكَدُ مِنْ الْفِعْلِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي- أَنْ يُقَالَ: إِنْ شَمِلَهُمْ لَفْظُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، كَمَا وَصَفَهُمْ بِالشِّرْكِ؛ فَهَذَا مُتَوَجِّهٌ بِأَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ دَلَالَةِ اللَّفْظِ، مُفْرَدًا وَمَقْرُونًا، فَإِذَا أُفْرِدُوا دَخَلَ فِيهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَإِذَا قُرِنُوا مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهِمْ، كَمَا قِيلَ مِثْلُ هَذَا فِي اسْمِ (الْفَقِيرِ) و(الْمِسْكِينِ) وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَعَلَى هَذَا يُقَالُ: آيَةُ الْبَقَرَةِ عَامَّةٌ، وَتِلْكَ خَاصَّةٌ، وَالْخَاصُّ يُقَدَّمُ عَلَى الْعَامِّ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ- أَنْ يُقَالَ: آيَةُ الْمَائِدَةِ نَاسِخَةٌ لِآيَةِ الْبَقَرَةِ؛ لِأَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ الْبَقَرَةِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الْمَائِدَةُ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نُزُولًا، فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا، وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا». وَالْآيَةُ الْمُتَأَخِّرَةُ تَنْسَخُ الْآيَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ، إِذَا تَعَارَضَتَا. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠]، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، لَمَّا هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ (سُورَةَ الْمُمْتَحَنَةِ)، وَأَمَرَ بِامْتِحَانِ الْمُهَاجِرِينَ، وَهُوَ خِطَابٌ لِمَنْ كَانَ فِي عِصْمَتِهِ كَافِرَةٌ، و(اللَّامُ) لِتَعْرِيفِ الْعَهْدِ، وَالْكَوَافِرُ الْمَعْهُودَاتُ

هُنَّ الْمُشْرِكَاتُ، مَعَ أَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ يُمَيِّزُون مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَيْضًا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١]، فَإِنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ هُوَ الْإِيمَانُ؛ وَلَكِنْ هُمْ كَفَرُوا، مُبْتَدِعِينَ الْكُفْرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]. (١٤/ ٩١-٩٣و ٣٢/ ١٧٨).

رياض الجنة

إن الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مُقِيمًا عَلَى طَاعَةِ اللهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا؛ كَانَ فِي نَعِيمِ الْإِيمَانِ، وَالْعِلْمُ وَارِدٌ عَلَيْهِ مِنْ جِهَاتِهِ، وَهُوَ فِي جَنَّةِ الدُّنْيَا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا**». قِيلَ: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «**مَجَالِسُ الذِّكْرِ**»(١). وَقَالَ: «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**»(٢). فَإِنَّهُ كَانَ يَكُونُ هُنَا فِي رِيَاضِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ. وَكُلَّمَا كَانَ قَلْبُهُ فِي مَحَبَّةِ اللهِ وَذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ كَانَ مُعَلَّقًا بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، فَلَا يَزَالُ فِي عُلُوٍّ مَا دَامَ كَذَلِكَ، فَإِذَا أَذْنَبَ هَبَطَ قَلْبُهُ إِلَى أَسْفَلَ، فَلَا يَزَالُ فِي هُبُوطٍ مَا دَامَ كَذَلِكَ، وَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْثَالِهِ عَدَاوَةٌ؛ فَإِنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا تَابَ وَعَمِلَ فِي حَالِ هُبُوطِ قَلْبِهِ، إِلَى أَنْ يَسْتَقِيمَ فَيَصْعَدَ قَلْبُهُ. (١٤/ ١٦٠).

---

(١) **حسن لغيره**. أخرجه الترمذي (٣٥٠٩)، والبيهقي (٥٢٩) في «شعب الإيمان»، عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وقال في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥١١): حسن لغيره. وانظر «الصحيحة» (٦/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٥) في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ومسلم (١٣٩٠) في كتاب الحج، عن عبد الله بن زيد المازني.

لذة العلم

وَلَارَيْبَ أَنَّ لَذَّةَ الْعِلْمِ أَعْظَمُ اللَّذَّاتِ، و(اللَّذَّةُ) الَّتِي تَبْقَى بَعْدَ الْمَوْتِ وَتَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ هِيَ لَذَّةُ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَالْعَمَلِ لَهُ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهِ. (١٤/ ١٦٢).

علاج العشق

وَقَدْ ذَكَرَ النَّاسُ مِنْ أَخْبَارِ الْعُشَّاقِ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ، فَإِذَا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُ بِبَعْضِ ذَلِكَ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ مَأْمُورٌ بِهَذَا الْجِهَادِ، وَلَيْسَ هُوَ أَمْرًا حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيَكُونَ فِي طَاعَةِ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ؛ بَلْ هُوَ أَمْرٌ حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا حِيلَةَ فِيهِ فَتَكُونَ الْمُجَاهِدَةُ لِلنَّفْسِ فِي طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي يَحْيَى الْقَتَّاتِ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «**مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ وَكَتَمَ وَصَبَرَ ثُمَّ مَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ**»(١)، وَأَبُو يَحْيَى فِي حَدِيثِهِ نَظَرٌ؛ لَكِنَّ الْمَعْنَى الَّذِي ذُكِرَ فِيهِ دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ فَإِنَّ اللهَ أَمَرَهُ بِالتَّقْوَى وَالصَّبْرِ، فَمِنْ التَّقْوَى أَنْ يَعِفَّ عَنْ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ مِنْ نَظَرٍ بِعَيْنٍ، وَمِنْ لَفْظٍ بِلِسَانٍ، وَمِنْ حَرَكَةٍ بِيَدٍ وَرِجْلٍ.

وَالصَّبْرُ أَنْ يَصْبِرَ عَنْ شَكْوَى بِهِ إِلَى غَيْرِ الله، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ.

وَأَمَّا الْكِتْمَانُ فَيُرَادُ بِهِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا- أَنْ يَكْتُمَ بَثَّهُ وَأَلَمَهُ، وَلَا يَشْكُوَ إِلَى غَيْرِ الله، فَمَتَى شَكَا إِلَى غَيْرِ اللهِ نَقَصَ صَبْرُهُ، وَهَذَا أَعْلَى الكتمانين؛ لَكِنَّ هَذَا لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ؛ بَلْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَشْكُو مَا بِهِ، وَهَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ، فَإِنْ شَكَا ذَلِكَ إِلَى طَبِيبٍ يَعْرِفُ طِبَّ النُّفُوسِ لِيُعَالِجَ نَفْسَهُ بِعِلَاجِ الْإِيمَانِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُسْتَفْتِي، وَهَذَا حَسَنٌ، وَإِنْ شَكَا إِلَى مَنْ يُعِينُهُ عَلَى الْمُحَرَّمِ

(١) موضوع. انظر «ضعيف الجامع»(٥٦٩٧) للعلامة الألباني.

فَهَذَا حَرَامٌ، وَإِنْ شَكَا إِلَى غَيْرِهِ لِمَا فِي الشَّكْوَى مِنْ الرَّاحَةِ، كَمَا أَنَّ الْمُصَابَ يَشْتَكِي مُصِيبَتَهُ إِلَى النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْصِدَ تَعَلُّمَ مَا يَنْفَعُهُ، وَلَا الِاسْتِعَانَةَ عَلَى مَعْصِيَةٍ، فَهَذَا يَنْقُصُ صَبْرُهُ؛ لَكِنْ لَا يَأْثَمُ مُطْلَقًا إلَّا إذَا اقْتَرَنَ بِهِ مَا يَحْرُمُ، كَالْمُصَابِ الَّذِي يَتَسَخَّطُ.

والثَّانِي- أَنْ يَكْتُمَ ذَلِكَ فَلَا يَتَحَدَّثَ بِهِ مَعَ النَّاسِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إظْهَارِ السُّوءِ وَالْفَاحِشَةِ، فَإِنَّ النُّفُوسَ إذَا سَمِعَتْ مِثْلَ هَذَا تَحَرَّكَت وَتَشَهَّتْ وَتَمَنَّتْ وتتيمت، وَالْإِنْسَانُ مَتَى رَأَى أَوْ سَمِعَ أَوْ تَخَيَّلَ مَنْ يَفْعَلُ مَا يَشْتَهِيهِ كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُ إلَى الْفِعْلِ، وَالنِّسَاءُ مَتَى رَأَيْنَ الْبَهَائِمَ تَنْزُو الذُّكُورَ مِنْهَا عَلَى الْإِنَاثِ مِلْنَ إلَى الْبَاءَةِ وَالْمُجَامَعَةِ، وَالرَّجُلُ إذَا سَمِعَ مَنْ يَفْعَلُ مَعَ المردان وَالنِّسَاءِ، أَوْ رَأَى ذَلِكَ، أَوْ تَخَيَّلَهُ فِي نَفْسِهِ؛ دَعَاهُ ذَلِكَ إلَى الْفِعْلِ، وَإِذَا ذَكَرَ الْإِنْسَانُ طَعَامًا اشْتَهَاهُ وَمَالَ إلَيْهِ، وَإِنْ وَصَفَ لَهُ مَا يَشْتَهِيهِ مِنْ لِبَاسٍ أَوْ امْرَأَةٍ أَوْ مَسْكَنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ مَالَتْ نَفْسُهُ إلَيْهِ، وَالْغَرِيبُ عَنْ وَطَنِهِ مَتَى ذُكِّرَ بِالْوَطَنِ حَنَّ إلَيْهِ، فَكُلُّ مَا كَانَ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مَحَبَّتُهُ إذَا تَصَوَّرَهُ تَحَرَّكَتْ الْمَحَبَّةُ وَالطَّلَبُ إلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ الْمَطْلُوبِ، إمَّا إلَى وَصْفِهِ، وَإِمَّا إلَى مُشَاهَدَتِهِ، وَكِلَاهُمَا يَحْصُلُ بِهِ تَخَيُّلٌ فِي النَّفْسِ، وَقَدْ يَحْصُلُ التَّخَيُّلُ بِالسَّمَاعِ وَالرُّؤْيَةِ، أَوْ التَّفَكُّرِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ، فَإِذَا تَخَيَّلَت النَّفْسُ تِلْكَ الْأُمُورَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهِ انْقَلَبَتْ إلَى تَخَيُّلَةٍ أُخْرَى، فَتَحَرَّكَتْ دَاعِيَةُ الْمَحَبَّةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ الْمَحَبَّةُ مَحْمُودَةً أَوْ مَذْمُومَةً، وَلِهَذَا تَتَحَرَّكُ النُّفُوسُ إلَى الْحَجِّ إذَا ذُكِرَ الْحِجَازُ، وَتَتَحَرَّكُ بِذِكْرِ الْأَبْرَقِ وَالْأَجْرَعِ وَالْعَلِيِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ رَأَى تِلْكَ الْمَنَازِلَ لَمَّا كَانَ ذَاهِبًا إلَى الْمَحْبُوبِ، فَصَارَ ذِكْرُهَا يَذْكُرُ الْمَحْبُوبَ، وَكَذَلِكَ إذَا ذُكِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذَكَّرَ بِهِ وَتَحَرَّكَتْ مَحَبَّتُهُ.

فَالْمُبْتَلَى بِالْفَاحِشَةِ وَالْعِشْقِ إِذَا ذَكَرَ مَا بِهِ لِغَيْرِهِ تَحَرَّكَتْ النُّفُوسُ إِلَى جِنْسِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الصُّوَرِ الْجَمِيلَةِ؛ فَإِذَا تَصَوَّرَتْ جِنْسَ ذَلِكَ تَحَرَّكَتْ إِلَى الْمَحْبُوبِ؛ وَلِهَذَا نَهَى اللهُ عَنْ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ. (١٤/ ٢٠٧ـ ٢١٠).

كل على شاكلته

فَإِذَا تَدَبَّرَ الْعَبْدُ عَلِمَ أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ الْحَسَنَاتِ مِنْ فَضْلِ الله، فَشَكَرَ اللهَ، فَزَادَهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَمَلًا صَالِحًا، وَنِعَمًا يُفِيضُهَا عَلَيْهِ.

وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الشَّرَّ لَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ بِذُنُوبِهِ؛ اسْتَغْفَرَ وَتَابَ، فَزَالَ عَنْهُ سَبَبُ الشَّرِّ، فَيَكُونُ الْعَبْدُ دَائِمًا شَاكِرًا مُسْتَغْفِرًا؛ فَلَا يَزَالُ الْخَيْرُ يَتَضَاعَفُ لَهُ، وَالشَّرُّ يَنْدَفِعُ عَنْهُ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ[1]: «**الْحَمْدُ للهِ**». فَيَشْكُرُ اللهَ، ثُمَّ يَقُولُ: «**نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ**». نَسْتَعِينُهُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ الْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «**وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**». فَيَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ الشَّرِّ الَّذِي فِي النَّفْسِ، وَمِنْ عُقُوبَةِ عَمَلِهِ، فَلَيْسَ الشَّرُّ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ عَمَلِ نَفْسِهِ، فَيَسْتَعِيذُ اللهَ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ: أَنْ يَعْمَلَ بِسَبَبِ سَيِّئَاتِهِ الْخَطَايَا. ثُمَّ إِذَا عَمِلَ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ سَيِّئَاتِ عَمَلِهِ، وَمِنْ عُقُوبَاتِ عَمَلِهِ، فَاسْتَعَانَهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَأَسْبَابِهَا، وَاسْتَعَاذَ بِهِ مِنْ الْمَعْصِيَةِ وَعِقَابِهَا.

فَعِلْمُ الْعَبْدِ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللهِ، وَمَا أَصَابَهُ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِهِ: يُوجِبُ لَهُ هَذَا وَهَذَا. فَهُوَ سُبْحَانَهُ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا هُنَا، بَعْدَ أَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨].

فَبَيَّنَ أَنَّ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ: النِّعَمَ وَالْمَصَائِبَ، وَالطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي، عَلَى قَوْلِ مَنْ أَدْخَلَهَا فِي ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) هذا الحديث معروف بـ «خطبة الحاجة»، ولشيخنا العلامة الألباني رسالة نافعة بنفس العنوان.

ثُمَّ بَيَّنَ الْفَرْقَ الَّذِي يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْخَيْرَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ، فَاشْكُرُوهُ يَزِدْكُمْ. وَهَذَا الشَّرُّ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَدْفَعْهُ عَنْكُمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود:١-٣]، وَالْمُذْنِبُ إِذَا اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ مِنْ ذَنْبِهِ فَقَدْ تَأَسَّى بِالسُّعَدَاءِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَآدَمَ وَغَيْرِهِ. وَإِذَا أَصَرَّ، وَاحْتَجَّ بِالْقَدَرِ، فَقَدْ تَأَسَّى بِالْأَشْقِيَاءِ، كإبليس وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْغَاوِينَ. (١٤/ ٢٦١ـ ٢٦٣).

الجنة طيبة ولها أهلها

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ يُعَاشِرُونَ النَّاسَ كَالسَّنَانِيرِ(١)؛ لَمْ يَصْلُحْ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُجْعَلَ الَّذِي يَكْذِبُ شَاهِدًا عَلَى النَّاسِ؛ لَمْ يَصْلُحْ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الْجَاهِلَ مُعَلِّمًا لِلنَّاسِ مُفْتِيًا لَهُمْ، أَوْ يَجْعَلَ الْعَاجِزَ الْجَبَانَ مُقَاتِلًا عَنِ النَّاسِ، أَوْ يَجْعَلَ الْأَحْمَقَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ شَيْئًا سَائِسًا لِلنَّاسِ أَوْ لِلدَّوَابِّ- فَمِثْلُ هَذَا يُوجِبُ الْفَسَادَ فِي الْعَالَمِ، وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ مُمْكِنٍ، مِثْلُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الْحِجَارَةَ تَسْبَحُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ كَالسُّفُنِ، أَوْ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَالرِّيحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) السنانير جمع سنور، وهو القط حيوان أليف من الفصيلة السنورية، ورتبة اللواحم، من خير مآكله الفأر، ومنه أهلي وبري. وقال في المصباح المنير: الهر، والأنثى «سِنَّوْرَةٌ». قال ابن الأنباري: وهما قليل في كلام العرب، والأكثر أن يقال هرّ وضيون، والجمع «سَنَانِيرٌ».

فَالنُّفُوسُ الْخَبِيثَةُ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ فِي الْجَنَّةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مِنْ الْخُبْثِ شَيْءٌ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِلْفَسَادِ، أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ، بَلْ إِذَا كَانَ فِي النَّفْسِ خُبْثٌ طُهِّرَتْ وَهُذِّبَتْ حَتَّى تَصْلُحَ لِسُكْنَى الْجَنَّةِ.

كَمَا فِي الصَّحِيحِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا نَجَوْا مِنَ النَّارِ -أَيْ عَبَرُوا الصِّرَاطَ- وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ**»[1].

وَهَذَا مِمَّا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»[2].

وَالتَّهْذِيبُ: التَّخْلِيصُ، كَمَا يُهَذَّبُ الذَّهَبُ، فَيَخْلُصُ مِنْ الْغِشِّ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْجَنَّةَ إِنَّمَا يَدْخُلُهَا الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ التَّهْذِيبِ وَالتَّنْقِيَةِ مِنْ بَقَايَا الذُّنُوبِ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ يَعْبُرُ بِهَا الصِّرَاطَ؟. (١٤/ ٣٤٣ـ ٣٤٥).

جذور الشرك

أَصْلُ الشِّرْكِ فِي بَنِي آدَمَ كَانَ مِنَ الشِّرْكِ بِالْبَشَرِ الصَّالِحِينَ الْمُعَظَّمِينَ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٥) في كتاب الرقاق.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٥) في كتاب الرقاق.

فَهَذَا أَوَّلُ شِرْكٍ كَانَ فِي بَنِي آدَمَ، وَكَانَ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الشِّرْكِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح:٢٣-٢٤]، وَهَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا جَعَلُوا الْأَصْنَامَ عَلَى صُوَرِهِمْ، ثُمَّ ذَهَبَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ أَهْلَ الْأَرْضِ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى الْعَرَبِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ[1]. إِنْ لَمْ تَكُنْ أَعْيَانَهَا، وَإِلَّا فَهِيَ نَظَائِرُهَا.

وَأَمَّا الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ فَهَذَا كَثِيرٌ، فَمَتَى لَمْ يُؤْمِن الْخَلْقُ بِأَنَّهُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، بِمَعْنَى أَنَّهُ الْمَعْبُودُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُعْبَدَ وَأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُعْبَدَ وَأَنَّهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَا أَحَبَّهُ مِمَّا شَرَعَ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ- فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعُوا فِي الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ. (١٤/ ٣٦٣).

لا حدود لما يفسده المبتدعون

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ[2] لَمَّا قَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ فِي الْمَنَامِ: لِي فِيكُمْ لَطِيفَتَانِ السَّمَاعُ وَصُحْبَةُ الْأَحْدَاثِ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: قَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُمَا مِنْ أَصْحَابِنَا، حَتَّى [إِنَّهُمْ] لِقُوَّةِ مَحَبَّةِ نُفُوسِهِمْ [لَهُ] صَارَ ذَلِكَ مُمْتَزِجًا بِطَرِيقِهِمْ إِلَى الله، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ الشَّاهِدِ مِنْ الرَّغْبَةِ فِيمَا اعْتَادَهُ مِنْ الْعِبَادَةِ وَالزَّهَادَةِ مَا لَا يَجِدُهَا بِدُونِ ذَلِكَ، وَعِنْدَهُ فِي نَفْسِهِ عِنْدَ سَمَاعِ الْقَصَائِدِ مِنْ الشَّوْقِ وَالرَّغْبَةِ وَالنَّشَاطِ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَصَارُوا فِي شُبْهَةٍ وَشَهْوَةٍ، لَمْ يَكْتَفِ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ بِوُقُوعِهِمْ فِي الْأُمُورِ الْمُحَرَّمَةِ الَّتِي تَفْتِنُهُمْ، حَتَّى جَعَلَهُمْ يَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ عِبَادَةً، كَالَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَإِذَا

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/ ٢٦٢ـ الشعب).

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٢٠).

فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ. وَإِذَا وَقَعُوا فِي السَّمَاعِ وَقَعُوا فِيهِ بِشَوْقٍ وَرَغْبَةٍ قَوِيَّةٍ، وَمَحَبَّةٍ تَامَّةٍ، وَبَذَلُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَقَدْ يَبْذُلُونَ فِيهِ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، وَيَدْخُلُونَ فِي الدِّيَاثَةِ لِأَغْرَاضِهِمْ، فَيَأْتِي أَحَدُهُمْ بِوَلَدِهِ فَيَهَبُهُ لِلشَّيْخِ يَفْعَلُ مَا أَرَادَ هُوَ وَمَنْ يَلُوذُ بِهِ، وَيُسَمُّونَهُ حِوَارًا، وَإِنْ كَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ اسْتَأْثَرَ بِهِ الشَّيْخُ دُونَهُمْ، وَيَعُدُّ أَهْلُهُ ذَلِكَ بَرَكَةً حَصَلَتْ لَهُ مِنْ الشَّيْخِ، وَيَرْتَفِعُ الْحَيَاءُ بَيْنَ أُمِّ الصَّبِيِّ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ الْفُقَرَاءِ.

وَإِذَا صَلَّوْا صَلَّوْا صَلَاةَ الْمُنَافِقِينَ، يَقُومُونَ إلَيْهَا وَهُمْ كُسَالَى، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، فَقَدْ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، وَمَعَ هَذَا فَهُمْ قَدْ يَزْهَدُونَ فِي بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا اللهُ لَهُمْ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي عِبَادَاتٍ وَأَذْكَارٍ، لَكِنْ مَعَ بِدْعَةٍ وَأَفْعَالٍ لَا تَجُوزُ، مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فَتِلْكَ الْبِدْعَةُ هِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْهُمْ فِي اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ وَإِضَاعَةِ الصَّلَوَاتِ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ مِثَالُهَا مِثَالُ سَفِينَةِ نُوحٍ؛ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ. وَهَؤُلَاءِ تَخَلَّفُوا عَنْهَا فَغَرِقُوا بِحُبِّهِمْ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ.

وَالسَّالِكُونَ لِلشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ إذَا ابْتُلُوا بِالذُّنُوبِ لَمْ تَكُن التَّوْبَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ الْآصَارِ وَالْأَغْلَالِ؛ بَلْ مِنْ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدَعِ فَقَدْ تَكُونُ التَّوْبَةُ عَلَيْهِمْ آصَارًا وَأَغْلَالًا، كَمَا كَانَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا مِنْ الرُّهْبَانِ، فَإِنَّهُمْ إذَا وَقَعَ أَحَدُهُمْ فِي الذَّنْبِ لَمْ يَخْلُصْ مِنْ شَرِّهِ إلَّا بِبَلَاءِ شَدِيدٍ مِنْ أَجْلِ خُرُوجِهِ عَنْ السُّنَّةِ.

وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَظُنُّ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ السُّلُوكُ إلَى اللهِ تَعَالَى إلَّا بِبِدْعَةٍ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفُجُورِ الْمُتْرَفِينَ قَدْ يَظُنُّ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ فِعْلُ الْوَاجِبَاتِ إلَّا بِمَا يَفْعَلُهُ مِنْ الذُّنُوبِ، وَلَا يُمْكِنُهُ تَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ إلَّا بِذَلِكَ، وَهَذَا يَقَعُ لِبِشْرٍ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ. (١٤/ ٤٦٦).

فوائد عظيمة في آية كريمة

قَالَ تعالى: ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥]. وَإِنَّمَا يَتِمُّ الِاهْتِدَاءُ إِذَا أُطِيعَ اللهُ، وَأُدِّيَ الْوَاجِبُ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَغَيْرِهِمَا؛ وَلَكِنَّ فِي الْآيَةِ فَوَائِدَ عَظِيمَةً:

أَحَدُهَا- أَلَّا يَخَافَ الْمُؤْمِنُ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوهُ إذَا كَانَ مُهْتَدِيًا.

الثَّانِي- أَلَّا يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَجْزَعَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ مَعَاصِيَهُمْ لَا تَضُرُّهُ إذَا اهْتَدَى، وَالْحُزْنُ عَلَى مَا لَا يَضُرُّ عَبَثٌ.

وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧].

الثَّالِثُ- أَلَّا يَرْكَنَ إلَيْهِمْ وَلَا يَمُدَّ عَيْنَهُ إلَى مَا أُوتُوهُ مِنْ السُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالشَّهَوَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الحجر:٨٨]، فَنَهَاهُ عَنْ الْحُزْنِ عَلَيْهِمْ، وَالرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَهُمْ فِي آيَةٍ، وَنَهَاهُ عَنْ الْحُزْنِ عَلَيْهِمْ وَالرَّهْبَةِ مِنْهُمْ فِي آيَةٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَأَلَّمُ عَلَيْهِمْ وَمِنْهُمْ، إمَّا رَاغِبًا وَإِمَّا رَاهِبًا.

الرَّابِعُ- أَلَّا يَعْتَدِيَ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي بِزِيَادَةٍ عَلَى الْمَشْرُوعِ فِي بُغْضِهِمْ، أَوْ ذَمِّهِمْ، أَوْ نَهْيِهِمْ، أَوْ هَجْرِهِمْ، أَوْ عُقُوبَتِهِمْ؛ بَلْ يُقَالُ لِمَنْ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ: عَلَيْك نَفْسَك، لَا يَضُرُّك مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْت. كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾ [المائدة:٢]. وَقَالَ: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠]، وَقَالَ: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣]، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْآمِرِينَ النَّاهِينَ قَدْ يَتَعَدَّى حُدُودَ اللهِ، إمَّا بِجَهْلٍ، وَإِمَّا بِظُلْمٍ، وَهَذَا بَابٌ يَجِبُ التَّثَبُّتُ فِيهِ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ الْإِنْكَارُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْفَاسِقِينَ وَالْعَاصِينَ.

الْخَامِسُ- أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ؛ مِنْ الْعِلْمِ، وَالرِّفْقِ، وَالصَّبْرِ، وَحُسْنِ الْقَصْدِ، وَسُلُوكِ السَّبِيلِ الْقَصْدِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

فَهَذِهِ خَمْسَةُ أَوْجُهٍ تُسْتَفَادُ مِنْ الْآيَةِ لِمَنْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَفِيهَا الْمَعْنَى الْآخَرُ. (١٤/ ٤٨٠).

العلماء والأمراء

قِيلَ: صِنْفَانِ إذَا صَلَحُوا صَلَحَ النَّاسُ؛ الْعُلَمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ. وَكَمَا أَنَّ الْمَنْفَعَةَ فِيهِمَا، فَالْمَضَرَّةُ مِنْهُمَا، فَإِنَّ الْبِدَعَ وَالظُّلْمَ لَا تَكُونُ إلَّا فِيهِمَا: أَهْلِ الرِّيَاسَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَأَهْلِ الرِّيَاسَةِ الْقَدَرِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ؛ كَالثَّوْرِيِّ، وَابْنِ عُيَيْنَة، وَغَيْرِهِمَا، مَا مَعْنَاهُ: أَنَّ مَنْ نَجَا مِنْ فِتْنَةِ الْبِدَعِ، وَفِتْنَةِ السُّلْطَانِ؛ فَقَدْ نَجَا مِنْ الشَّرِّ كُلِّهِ. وَقَدْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِي هَذَا فِي (الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ)، عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩]. (١٤/ ٤٩٤).

تنبيهات غالية

- لَا تَزُولُ الْفِتْنَةُ عَنْ الْقَلْبِ إلَّا إذَا كَانَ دِينُ الْعَبْدِ كُلِّهِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيَكُونُ حُبُّهُ للهِ وَلِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَبُغْضُهُ للهِ وَلِمَا يُبْغِضُهُ اللهُ. (١٠/ ٦٠١).
- يَنْبَغِي (للعبد) أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافِ وَهَلَعٍ، بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْخَلَاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ، وَالسَّعْيُ فِيهِ إذَا سَعَى كَإِصْلَاحِ الْخَلَاءِ. (١٠/ ٦٦٣).

❁ تَنَازَعَ النَّاسُ أَيُّمَا أَفْضَلُ: الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَوْ الْغَنِيُّ الشَّاكِرُ ؟ وَالصَّحِيحُ: أَنَّ أَفْضَلَهُمَا أَتْقَاهُمَا؛ فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي التَّقْوَى اسْتَوَيَا فِي الدَّرَجَةِ. (١١/ ٢١).

❁ الِاعْتِدَاءُ فِي الدُّعَاءِ تَارَةً بِأَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ لَهُ سُؤَالُهُ مِنْ الْمَعْصُومَةِ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ، وَتَارَةً يَسْأَلُ مَا لَا يَفْعَلُهُ اللهُ مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَ تَخْلِيدَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ يَسْأَلَهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ لَوَازِمَ الْبَشَرِيَّةِ: مِنْ الْحَاجَةِ إلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَسْأَلَهُ بِأَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى غَيْبِهِ أَوْ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ الْمَعْصُومِينَ أَوْ يَهَبَ لَهُ وَلَدًا مِنْ غَيْرِ زَوْجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا سُؤَالُهُ اعْتِدَاءٌ لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَلَا يُحِبُّ سَائِلَهُ . وَفُسِّرَ الِاعْتِدَاءُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ أَيْضًا فِي الدُّعَاءِ. (١٥/ ٢٢).

❁ إنَّ الْهِلَالَ إذَا ثَبَتَ فِي أَثْنَاءِ يَوْمٍ قَبْلَ الْأَكْلِ أَوْ بَعْدَهُ أَتَمُّوا وَأَمْسَكُوا وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِمْ كَمَا لَوْ بَلَغَ صَبِيٌّ أَوْ أَفَاقَ مَجْنُونٌ عَلَى أَصَحِّ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ . (٢٥/ ١٠٩).

بطلان حجة إبليس من خمسة وجوه

حُجَّةُ إبْلِيسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، هِيَ بَاطِلَةٌ لِأَنَّهُ عَارَضَ النَّصَّ بِالْقِيَاسِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إبْلِيسُ، وَمَا عُبِدَتْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إلَّا بِالْمَقَايِيسِ. وَيَظْهَرُ فَسَادُهَا بِالْعَقْلِ مِنْ وُجُوهٍ خَمْسَةٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّهُ ادَّعَى أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنْ الطِّينِ، وَهَذَا قَدْ يُمْنَعُ، فَإِنَّ الطِّينَ فِيهِ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَالِاسْتِقْرَارُ وَالثَّبَاتُ وَالْإِمْسَاكُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَفِي النَّارِ الْخِفَّةُ وَالْحِدَّةُ وَالطَّيْشُ، وَالطِّينُ فِيهِ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ.

الثَّانِي- أَنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَّارُ خَيْرًا مِنْ الطِّينِ فَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَخْلُوقُ مِنْ الْأَفْضَلِ أَفْضَلَ، فَإِنَّ الْفَرْعَ قَدْ يُخْتَصُّ بِمَا لَا يَكُونُ فِي أَصْلِهِ، وَهَذَا التُّرَابُ يُخْلَقُ مِنْهُ

مِنْ الْحَيَوَانِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَالِاحْتِجَاجُ عَلَى فَضْلِ الْإِنْسَانِ عَلَى غَيْرِهِ بِفَضْلِ أَصْلِهِ عَلَى أَصْلِهِ حُجَّةٌ فَاسِدَةٌ احْتَجَّ بِهَا إِبْلِيسُ، وَهِيَ حُجَّةُ الَّذِينَ يَفْخَرُونَ بِأَنْسَابِهِمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَصَّرَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَبْلُغْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

الثَّالِثُ- أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنْ طِينٍ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ بِنَفْخِ الرُّوحِ الْمُقَدَّسَةِ فِيهِ مَا شُرِّفَ بِهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:٧٢]، فَعُلِّقَ السُّجُودُ بِأَنْ يَنْفُخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، فَالْمُوجِبُ لِلتَّفْضِيلِ هَذَا الْمَعْنَى الشَّرِيفُ الَّذِي لَيْسَ لإبليس مِثْلُهُ.

الرَّابِعُ- أَنَّهُ مَخْلُوقٌ بِيَدَيْ اللهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وَهُوَ كَالْأَثَرِ الْمَرْوِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُرْسَلًا، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو فِي تَفْضِيلِهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، حَيْثُ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ: «يَا رَبِّ قَدْ خَلَقْتَ لِبَنِي آدَمَ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَيَلْبَسُونَ وَيَنْكِحُونَ؛ فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ كَمَا جَعَلْت لَهُمْ الدُّنْيَا. فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ. ثُمَّ أَعَادُوا، فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ. ثُمَّ أَعَادُوا فَقَالَ: وَعِزَّتِي، لَا أَجْعَلُ صَالِحَ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَنْ قُلْت لَهُ: كُنْ. فَكَانَ».

الْخَامِسُ- أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ أَنَّهُ أَفْضَلُ، فَقَدْ يُقَالُ: إكْرَامُ الْأَفْضَلِ لِلْمَفْضُولِ لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ. (١٥/ ٦).

فائدة شريفة نافعة في إخفاء الدعاء

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، يَتَنَاوَلُ نَوْعَيْ الدُّعَاءِ؛ لَكِنَّهُ ظَاهِرٌ فِي دُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ، مُتَضَمِّنٌ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ، وَلِهَذَا أَمَرَ بِإِخْفَائِهِ وَإِسْرَارِهِ.

---

(١) بنحوه رواه مسلم وأبو داود وغيرهما بلفظ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» عن أبي هريرة.

قَالَ الْحَسَنُ: بَيْنَ دَعْوَةِ السِّرِّ وَدَعْوَةِ الْعَلَانِيَةِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ. أَيْ: مَا كَانَتْ إِلَّا هَمْسًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، وَأَنَّهُ ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا، وَرَضِيَ بِفِعْلِهِ، فَقَالَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣].

وَفِي إِخْفَاءِ الدُّعَاءِ فَوَائِدُ عَدِيدَةٌ:

أَحَدُهَا- أَنَّهُ أَعْظَمُ إِيمَانًا؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ.

وَثَانِيهَا- أَنَّهُ أَعْظَمُ فِي الْأَدَبِ وَالتَّعْظِيمِ؛ لِأَنَّ الْمُلُوكَ لَا تُرْفَعُ الْأَصْوَاتُ عِنْدَهُمْ، وَمَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ لَدَيْهِمْ مَقَتُوهُ، وَلِلهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، فَإِذَا كَانَ يَسْمَعُ الدُّعَاءَ الْخَفِيَّ فَلَا يَلِيقُ بِالْأَدَبِ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا خَفْضُ الصَّوْتِ بِهِ.

وَثَالِثُهَا- أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي التَّضَرُّعِ وَالْخُشُوعِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الدُّعَاءِ وَلُبُّهُ وَمَقْصُودُهُ، فَإِنَّ الْخَاشِعَ الذَّلِيلَ إِنَّمَا يَسْأَلُ مَسْأَلَةَ مِسْكِينٍ ذَلِيلٍ قَدْ انْكَسَرَ قَلْبُهُ، وَذَلَّتْ جَوَارِحُهُ، وَخَشَعَ صَوْتُهُ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَكَادُ تَبْلُغُ ذِلَّتُهُ وَسَكِينَتُهُ وَضَرَاعَتُهُ إِلَى أَنْ يَنْكَسِرَ لِسَانُهُ فَلَا يُطَاوِعَهُ بِالنُّطْقِ. وَقَلْبُهُ يَسْأَلُ طَالِبًا مُبْتَهِلًا، وَلِسَانُهُ لِشِدَّةِ ذِلَّتِهِ سَاكِت، وَهَذِهِ الْحَالُ لَا تَأْتِي مَعَ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالدُّعَاءِ أَصْلًا.

وَرَابِعُهَا- أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْإِخْلَاصِ.

وَخَامِسُهَا- أَنَّهُ أَبْلَغُ فِي جَمْعِيَّةِ الْقَلْبِ عَلَى الذِّلَّةِ فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ يُفَرِّقُهُ، فَكُلَّمَا خَفَضَ صَوْتَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَجْرِيدِ هِمَّتِهِ وَقَصْدِهِ لِلْمَدْعُوِّ سُبْحَانَهُ.

وَسَادِسُهَا- وَهُوَ مِنْ النُّكَتِ الْبَدِيعَةِ جِدًّا: أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى قُرْبِ صَاحِبِهِ لِلْقَرِيبِ، لَا مَسْأَلَةِ نِدَاءِ الْبَعِيدِ لِلْبَعِيدِ؛ وَلِهَذَا أَثْنَى اللهُ عَلَى عَبْدِهِ زَكَرِيَّا بِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ

نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم:٣]، فَلَمَّا اسْتَحْضَرَ الْقَلْبُ قُرْبَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ؛ أَخْفَى دُعَاءَهُ، مَا أَمْكَنَهُ. وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ، وَهُمْ مَعَهُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: «**أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»(١)، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وَهَذَا الْقُرْبُ مِنَ الدَّاعِي هُوَ قُرْبٌ خَاصٌّ لَيْسَ قُرْبًا عَامًّا مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ دَاعِيهِ، وَقَرِيبٌ مِنْ عَابِدِيهِ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ.

وقَوْله تَعَالَى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف:٥٥]، فِيهِ الْإِرْشَادُ وَالْإِعْلَامُ بِهَذَا الْقُرْبِ.

وسَابِعُهَا- أَنَّهُ أَدْعَى إِلَى دَوَامِ الطَّلَبِ وَالسُّؤَالِ، فَإِنَّ اللِّسَانَ لَا يَمَلُّ، وَالْجَوَارِحَ لَا تَتْعَبُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمَلُّ اللِّسَانُ وَتَضْعُفُ قُوَاهُ. وَهَذَا نَظِيرُ مَنْ يَقْرَأُ وَيُكَرِّرُ، فَإِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ فَإِنَّهُ لَا يَطُولُ لَهُ؛ بِخِلَافِ مَنْ خَفَضَ صَوْتَهُ.

وثَامِنُهَا- أَنَّ إِخْفَاءَ الدُّعَاءِ أَبْعَدُ لَهُ مِنَ الْقَوَاطِعِ وَالْمُشَوِّشَاتِ؛ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِذَا أَخْفَى دُعَاءَهُ لَمْ يَدْرِ بِهِ أَحَدٌ، فَلَا يَحْصُلُ عَلَى هَذَا تَشْوِيشٌ وَلَا غَيْرُهُ، وَإِذَا جَهَرَ بِهِ فَرَطَتْ لَهُ الْأَرْوَاحُ الْبَشَرِيَّةُ، وَلَا بُدَّ ،وَمَانَعَتْهُ وَعَارَضَتْهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّ تَعَلُّقَهَا بِهِ يُفْزِعُ عَلَيْهِ هِمَّتَهُ؛ فَيَضْعُفُ أَثَرُ الدُّعَاءِ، وَمَنْ لَهُ تَجْرِبَةٌ يَعْرِفُ هَذَا، فَإِذَا أَسَرَّ الدُّعَاءَ أَمِنَ هَذِهِ الْمَفْسَدَةَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٦) في كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٠٤) في كتاب الذكر والدعاء، عن أبي موسى.

وتَاسِعُهَا- أَنَّ أَعْظَمَ النِّعْمَةِ الْإِقْبَالُ وَالتَّعَبُّدُ، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدٌ عَلَى قَدْرِهَا، دَقَّتْ أَوْ جَلَّتْ، وَلَا نِعْمَةَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَإِنَّ أَنْفُسَ الْحَاسِدِينَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا، وَلَيْسَ لِلْمَحْسُودِ أَسْلَمُ مِنْ إخْفَاءِ نِعْمَتِهِ عَنْ الْحَاسِدِ. وَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥]، وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ قَلْبٍ وَجَمْعِيَّةٍ وَحَالٍ مَعَ اللهِ تَعَالَى قَدْ تَحَدَّثَ بِهَا، وَأَخْبَرَ بِهَا؛ فَسَلَبَهُ إيَّاهَا الْأَغْيَارُ، وَلِهَذَا يُوصِي الْعَارِفُونَ وَالشُّيُوخُ بِحِفْظِ السِّرِّ مَعَ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَالْقَوْمُ أَعْظَمُ شَيْئًا كِتْمَانًا لِأَحْوَالِهِمْ مَعَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَمَا وَهَبَ اللهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَالْأُنْسِ بِهِ، وَجَمْعِيَّةِ الْقَلْبِ، وَلَا سِيَّمَا فِعْلُهُ لِلْمُهْتَدِي السَّالِكِ، فَإِذَا تَمَكَّنَ أَحَدُهُمْ وَقَوِيَ، وَثَبَّتَ أُصُولَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ فِي قَلْبِهِ- بِحَيْثُ لَا يَخْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْعَوَاصِفِ، فَإِنَّهُ إذَا أَبْدَى حَالَهُ مَعَ اللهِ تَعَالَى لِيُقْتَدَى بِهِ وَيُؤْتَمَّ بِهِ - لَمْ يُبَالِ. وَهَذَا بَابٌ عَظِيمُ النَّفْعِ إنَّمَا يَعْرِفُهُ أَهْلُهُ.

وَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ الْمَأْمُورُ بِإِخْفَائِهِ يَتَضَمَّنُ دُعَاءَ الطَّلَبِ وَالثَّنَاءِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ تَعَالَى، فَهُوَ مِنْ عَظِيمِ الْكُنُوزِ الَّتِي هِيَ أَحَقُّ بِالْإِخْفَاءِ عَنْ أَعْيُنِ الْحَاسِدِينَ، وَهَذِهِ فَائِدَةٌ شَرِيفَةٌ نَافِعَةٌ. (١٥/ ١٥).

فائدة: صلاح العالَم وفساده

مَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ؛ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ الله، وَعِبَادَتُهُ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَكُلَّ شَرٍّ فِي الْعَالِمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ الله.

وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. (١٥/ ٢٥).

الذنب الذي يضر صاحبه

الذَّنْبُ الَّذِي يَضُرُّ صَاحِبَهُ هُوَ مَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ تَوْبَةٌ، فَأَمَّا مَا حَصَلَ مِنْهُ تَوْبَةٌ فَقَدْ يَكُونُ صَاحِبُهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَفْضَلَ مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانَ دَاوُد بَعْدَ التَّوْبَةِ أَحْسَنَ مِنْهُ حَالًا قَبْلَ الْخَطِيئَةِ -وَلَوْ كَانَتْ التَّوْبَةُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْكَبَائِرِ- فَإِنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ هُمْ خِيَارُ الْخَلِيقَةِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا صَارُوا كَذَلِكَ بِتَوْبَتِهِمْ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ، وَلَمْ يَكُنْ مَا تَقَدَّمَ قَبْلَ التَّوْبَةِ نَقْصًا وَلَا عَيْبًا؛ بَلْ لَمَّا تَابُوا مِنْ ذَلِكَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانُوا أَعْظَمَ إيمَانًا وَأَقْوَى عِبَادَةً وَطَاعَةً مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ. (١٥/ ٥٤).

ليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد

وَلَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ مِنْ الشَّيْطَانِ يُعَاقَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ؛ وَلَكِنْ يَفُوتُهُ بِهِ نَوْعٌ مِنْ الْحَسَنَاتِ؛ كَالنِّسْيَانِ، فَإِنَّهُ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَالِاحْتِلَامُ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَالنُّعَاسُ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَالصَّعْقُ عِنْدَ الذِّكْرِ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَلَا إثْمَ عَلَى الْعَبْدِ فِيمَا غُلِبَ عَلَيْهِ إذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَصْدٍ مِنْهُ أَوْ بِذَنْبٍ. (١٥/ ١٠٠).

من أعظم الظلم

الزِّنَا بِامْرَأَةِ الْغَيْرِ فِيهِ حَقَّانِ مَانِعَانِ، كُلٌّ مِنْهُمَا مُسْتَقِلٌّ بِالتَّحْرِيمِ، فَالْفَاحِشَةُ حَرَامٌ لِحَقِّ اللهِ -وَلَوْ رَضِيَ الزَّوْجُ- وَظُلْمُ الزَّوْجِ فِي امْرَأَتِهِ حَرَامٌ لِحَقِّ العبدِ، بِحَيْثُ لَوْ سَقَطَ حَقُّ اللهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ فَحَقُّ هَذَا فِي امْرَأَتِهِ لَا يَسْقُطُ، كَمَا لَوْ ظَلَمَهُ، وَأَخَذَ مَالَهُ، وَتَابَ مِنْ

حَقِّ اللهِ لَمْ يَسْقُطْ حَقُّ الْمَظْلُومِ بِذَلِكَ، وَلِهَذَا جَازَ لِلرَّجُلِ إِذَا زَنَتْ امْرَأَتُهُ أَنْ يَقْذِفَهَا وَيُلَاعِنَهَا، وَيَسْعَى فِي عُقُوبَتِهَا بِالرَّجْمِ، بِخِلَافِ الْأَجْنَبِيِّ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ قَذْفُهَا وَلَا يُلَاعِنُ، بَلْ يُحَدُّ إِذَا لَمْ يَأْتِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَإِفْسَادُ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ لِزَوْجِهَا، وَهُوَ عِنْدَهُ أَعْظَمُ مِنْ أَخْذِ مَالِهِ. (١٥/ ١٢١).

الخُلّة لغير الله عداوة

وَالنَّاسُ إِذَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ أَبْغَضَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوهُ بِتَرَاضِيهِمْ؛ قَالَ طَاوُوس: مَا اجْتَمَعَ رَجُلَانِ عَلَى غَيْرِ ذَاتِ اللهِ إِلَّا تَفَرَّقَا عَنْ تَقَالٍ. وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥]، وَهَؤُلَاءِ لَا يَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ عَصَى اللهَ؛ بَلْ لِمَا حَصَلَ لَهُ بِمُشَارَكَتِهِ وَمُعَاوَنَتِهِ مِنْ الضَّرَرِ، وَقَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم:٣٠]، أَيْ يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَالَ: ﴿الْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، فَالْمُخَالَّةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى غَيْرِ مَصْلَحَةِ الِاثْنَيْنِ كَانَتْ عَاقِبَتُهَا عَدَاوَةً، وَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى مَصْلَحَتِهِمَا إِذَا كَانَتْ فِي ذَاتِ اللهِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا، وَإِنْ بَذَلَ لِلْآخَرِ إِعَانَةً عَلَى مَا يَطْلُبُهُ، وَاسْتَعَانَ بِهِ بِإِذْنِهِ فِيمَا يَطْلُبُهُ، فَهَذَا التَّرَاضِي لَا اعْتِبَارَ بِهِ؛ بَلْ يَعُودُ تَبَاغُضًا وَتَعَادِيًا وَتَلَاعُنًا، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ: لَوْلَا أَنْتَ مَا فَعَلْتُ أَنَا وَحْدِي هَذَا؛ فَهَلَاكِي كَانَ مِنِّي وَمِنْك[1]. (١٥/ ١٢٨).

---

(١) انظر معنى آداب الخلة، وشروطها وآدابها، في كتابي «الأخلاء».

عبرة غالية

فِي قَوْلِ يُوسُفَ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف:٣٣] عِبْرَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا- اخْتِيَارُ السَّجْنِ وَالْبَلَاءِ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي.

والثَّانِيَةُ- طَلَبُ سُؤَالِ اللهِ وَدُعَائِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى دِينِهِ، وَيَصْرِفَهُ إِلَى طَاعَتِهِ، وَإِلَّا فَإِذَا لَمْ يُثَبِّتِ الْقَلْبَ صَبَا إِلَى الْآمِرِينَ بِالذُّنُوبِ، وَصَارَ مِنْ الْجَاهِلِينَ. (١٥/ ١٣٠).

الأذى في طاعة الله كرامة

الْمُؤْمِنُ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَارُ الْأَذَى فِي طَاعَةِ اللهِ عَلَى الْإِكْرَامِ، مَعَ مَعْصِيَتِهِ؛ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: اخْتَارَ الْقَيْدَ وَالْحَبْسَ وَالضَّرْبَ عَلَى مُوَافَقَةِ السُّلْطَانِ وَجُنْدِهِ عَلَى أَنْ يَقُولَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ فِي كَلَامِهِ، وَعَلَى أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ أَيْضًا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ بِكَلَامٍ يَعْرِفُ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُوَ بَاطِلٌ، وَبِكَلَامٍ مُجْمَلٍ يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ؛ فَيَقُولُ لَهُمْ الْإِمَامُ أَحْمَد: مَا أَدْرِي مَا هَذَا؟ فَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى أَنْ يَقُولَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا عَلَى أَنْ يَقُولَ عَلَى اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ. (١٥/ ١٣٧).

من أصول الإسلام

مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ أَنْ تُمَيِّزَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَلَا تَخْلِطَهُ بِغَيْرِهِ، وَلَا تَلْبِسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ؛ كَفِعْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَكْمَلَ لَنَا الدِّينَ، وَأَتَمَّ عَلَيْنَا النِّعْمَةَ، وَرَضِيَ لَنَا الْإِسْلَامَ دِينًا. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ؛ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[(١)]. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، وَخَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ، وَهَذِهِ السُّبُلُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣][(٢)]. وَجِمَاعُ ذَلِكَ بِحِفْظِ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- تَحْقِيقُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَا يُخْلَطُ بِمَا لَيْسَ مِنْهُ مِنْ الْمَنْقُولَاتِ الضَّعِيفَةِ، وَالتَّفْسِيرَاتِ الْبَاطِلَةِ، بَلْ يُعْطَى حَقَّهُ مِنْ مَعْرِفَةِ نَقْلِهِ وَدَلَالَتِهِ.

والثَّانِي- أَلَّا يُعَارِضَ ذَلِكَ بِالشُّبُهَاتِ، لَا رَأْيًا وَلَا رِوَايَةً. قَالَ اللهُ تَعَالَى، فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ عِبْرَةٌ لَنَا: ﴿وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤١-٤٢]. فَلَا يُكْتَمُ الْحَقُّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يُلْبَسُ بِغَيْرِهِ مِنْ الْبَاطِلِ، وَلَا يُعَارَضُ بِغَيْرِهِ. (١٥/ ١٥٥).

العبادة حب وذل

وَالْعِبَادَةُ: اسْمٌ يَجْمَعُ غَايَةَ الْحُبِّ لَهُ، وَغَايَةَ الذُّلِّ لَهُ، فَمَنْ ذَلَّ لِغَيْرِهِ مَعَ بُغْضِهِ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا، وَمَنْ أَحَبَّهُ مِنْ غَيْرِ ذُلٍّ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحَبَّ غَايَةَ الْمَحَبَّةِ؛ بَلْ يَكُونُ هُوَ الْمَحْبُوبَ الْمُطْلَقَ الَّذِي لَا يُحَبُّ شَيْءٌ إِلَّا لَهُ، وَأَنْ يُعَظَّمَ، وَيُذَلَّ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه (٤٣)، والحاكم (١/ ٩٦)، وانظر تخريجه في «الصحيحة» (٩٣٧)

(٢) حسن. أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥) والنسائي في الكبرى (١١١١٠)، وصححه الحاكم، وحسنه الألباني في «تخريج مشكاة المصابيح» (١٦٥).

لَهُ غَايَةَ الذُّلِّ؛ بَلْ لَا يُذَلُّ لِشَيْءٍ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ، وَمَنْ أَشْرَكَ غَيْرَهُ فِي هَذَا وَهَذَا؛ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَقِيقَةُ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ، فَإِنَّ الشِّرْكَ يُوجِبُ نَقْصَ الْمَحَبَّةِ. (١٥/ ١٦٢).

شروط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر

وَالْقِيَامُ بِالْوَاجِبَاتِ، مِنَ الدَّعْوَةِ الْوَاجِبَةِ وَغَيْرِهَا؛ يَحْتَاجُ إِلَى شُرُوطٍ يُقَامُ بِهَا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:

١- يَنْبَغِي لِمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنْ الْمُنْكَرِ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، فَقِيهًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ.

٢- رَفِيقًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، رَفِيقًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ.

٣- حَلِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، حَلِيمًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ.

فَالْفِقْهُ قَبْلَ الْأَمْرِ؛ لِيُعَرِّفَ الْمَعْرُوفَ، وَيُنْكِرَ الْمُنْكَرَ، وَالرِّفْقُ عِنْدَ الْأَمْرِ؛ لِيَسْلُكَ أَقْرَبَ الطُّرُقِ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ، وَالْحِلْمُ بَعْدَ الْأَمْرِ؛ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَى الْمَأْمُورِ الْمَنْهِيِّ، فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَحْصُلُ لَهُ الْأَذَى بِذَلِكَ. (١٥/ ١٦٧).

الدواء الناجع

وَالْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا أَدْوِيَةٌ نَافِعَةٌ، يُصْلِحُ اللهُ بِهَا مَرَضَ الْقُلُوبِ، وَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، الدَّاخِلَةِ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ النَّافِعَةَ، لِرَأْفَةٍ يَجِدُهَا بِالْمَرِيضِ، فَهُوَ الَّذِي أَعَانَ عَلَى عَذَابِهِ وَهَلَاكِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ؛ إِذْ هُوَ فِي ذَلِكَ جَاهِلٌ أَحْمَقُ، كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ الْجُهَّالِ بِمَرْضَاهُمْ، وَبِمَنْ يُرَبُّونَهُ مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ، وَغَيْرِهِمْ، فِي تَرْكِ تَأْدِيبِهِمْ وَعُقُوبَتِهِمْ عَلَى مَا يَأْتُونَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَيَتْرُكُونَهُ مِنَ الْخَيْرِ، رَأْفَةً

بِهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ فَسَادِهِمْ، وَعَدَاوَتِهِمْ، وَهَلَاكِهِمْ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ الرَّأْفَةُ بِهِمْ لِمُشَارَكَتِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَرَضِ، وَذَوْقِهِ مَا ذَاقُوهُ مِنْ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وَبُرُودَةِ الْقَلْبِ، وَالدِّيَاثَةِ، فَيَتْرُكُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ، وأديثهم فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَنُظَرَائِهِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمَرْضَى قَدْ وَصَفَ لَهُمُ الطَّبِيبُ مَا يَنْفَعُهُمْ، فَوَجَدَ كَبِيرُهُمْ مَرَارَتَهُ، فَتَرَكَ شُرْبَهُ، وَنَهَى عَنْ سَقْيِهِ لِلْبَاقِينَ. (١٥/ ٢٩٠).

الشيطان والإسراف

وَالشَّيْطَانُ يُرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ الْإِسْرَافَ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا:

١- فَإِنَّهُ إِنْ رَآهُ مَائِلًا إِلَى الرَّحْمَةِ زَيَّنَ لَهُ الرَّحْمَةَ، حَتَّى لَا يُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ؛ وَلَا يَغَارَ لِمَا يَغَارُ اللهُ مِنْهُ.

٢- وَإِنْ رَآهُ مَائِلًا إِلَى الشِّدَّةِ زَيَّنَ لَهُ الشِّدَّةَ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللهِ، حَتَّى يَتْرُكَ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ وَاللِّينِ وَالصِّلَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا يَأْمُرُ بِهِ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتَعَدَّى فِي الشِّدَّةِ فَيَزِيدُ فِي الذَّمِّ وَالْبُغْضِ وَالْعِقَابِ عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ.

فَهَذَا يَتْرُكُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَهُوَ مَذْمُومٌ مُذْنِبٌ فِي ذَلِكَ، وَيُسْرِفُ فِيمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنَ الشِّدَّةِ، حَتَّى يَتَعَدَّى الْحُدُودَ، وَهُوَ مِنْ إِسْرَافِهِ فِي أَمْرِهِ.

فَالْأَوَّلُ مُذْنِبٌ، وَالثَّانِي مُسْرِفٌ؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١]، فَلْيَقُولَا جَمِيعًا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧]. (١٥/ ٢٩٢).

السرور العظيم

إِنَّ أَرْفَعَ دَرَجَاتِ الْقُلُوبِ فَرَحُهَا التَّامُّ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَابْتِهَاجُهَا وَسُرُورُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد:٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس:٥٨] الْآيَةَ، فَفَضْلُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ الْقُرْآنُ وَالْإِيمَانُ؛ مَنْ فَرِحَ بِهِ فَقَدْ فَرِحَ بِأَعْظَمِ مَفْرُوحٍ بِهِ، وَمَنْ فَرِحَ بِغَيْرِهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَوَضَعَ الْفَرَحَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَتَمَكَّنَ فِيهِ الْعِلْمُ بِكِفَايَتِهِ لِعَبْدِهِ، وَرَحْمَتِهِ لَهُ، وَحِلْمِهِ عِنْدَهُ، وَبِرِّهِ بِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ؛ أَوْجَبَ لَهُ الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ، أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِ كُلِّ مُحِبٍّ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ سِوَاهُ، فَلَا يَزَالُ مُتَرَقِّيًا فِي دَرَجَاتِ الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ بِحَسَبِ رُقِيِّهِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ. (١٦/ ٤٩).

تدبر القرآن

والمؤمن فِي (بَابِ فَهْمِ الْقُرْآنِ)، فَهُوَ دَائِمُ التَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، وَالتَّدَبُّرِ لِأَلْفَاظِهِ، وَاسْتِغْنَائِهِ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ وَحُكْمِهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، وَإِذَا سَمِعَ شَيْئًا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ وَعُلُومِهِمْ عَرَضَهُ عَلَى الْقُرْآنِ، فَإِنْ شَهِدَ لَهُ بِالتَّزْكِيَةِ قَبِلَهُ، وَإِلَّا رَدَّهُ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ بِقَبُولٍ وَلَا رَدٍّ وَقَفَهُ، وَهِمَّتُهُ عَاكِفَةٌ عَلَى مُرَادِ رَبِّهِ مِنْ كَلَامِهِ.

وَلَا يَجْعَلُ هِمَّتَهُ فِيمَا حُجِبَ بِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ مِنْ الْعُلُومِ عَنْ حَقَائِقِ الْقُرْآنِ، إِمَّا بِالْوَسْوَسَةِ فِي خُرُوجِ حُرُوفِهِ، وَتَرْقِيقِهَا، وَتَفْخِيمِهَا، وَإِمَالَتِهَا، وَالنُّطْقِ بِالْمَدِّ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ وَالْمُتَوَسِّطِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا حَائِلٌ لِلْقُلُوبِ قَاطِعٌ لَهَا عَنْ فَهْمِ مُرَادِ الرَّبِّ مِنْ كَلَامِهِ، وَكَذَلِكَ شَغْلُ النُّطْقِ بـ﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة:٦]، وَضَمِّ الْمِيمِ مِنْ (عَلَيْهِم)،

وَوَصْلِهَا بِالْوَاوِ وَكَسْرِ الْهَاءِ، أَوْ ضَمِّهَا، وَنَحْو ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مُرَاعَاةُ النَّغَمِ وَتَحْسِينُ الصَّوْتِ.

وَكَذَلِكَ تَتَبُّعُ وُجُوهِ الْإِعْرَابِ، وَاسْتِخْرَاجُ التَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ الَّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِيِّ أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْبَيَانِ. (١٦/ ٥٠).

للسان دلالة وللفاجر علامة

إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا بُدَّ أَنْ يُعْرَفُوا فِي أَصْوَاتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ لَحْنُ قَوْلِهِمْ، وَهَذَا ظَاهِرٌ بَيِّنٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ فِي النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْفِرَاسَةِ، فِي الْأَقْوَالِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَظْهَرُ فِيهَا مِنْ النَّوَاقِضِ وَالْفُحْشِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا ظُهُورُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَقَدْ يَكُونُ، وَقَدْ لَا يَكُونُ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ ظُهُورَ مَا فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ عَلَى فَلَتَاتِ لِسَانِهِ أَقْوَى مِنْ ظُهُورِهِ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ؛ لِأَنَّ اللِّسَانَ تُرْجُمَانُ الْقَلْبِ، فَإِظْهَارُهُ لِمَا أَكَنَّهُ أَوْكَدُ؛ وَلِأَنَّ دَلَالَةَ اللِّسَانِ قَالِيَّةٌ، وَدَلَالَةَ الْوَجْهِ حَالِيَّةٌ. وَالْقَوْلُ أَجْمَعُ وَأَوْسَعُ لِلْمَعَانِي الَّتِي فِي الْقَلْبِ مِنْ الْحَالِ؛ وَلِهَذَا فَضَّلَ مَنْ فَضَّلَ -كَابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِ- السَّمْعَ عَلَى الْبَصَرِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ السَّمْعَ أَوْسَعُ، وَالْبَصَرَ أَخَصُّ وَأَرْفَعُ، وَإِنْ كَانَ إدْرَاكُ السَّمْعِ أَكْثَرَ، فَإِدْرَاكُ الْبَصَرِ أَكْمَلُ؛ وَلِهَذَا أَقْسَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَهُمْ بِسَمْعِهِ، وَأَمَّا إدْرَاكُهُ إيَّاهُمْ بِالْبَصَرِ بِسِيمَاهُمْ فَقَدْ يَكُونُ، وَقَدْ لَا يَكُونُ. فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسِمَ صَاحِبَ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْخَبِيثَةِ عَلَى خُرْطُومِهِ، وَهُوَ أَنْفُهُ، الَّذِي هُوَ عُضْوُهُ الْبَارِزُ الَّذِي يَسْبِقُ الْبَصَرَ إلَيْهِ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهِ؛ لِتَكُونَ السِّيمَا ظَاهِرَةً مِنْ أَوَّلِ مَا يُرَى، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْفَجَرَةِ الظَّلَمَةِ

الَّذِينَ وَدَعَهُمْ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِمْ وَفُحْشِهِمْ، فَإِنَّ لَهُمْ سِيمَا مِنْ شَرٍّ يُعْرَفُونَ بِهَا، وَكَذَلِكَ الْفَسَقَةُ وَأَهْلُ الرِّيَبِ. (١٦/ ٦٨).

للنفع وجهان

قَالَ تعالى فِي حَقِّ الْأَعْمَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس:٣-٤]، فَذَكَرَ الِانْتِفَاعَ بِالذِّكْرَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وَالنَّفْعُ نَوْعَانِ: حُصُولُ النِّعْمَةِ وَانْدِفَاعُ النِّقْمَةِ. وَنَفْسُ انْدِفَاعِ النِّقْمَةِ نَفْعٌ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ مَعَهُ نَفْعٌ آخَرُ، وَنَفْسُ الْمَنَافِعِ الَّتِي يُخَافُ مَعَهَا عَذَابٌ نَفْعٌ، وَكِلَاهُمَا نَفْعٌ. فَالنَّفْعُ تَدْخُلُ فِيهِ الثَّلَاثَةُ، وَالثَّلَاثَةُ تَحْصُلُ بِالذِّكْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، وَقَالَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس:٣-٤]. (١٦/ ١٨٤).

المقصود بأسفل سافلين

إن الشَّيْخَ وَإِنْ ضَعُفَ بَدَنُهُ، فَعَقْلُهُ أَقْوَى مِنْ عَقْلِ الشَّابِّ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ يَنْقُصُ بَعْضُ قُوَاهُ؛ فَلَيْسَ هَذَا رَدًّا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يَصِفُ الْهَرَمَ بِالضَّعْفِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس:٦٨]، فَهُوَ يُعِيدُهُ إِلَى حَالِ الضَّعْفِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الطِّفْلَ لَيْسَ هُوَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ، فَالشَّيْخُ كَذَلِكَ وَأَوْلَى، وَإِنَّمَا فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ مَنْ يَكُونُ فِي سِجِّينٍ، لَا فِي عِلِّيِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]. (١٦/ ٢٨١).

النسيان يوجب النسيان

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩]، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نِسْيَانَ الرَّبِّ مُوجِبٌ لِنِسْيَانِ النَّفْسِ، وَحِينَئِذٍ؛ فَمَنْ ذَكَرَ اللهَ وَلَمْ يَنْسَهُ يَكُونُ ذَاكِرًا لِنَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ نَاسِيًا لَهَا سَوَاءٌ ذَكَرَ اللهَ أَوْ نَسِيَهُ لَمْ يَكُنْ نِسْيَانُهَا مُسَبَّبًا عَنْ نِسْيَانِ الرَّبِّ، فَلَمَّا دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ نِسْيَانَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مُسَبَّبٌ عَنْ نِسْيَانِهِ لِرَبِّهِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الذَّاكِرَ لِرَبِّهِ لَا يَحْصُلُ لَهُ هَذَا النِّسْيَانُ لِنَفْسِهِ.

وَالذِّكْرُ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ مَا قَدْ عَلِمَهُ، فَمَنْ ذَكَرَ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ رَبِّهِ ذَكَرَ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ قَدْ وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي تَقْتَضِي أَنَّهُ يَعْرِفُ رَبَّهُ وَيُحِبُّهُ وَيُوَحِّدُهُ. فَإِذَا لَمْ يُنْسَ رَبَّهُ الَّذِي عَرَفَهُ، بَلْ ذَكَرَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَقْتَضِي مَحَبَّتَهُ وَمَعْرِفَتَهُ وَتَوْحِيدَهُ ذَكَرَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ مَا كَانَ فِيهَا قَبْلُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ. (١٦/ ٣٤٩).

لمحات من سورة الكوثر

في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾

إِنَّ الصَّلَاةَ وَالنُّسُكَ هُمَا أَجَلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ، فَإِنَّهُ أَتَى فِيهِمَا بِالْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى السَّبَبِ؛ لِأَنَّ فِعْلَ ذَلِكَ -وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالنَّحْرُ- سَبَبٌ لِلْقِيَامِ بِشُكْرِ مَا أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ مِنْ الْكَوْثَرِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، فَشُكْرُ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِ وَعِبَادَتُهُ أَعْظَمُهَا هَاتَانِ الْعِبَادَتَانِ، بَلْ الصَّلَاةُ نِهَايَةُ الْعِبَادَاتِ، وَغَايَةُ الْغَايَاتِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر:١]، الْخَيْرَ الْكَثِيرَ، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْك بِذَلِكَ لِأَجْلِ قِيَامِك لَنَا بِهَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ شُكْرًا لِإِنْعَامِنَا عَلَيْك، وَهُمَا السَّبَبُ لِإِنْعَامِنَا عَلَيْك بِذَلِكَ، فَقُمْ لَنَا بِهِمَا، فَإِنَّ الصَّلَاةَ وَالنَّحْرَ مَحْفُوفَانِ بِإِنْعَامٍ قَبْلَهِمَا، وَإِنْعَامٍ بَعْدَهِمَا، وَأَجَلُّ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ النَّحْرُ، وَأَجَلُّ الْعِبَادَاتِ

الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةُ، وَمَا يَجْتَمِعُ لِلْعَبْدِ فِي الصَّلَاةِ لَا يَجْتَمِعُ لَهُ فِي غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ، كَمَا عَرَفَهُ أَرْبَابُ الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ، وَأَصْحَابُ الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ، وَمَا يَجْتَمِعُ لَهُ فِي نَحْرِهِ مِنْ إِيثَارِ اللهِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ وَقُوَّةِ الْيَقِينِ وَالْوُثُوقِ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَمْرٌ عَجِيبٌ، إِذَا قَارَنَ ذَلِكَ الْإِيمَانُ وَالْإِخْلَاصُ، وَقَدْ امْتَثَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ رَبِّهِ، فَكَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ لِرَبِّهِ، كَثِيرَ النَّحْرِ، حَتَّى نَحَرَ بِيَدِهِ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَةً، وَكَانَ يَنْحَرُ فِي الْأَعْيَادِ وَغَيْرِهَا. (١٦/ ٥٣٢).

فوائد جليلة

❁ فَإِذَا حَسُنَتْ السَّرَائِرُ أَصْلَحَ اللهُ الظَّوَاهِرَ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ. (٣/ ٢٧٧).

❁ الْعَبْدُ دَائِمًا بَيْنَ نِعْمَةٍ مِنْ اللهِ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى شُكْرٍ، وَذَنْبٍ مِنْهُ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ. (١٠/ ٨٨).

❁ كُلَّمَا قَوِيَ التَّوْحِيدُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَوِيَ إِيمَانُهُ وَطُمَأْنِينَتُهُ وَتَوَكُّلُهُ وَيَقِينُهُ. (٢٨/ ٣٥).

❁ النَّاسَ كَأَسْرَابِ الْقَطَا؛ مَجْبُولُونَ عَلَى تَشَبُّهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ. (٢٨/ ١٥٠).

فضل سورة الإخلاص

إِنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: تَوْحِيدٌ، وَقَصَصٌ، وَأَحْكَامٌ، وَهَذِهِ السُّورَةُ صِفَةُ الرَّحْمَنِ؛ فِيهَا التَّوْحِيدُ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ.

وَالْكَلَامُ نَوْعَانِ: إِمَّا إِنْشَاءٌ، وَإِمَّا إِخْبَارٌ، وَالْإِخْبَارُ إِمَّا خَبَرٌ عَنْ الْخَالِقِ، وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ الْمَخْلُوقِ، فَالْإِنْشَاءُ هُوَ الْأَحْكَامُ كَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْخَبَرُ عَنْ الْمَخْلُوقِ هُوَ الْقَصَصُ،

وَالْخَبَرُ عَنْ الْخَالِقِ هُوَ ذِكْرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ سُورَةٌ هِيَ وَصْفُ الرَّحْمَنِ مَحْضًا إلَّا هَذِهِ السُّورَةَ. (١٧/ ١٣٤).

فائدة عجيبة: إنما يتقبل الله من المتقين

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ فَضْلَ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَدْ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الرَّجُلِ، فَالْقِرَاءَةُ بِتَدَبُّرٍ أَفْضَلُ مِنْ الْقِرَاءَةِ بِلَا تَدَبُّرٍ، وَالصَّلَاةُ بِخُشُوعٍ وَحُضُورِ قَلْبٍ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ بِدُونِ ذَلِكَ.

وَفِي الْأَثَرِ: «إنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وَكَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ يَرْقِي بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وَكَانَ لَهَا بَرَكَةٌ عَظِيمَةٌ، فَيَرْقِي بِهَا غَيْرُهُ فَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: لَيْسَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، تَنْفَعُ كُلَّ أَحَدٍ.

وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَقَدْ يَكُونُ تَسْبِيحُ بَعْضِ النَّاسِ أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَةِ غَيْرِهِ، وَيَكُونُ قِرَاءَةُ بَعْضِ السُّوَرِ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَةِ غَيْرِهِ لِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَغَيْرِهَا.

وَالْإِنْسَانُ الْوَاحِدُ يَخْتَلِفُ أَيْضًا حَالُهُ، فَقَدْ يَفْعَلُ الْعَمَلَ الْمَفْضُولَ عَلَى وَجْهٍ كَامِلٍ فَيَكُونُ بِهِ أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ أَعْمَالِهِ الْفَاضِلَةِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لِبَغِيٍّ؛ لِسَقْيِهَا الْكَلْبَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَهَذَا لِمَا حَصَلَ لَهَا فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ مِنْ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَقَدْ يُنْفِقُ الرَّجُلُ أَضْعَافَ ذَلِكَ فَلَا يُغْفَرُ لَهُ؛ لِعَدَمِ الْأَسْبَابِ الْمُزَكِّيَةِ لِلْعَمَلِ، فَإِنَّ اللهَ إنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِنْ الْمُتَّقِينَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**لَوْ أَنْفَقَ**

أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[١]، يَقُولُهُ عَنْ أَصْحَابِهِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَإِذَا قِيلَ: إِنَّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤] يَعْدِلُ ثَوَابُهَا ثَوَابَ ثُلُثِ الْقُرْآنِ، فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ التَّمَاثُلِ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ، وَإِلَّا فَإِذَا اعْتَبَرَ قِرَاءَةَ غَيْرِهَا مَعَ التَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ بِقِرَاءَتِهَا مَعَ الْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ قَوْلُ الْعَبْدِ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ وَاتِّصَافِهِ بِمَعَانِيهَا أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورَةِ، مَعَ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ، وَالنَّاسُ مُتَفَاضِلُونَ فِي فَهْمِ هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي فَهْمِ سَائِرِ الْقُرْآنِ. (١٧/ ١٣٩).

عاقبة التخلي عن نور النبوة

إِذَا انْقَطَعَ عَنْ النَّاسِ نُورُ النُّبُوَّةِ؛ وَقَعُوا فِي ظُلْمَةِ الْفِتَنِ، وَحَدَثَتْ الْبِدَعُ وَالْفُجُورُ، وَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ. (١٧/ ٣١٠).

أهمية العقيدة وحاجة الناس إليها

يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- مَعْرِفَةُ مَا أَرَادَ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ بِأَنْ يَعْرِفُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ الَّتِي بِهَا نَزَلَ، وَمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَسَائِرُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فِي مَعَانِي تِلْكَ الْأَلْفَاظِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا خَاطَبَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَرَّفَهُمْ مَا أَرَادَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ، وَكَانَتْ مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَكْمَلَ مِنْ حِفْظِهِمْ لِحُرُوفِهِ، وَقَدْ بَلَّغُوا تِلْكَ الْمَعَانِيَ إِلَى التَّابِعِينَ أَعْظَمَ مِمَّا بَلَّغُوا حُرُوفَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) في كتاب فضائل أصحاب النبي، ومسلم (٢٥٤١) في كتاب فضائل الصحابة، عن أبي سعيد.

الثاني- ثُمَّ مَعْرِفَةُ مَا قَالَ النَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِيَنْظُرَ الْمَعَانِيَ الْمُوَافِقَةَ لِلرَّسُولِ، وَالْمَعَانِيَ الْمُخَالِفَةَ لَهَا.

وَالْأَلْفَاظُ نَوْعَانِ: نَوْعٌ يُوجَدُ فِي كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَنَوْعٌ لَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَيَعْرِفُ مَعْنَى الْأَوَّلِ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ الْمَعْنَى هُوَ الْأَصْلَ، وَيَعْرِفُ مَا يَعْنِيهِ النَّاسُ بِالثَّانِي، وَيَرُدُّ إِلَى الْأَوَّلِ؛ هَذَا طَرِيقُ أَهْلِ الْهُدَى وَالسُّنَّةِ. وَطَرِيقُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ بِالْعَكْسِ، يَجْعَلُونَ الْأَلْفَاظَ الَّتِي أَحْدَثُوهَا وَمَعَانِيَهَا هِيَ الْأَصْلَ، وَيَجْعَلُونَ مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ تَبَعًا لَهُمْ، فَيَرُدُّونَهَا بِالتَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ إِلَى مَعَانِيهِمْ. (١٧/ ٣٥٣ بتصرف).

السنة تابعة للقرآن ومفسره له

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، وَأَوَّلُ النِّزَاعِ النِّزَاعُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ الرَّسُولُ عَالِمًا بِمَعَانِيهِ امْتَنَعَ الرَّدُّ إِلَيْهِ، وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ أَئِمَّةِ الدِّينِ أَنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْ مُجْمَلِهِ، وَأَنَّهَا تُفَسِّرُ مُجْمَلَ الْقُرْآنِ مِنْ الْأَمْرِ وَالْخَبَرِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

وَمِنْ أَعْظَمِ الِاخْتِلَافِ: الِاخْتِلَافُ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ الْخَبَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ حَاكِمًا بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرِفَةُ مَعْنَاهُ مُمْكِنًا، وَقَدْ نَصَبَ اللهُ عَلَيْهِ دَلِيلًا، وَإِلَّا فَالْحَاكِمُ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا فِي نَفْسِهِ لَا يَحْكُمُ بِشَيْءٍ، وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ هُوَ الْحَاكِمُ بِالْكِتَابِ، فَإِنَّ حُكْمَهُ فَصْلٌ يَفْصِلُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ بِالْبَيَانِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى

فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق:١٣]، أَيْ فَاصِلٌ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَكَيْفَ يَكُونُ فَصْلًا، إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ سَبِيلٌ؟! (١٧/ ٤٣١).

أصل الشرك في العالم

إِنَّ أَصْلَ الشِّرْكِ فِي الْعَالَمِ كَانَ مِنْ عِبَادَةِ الْبَشَرِ الصَّالِحِينَ، وَعِبَادَةِ تَمَاثِيلِهِمْ، وَهُمْ الْمَقْصُودُونَ. وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ؛ إِمَّا الشَّمْسُ، وَإِمَّا الْقَمَرُ، وَإِمَّا غَيْرُهُمَا، وَصُوِّرَت الْأَصْنَامُ طَلَاسِمَ لِتِلْكَ الْكَوَاكِبِ، وَشِرْكُ قَوْمِ إبْرَاهِيمَ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- كَانَ مِنْ هَذَا، أَوْ كَانَ بَعْضُهُ مِنْ هَذَا، وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْجِنِّ؛ وُضِعَتْ الْأَصْنَامُ لِأَجْلِهِمْ، وَإِلَّا فَنَفْسُ الْأَصْنَامِ الْجَمَادِيَّةِ لَمْ تُعْبَدْ لِذَاتِهَا، بَلْ لِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ، وَشِرْكُ الْعَرَبِ كَانَ أَعْظَمُهُ الْأَوَّلَ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ الْجَمِيعِ؛ فَإِنَّ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ قَدْ أَتَى الشَّامَ، وَرَآهُمْ بِالْبَلْقَاءِ لَهُمْ أَصْنَامٌ يَسْتَجْلِبُونَ بِهَا الْمَنَافِعَ، وَيَدْفَعُونَ بِهَا الْمَضَارَّ، فَصُنْعُ مِثْلِ ذَلِكَ فِي مَكَّةَ، لَمَّا كَانَتْ خُزَاعَةُ وُلَاةَ الْبَيْتِ، قَبْلَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ هُوَ سَيِّدَ خُزَاعَةَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «**رَأَيت عَمْرَو بْنَ لحي بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خندف يَجُرُّ قَصَبَهُ فِي النَّارِ** -أَيْ أَمْعَاءَهُ- **وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ، وبحر الْبَحِيرَةَ**»[1]، وَكَذَلِكَ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- شِرْكُ قَوْمِ نُوحٍ، وَإِنْ كَانَ مَبْدَؤُهُ مِنْ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ، فَالشَّيْطَانُ يَجُرُّ النَّاسَ مِنْ هَذَا إلَى غَيْرِهِ، لَكِنَّ هَذَا أَقْرَبُ إلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ وَبَرَكَتَهُ وَدُعَاءَهُ، فَيَعْكُفُونَ عَلَى قَبْرِهِ، وَيَقْصِدُونَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَتَارَةً يَسْأَلُونَهُ، وَتَارَةً يَسْأَلُونَ اللَّهَ بِهِ، وَتَارَةً يُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ عِنْدَ قَبْرِهِ، ظَانِّينَ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ. وَلَمَّا كَانَ هَذَا مَبْدَأَ الشِّرْكِ سَدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْبَابَ، كَمَا سَدَّ بَابَ الشِّرْكِ بِالْكَوَاكِبِ. (١٧/ ٤٦٠).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٣) في كتاب التفسير، ومسلم (٢٨٥٦) في كتاب الجنة ونعيمها.

زيارة غار حراء وثور

ما كان أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ يَذْهَبُ إلَى الْغَارِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ لِلزِّيَارَةِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ -وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبُهُ أَقَامَا بِهِ ثَلَاثًا يُصَلُّونَ فِيهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ- وَلَا كَانُوا أَيْضًا يَذْهَبُونَ إلَى حِرَاءَ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي كَانَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَفِيهِ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ أَوَّلًا، وَكَانَ هَذَا مَكَانًا يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ حِرَاءَ أَعْلَى جَبَلٍ كَانَ هُنَاكَ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى مَكَّةَ مَرَّاتٍ، بَعْدَ أَنْ أَقَامَ بِهَا قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِضْعَ عَشْرَةَ سُنَّةً، وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَكُنْ هُوَ وَلَا أَصْحَابُهُ يَذْهَبُونَ إلَى حِرَاءَ. (١٧/ ٤٧٦).

هل يشرع التمسح بحيطان الكعبة؟

وَلَمَّا حَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَلَمَ الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَّيْنِ، وَلَمْ يَسْتَلِمْ الشَّامِيَّيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ يُبْنَيَا عَلَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَجَرِ مِنْ الْبَيْتِ، وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ اسْتَلَمَهُ وَقَبَّلَهُ، وَالْيَمَانِيُّ اسْتَلَمَهُ وَلَمْ يُقَبِّلْهُ، وَصَلَّى بِمَقَامِ إبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَسْتَلِمْهُ وَلَمْ يُقَبِّلْهُ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ التَّمَسُّحَ بِحِيطَانِ الْكَعْبَةِ غَيْرِ الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَّيْنِ، وَتَقْبِيلَ شَيْءٍ مِنْهَا غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَيْسَ بِسُنَّةٍ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ اسْتِلَامَ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ وَتَقْبِيلَهُ لَيْسَ بِسُنَّةٍ، وَإِذَا كَانَ هَذَا نَفْسَ الْكَعْبَةِ وَنَفْسَ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ بِهَا؛ فَمَعْلُومٌ أَنَّ جَمِيعَ الْمَسَاجِدِ حُرْمَتُهَا دُونَ الْكَعْبَةِ. (١٧/ ٤٧٦).

مسجد قباء

قَصْدُ إتْيَانِ مَسْجِدِ قُبَاء مُتَابَعَةً لَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي قُبَاء كُلَّ سَبْتٍ، رَاكِبًا وَمَاشِيًا.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٣و١١٩٤) عن ابن عمر، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» للعلامة الألباني (٢/ ٢٣).

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨]، وَكَانَ مَسْجِدُهُ هُوَ الْأَحَقَّ بِهَذَا الْوَصْفِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْمُؤَسَّسِ عَلَى التَّقْوَى، فَقَالَ: «هُوَ مَسجِدِي هَذَا»(١)، يُرِيدُ أَنَّهُ أَكْمَلُ فِي هَذَا الْوَصْفِ مِنْ مَسْجِدِ قُبَاء، وَمَسْجِدُ قُبَاء أَيْضًا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، وَبِسَبَبِهِ نَزَلَتْ الْآيَةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]، وَكَانَ أَهْلُ قُبَاء مَعَ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ؛ تَعَلَّمُوا ذَلِكَ مِنْ جِيرَانِهِمْ الْيَهُودِ، وَلَمْ تَكُنْ الْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَّا يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّ ذَاكَ هُوَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى دُونَ مَسْجِدِهِ، فَذَكَرَ أَنَّ مَسْجِدَهُ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُؤَسَّسَ عَلَى التَّقْوَى، فَقَوْلُهُ: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ [التوبة:١٠٨]، يَتَنَاوَلُ مَسْجِدَهُ وَمَسْجِدَ قُبَاء، وَيَتَنَاوَلُ كُلَّ مَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، بِخِلَافِ مَسَاجِدِ الضِّرَارِ.

وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ الصَّلَاةَ فِيمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ، وَيَرَوْنَ الْعَتِيقَ أَفْضَلَ مِنْ الْجَدِيدِ؛ لِأَنَّ الْعَتِيقَ أَبْعَدُ عَنْ أَنْ يَكُونَ بُنِيَ ضِرَارًا مِنْ الْجَدِيدِ الَّذِي يُخَافُ ذَلِكَ فِيهِ، وَعَتَقُ الْمَسْجِدِ مِمَّا يُحْمَدُ بِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦]، فَإِنَّ قِدَمَهُ يَقْتَضِي كَثْرَةَ الْعِبَادَةِ فِيهِ أَيْضًا، وَذَلِكَ يَقْتَضِي زِيَادَةَ فَضْلِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَسْتَحِبَّ عُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا قَصْدَ شَيْءٍ مِنْ الْمَسَاجِدِ وَالْمَزَارَاتِ الَّتِي بِالْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا، بَعْدَ مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَّا مَسْجِدَ قُبَاء؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقْصِدْ مَسْجِدًا بِعَيْنِهِ يَذْهَبُ إلَيْهِ إلَّا هُوَ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٩٨) في كتاب الحج، وانظر سنن النسائي (٢/ ٣٦)، عن أبي سعيد.

وَقَدْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ مَسَاجِدُ كَثِيرَةٌ، لِكُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مَسْجِدٌ، لَكِنْ لَيْسَ فِي قَصْدِهِ دُونَ أَمْثَالِهِ فَضِيلَةٌ، بِخِلَافِ مَسْجِدِ قُبَاء، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَسْجِدٍ بُنِيَ بِالْمَدِينَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَقَدْ قَصَدَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالذَّهَابِ إِلَيْهِ، وَصَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاء، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ؛ كَانَ كَعُمْرَةٍ**»(١)، وَمَعَ هَذَا فَلَا يُسَافَرُ إِلَيْهِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ بِالْمَدِينَةِ أَتَاهُ، وَلَا يَقْصِدُ إِنْشَاءَ السَّفَرِ إِلَيْهِ، بَلْ يَقْصِدُ إِنْشَاءَ السَّفَرِ إِلَى الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِي هَذَا**»(٢)، وَلِهَذَا لَوْ نَذَرَ السَّفَرَ إِلَى مَسْجِدِ قُبَاء لَمْ يُوفِّ بِنَذْرِهِ -عِنْدَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ- بِخِلَافِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ إِلَيْهِ -بِاتِّفَاقِهِمْ- وَكَذَلِكَ مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ، وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ -فِي أَصَحِّ قَوْلَيْهِمْ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَد وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ، وَفِي الْآخَرِ -وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ- لَيْسَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، لَكِنَّهُ جَائِزٌ وَمُسْتَحَبٌّ، لِأَنَّ مِنْ أَصْلِهِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ بِالنَّذْرِ إِلَّا مَا كَانَ وَاجِبًا بِالشَّرْعِ، وَالْأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ: يَجِبُ بِالنَّذْرِ كُلُّ مَا كَانَ طَاعَةً للهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**»(٣). (١٧/ ٤٦٨).

عمارة المساجد

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ

(١) صحيح. أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٧)، انظر «الصحيحة» (٣٤٤٦)، و«إصلاح المساجد» للألباني (١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨٩) في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ومسلم (١٣٩٧) في كتاب الحج، عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩٦) في كتاب الأيمان والنذور.

مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [التوبة:١٧-١٨]، وَفِي التِّرْمِذِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ**»، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ[١]. فَإِنَّ الْمُرَادَ بِعِمَارَتِهَا: عِمَارَتُهَا بِالْعِبَادَةِ فِيهَا؛ كَالصَّلَاةِ وَالِاعْتِكَافِ. يُقَالُ: مَدِينَةٌ عَامِرَةٌ. إذَا كَانَتْ مَسْكُونَةً، وَ: مَدِينَةٌ خَرَابٌ. إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا سَاكِنٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٩]، وَأَمَّا نَفْسُ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فَيَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ، وَذَلِكَ يُسَمَّى بِنَاءً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**»[٢]، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانَ لَهُمْ عِمَارَةُ مَسَاجِدِ الله، مَعَ شَهَادَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، وَبَيَّنَ أَنَّمَا يَعْمُرُهَا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ للهِ، الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ إلَّا اللهَ، وَلَا يَرْجُونَ سِوَاهُ، وَلَا يَسْتَعِينُونَ إلَّا بِهِ، وَلَا يَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ، وَعُمَّارُ الْمَشَاهِدِ يَخَافُونَ غَيْرَ اللهِ، وَيَرْجُونَ غَيْرَهُ، وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ: إنَّمَا يَعْمُرُ مَشَاهِدَ اللهِ. فَإِنَّ الْمَشَاهِدَ لَيْسَتْ بُيُوتَ اللهِ، إنَّمَا هِيَ بُيُوتُ الشِّرْكِ، وَلِهَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ فِيهَا مَدْحُ الْمَشَاهِدِ، وَلَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ اللهُ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَنَا أَنَّهُمْ بَنَوْا مَسْجِدًا عَلَى قَبْرِ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ الَّذِينَ نَهَانَا اللهُ أَنْ نَتَشَبَّهَ بِهِمْ، حَيْثُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[٣]. (١٧/ ٤٩٨).

---

(١) ضعيف. انظر تخريجه في «الضعيفة» (١٦٨٣) للألباني.

(٢) صحيح. انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٩) للألباني.

(٣) انظر «الثمر المستطاب» (١/ ٣٧١) للعلامة الألباني.

النسيان والخطأ من الشيطان

النِّسْيَانُ لِلْحَقِّ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَالْخَطَأُ مِنْ الشَّيْطَانِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ، أَوْ نَسِيَهَا، فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا**»(١)، وَلَمَّا نَامَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَنْ الصَّلَاةِ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**ارْتَحِلُوا، فَإِنَّ هَذَا مَكَانٌ حَضَرَنَا فِيهِ شَيْطَانٌ**»(٢)، وَقَالَ: «**إنَّ الشَّيْطَانَ أَتَى بِلَالًا فَجَعَلَ يُهَدِّئُهُ، كَمَا يُهَدِّئُ الصَّبِيَّ، حَتَّى نَامَ**»(٣)، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَّلَ بِلَالًا أَنْ يُوقِظَهُمْ عِنْدَ الْفَجْرِ، وَالنَّوْمُ الَّذِي يَشْغَلُ عَمَّا أُمِرَ بِهِ وَالنُّعَاسُ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَإِنْ كَانَ مَعْفُوًّا عَنْهُ، وَلِهَذَا قِيلَ: النُّعَاسُ فِي مَجْلِسِ الذِّكْرِ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَكَذَلِكَ الِاحْتِلَامُ فِي الْمَنَامِ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَالنَّائِمُ لَا قَلَمَ عَلَيْهِ. (١٧/ ٥٢١).

التداوي

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَنَازَعُوا فِي التَّدَاوِي؛ هَلْ هُوَ مُبَاحٌ، أَوْ مُسْتَحَبٌّ، أَوْ وَاجِبٌ؟

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ مِنْهُ مَا هُوَ مُحَرَّمٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ مَكْرُوهٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ مُبَاحٌ؛ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ. وَقَدْ يَكُونُ مِنْهُ مَا هُوَ وَاجِبٌ، وَهُوَ: مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ بَقَاءُ النَّفْسِ لَا بِغَيْرِهِ، كَمَا يَجِبُ أَكْلُ الْمَيْتَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ؛ فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عِنْد الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ قَالَ مَسْرُوقٌ: «مَنْ اُضْطُرَّ إلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ فَلَمْ يَأْكُلْ حَتَّى مَاتَ دَخَلَ النَّارَ». فَقَدْ

---

(١) انظر «صحيح البخاري (٥٩٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٨٤) في كتاب المساجد.

(٢) أخرجه مسلم (٦٨٢) في كتاب المساجد.

(٣) صحيح. أخرجه مالك (١/ ١٤) عن زيد بن أسلم مرسلا، وانظر «التمهيد» (٥/ ٢٠٣) لابن عبدالبر، و«تنوير الحوالك» (١/ ٣٥) للسيوطي.

يَحْصُلُ أَحْيَانًا لِلْإِنْسَانِ إِذَا اسْتَحَرَّ الْمَرَضُ مَا إِنْ لَمْ يَتَعَالَجْ مَعَهُ مَاتَ، وَالْعِلَاجُ الْمُعْتَادُ تَحْصُلُ مَعَهُ الْحَيَاةُ كَالتَّغْذِيَةِ لِلضَّعِيفِ. (١٨/ ١٢).

استحالة الظلم على الله تعالى

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠-٣١]، يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا الْعِقَابَ لَمْ يَكُنْ ظُلْمًا؛ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ ذَلِكَ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُرِيدُ الظُّلْمَ؛ وَالْأَمْرُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُمْدَحَ الْمَمْدُوحُ بِعَدَمِ إِرَادَتِهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَدْحُ بِتَرْكِ الْأَفْعَالِ إِذَا كَانَ الْمَمْدُوحُ قَادِرًا عَلَيْهَا، فَعُلِمَ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى مَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْهُ مِنَ الظُّلْمِ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ، وَبِذَلِكَ يَصِحُّ قَوْلُهُ: «**إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**»(١). وَأَنَّ التَّحْرِيمَ هُوَ الْمَنْعُ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيمَا هُوَ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ: حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي، أَوْ مَنَعْتُ نَفْسِي مِنْ خَلْقِ مِثْلِي، أَوْ جَعْلِ الْمَخْلُوقَاتِ خَالِقَةً. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالَاتِ. وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ مَا يَكُونُ مَعْنَاهُ: إِنِّي أَخْبَرْتُ عَنْ نَفْسِي بِأَنَّ مَا لَا يَكُونُ مَقْدُورًا لَا يَكُونُ مِنِّي. وَهَذَا الْمَعْنَى مِمَّا يَتَيَقَّنُ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ لَيْسَ مُرَادَ الرَّبِّ؛ وَأَنَّهُ يَجِبُ تَنْزِيهُ اللهِ وَرَسُولِهِ عَنْ إِرَادَةِ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي لَا يَلِيقُ الْخِطَابُ بِمِثْلِهِ، إِذْ هُوَ مَعَ كَوْنِهِ شِبْهَ التَّكْرِيرِ، وَإِيضَاحِ الْوَاضِحِ؛ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا ثَنَاءٌ، وَلَا مَا يَسْتَفِيدُهُ الْمُسْتَمِعُ، فَعُلِمَ أَنَّ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ هُوَ أَمْرٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ؛ لِأَنَّهُ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ فِعْلِهِ، مُقَدَّسٌ عَنْهُ.

يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ مَا قَالَهُ النَّاسُ فِي حُدُودِ الظُّلْمِ يَتَنَاوَلُ هَذَا، دُونَ ذَلِكَ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ؛ كَقَوْلِهِمْ: مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ. أَيْ: فَمَا وَضَعَ

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧) في كتاب البر والصلة عن أبي ذر.

الشَّبَهَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ حَكَمٌ عَدْلٌ، لَا يَضَعُ الْأَشْيَاءَ إِلَّا مَوَاضِعَهَا، وَوَضْعُهَا غَيْرَ مَوَاضِعِهَا لَيْسَ مُمْتَنِعًا لِذَاتِهِ؛ بَلْ هُوَ مُمْكِنٌ، لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ، لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُهُ؛ بَلْ يَكْرَهُهُ وَيُبْغِضُهُ؛ إِذْ قَدْ حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: الظُّلْمُ إِضْرَارٌ غَيْرُ مُسْتَحَقٍّ. فَإِنَّ اللهَ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا بِغَيْرِ حَقٍّ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: هُوَ نَقْصُ الْحَقِّ. وَذَكَرَ أَنَّ أَصْلَهُ النَّقْصُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف:٣٣]، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: هُوَ التَّصَرُّفُ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ. فَهَذَا لَيْسَ بِمُطَّرِدٍ وَلَا مُنْعَكِسٍ، فَقَدْ يَتَصَرَّفُ الْإِنْسَانُ فِي مِلْكِ غَيْرِهِ بِحَقٍّ، وَلَا يَكُونُ ظَالِمًا، وَقَدْ يَتَصَرَّفُ فِي مِلْكِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَيَكُونُ ظَالِمًا، وَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: فِعْلُ الْمَأْمُورِ خِلَافَ مَا أُمِرَ بِهِ. وَنَحْوُ ذَلِكَ، إِنْ سَلِمَ صِحَّةُ مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، فَهُوَ لَا يَفْعَلُ خِلَافَ مَا كَتَبَ، وَلَا يَفْعَلُ مَا حَرَّمَ، وَلَيْسَ هَذَا الْجَوَابُ مَوْضِعَ بَسْطِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي نَبَّهْنَا عَلَيْهَا فِيهِ، وَإِنَّمَا نُشِيرُ إِلَى النُّكَتِ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ الْقَوْلُ الْمُتَوَسِّطُ، وَهُوَ: أَنَّ الظُّلْمَ الَّذِي حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ مِثْلُ: أَنْ يَتْرُكَ حَسَنَاتِ الْمُحْسِنِ فَلَا يَجْزِيهِ بِهَا، وَيُعَاقِبَ الْبَرِيءَ عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلْ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَيُعَاقِبَ هَذَا بِذَنْبِ غَيْرِهِ، أَوْ يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِغَيْرِ الْقِسْطِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُنَزَّهُ الرَّبُّ عَنْهَا لِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ لِأَنَّهُ تَرَكَ هَذَا الظُّلْمَ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ. وَكَمَا أَنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ، فَهُوَ أَيْضًا مُنَزَّهٌ عَنْ أَفْعَالِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ. (١٨/ ١٤٤).

العدل واجب في كل مجال

وَلِهَذَا كَانَ الْعَدْلُ أَمْرًا وَاجِبًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وَالظُّلْمُ مُحَرَّمًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلِكُلِّ أَحَدٍ، فَلَا يَحِلُّ ظُلْمُ أَحَدٍ أَصْلًا، سَوَاءٌ كَانَ مُسْلِمًا أَوْ كَافِرًا، أَوْ كَانَ ظَالِمًا، بَلْ الظُّلْمُ إِنَّمَا يُبَاحُ أَوْ يَجِبُ فِيهِ الْعَدْلُ عَلَيْهِ أَيْضًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾ -أَيْ: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُ، أَيْ: بُغْضُ قَوْمٍ، وَهُمُ الْكُفَّارُ، عَلَى عَدَمِ الْعَدْلِ- ﴿ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل:١٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠]. (١٨/ ١٦٦).

حق المظلوم وتوبة الظالم

وَأَمَّا حَقُّ الْمَظْلُومِ فَلَا يَسْقُطُ بِمُجَرَّدِ التَّوْبَةِ، وَهَذَا حَقٌّ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْقَاتِلِ وَسَائِرِ الظَّالِمِينَ، فَمَنْ تَابَ مِنْ ظُلْمٍ لَمْ يَسْقُطْ بِتَوْبَتِهِ حَقُّ الْمَظْلُومِ، لَكِنْ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِهِ أَنْ يُعَوِّضَهُ بِمِثْلِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يُعَوِّضْهُ فِي الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ الْعِوَضِ فِي الْآخِرَةِ، فَيَنْبَغِي لِلظَّالِمِ التَّائِبِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنْ الْحَسَنَاتِ، حَتَّى إذَا اسْتَوْفَى الْمَظْلُومُونَ حُقُوقَهُمْ لَمْ يَبْقَ مُفْلِسًا، وَمَعَ هَذَا، فَإِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُعَوِّضَ الْمَظْلُومَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، كَمَا إذَا شَاءَ أَنْ يَغْفِرَ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ. (١٨/ ١٨٧).

المؤمن لا يجزع

وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ إذَا رَأَى الْمُنْكَرَ أَوْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِسْلَامِ جَزِعَ، وَكَلَّ، وَنَاحَ كَمَا يَنُوحُ أَهْلُ الْمَصَائِبِ، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ هَذَا؛ بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِأن الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى. وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُ فَهُوَ بِذُنُوبِهِ، فَلْيَصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَلْيَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِهِ، وَلْيُسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ. (١٨/ ٢٩٥).

الجنة والنار والعرش لا تفنى

اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَأَئِمَّتُهَا، وَسَائِرُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، عَلَى أَنَّ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ مَا لَا يَعْدَمُ وَلَا يَفْنَى بِالْكُلِّيَّةِ؛ كَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْعَرْشِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَلَمْ يَقُلْ بِفَنَاءِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ إلَّا طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُبْتَدِعِينَ؛ كَالْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ، وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ، وَنَحْوِهِمْ. وَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ، يُخَالِفُ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ، وَإِجْمَاعَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا. (١٨/ ٣٠٧).

المرء مع من أحب

كَثِيرٌ مِنْ الْمَشْهُورِينَ بِالْمَشْيَخَةِ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ قَدْ يَكُونُ فِيهِمْ مِنْ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ وَالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ مَا يَمْنَعُ شَهَادَةَ النَّاسِ لَهُمْ بِذَلِكَ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ فِيهِمْ الْمُنَافِقُ وَالْفَاسِقُ، كَمَا أَنَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ، وَعِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَحِزْبِ الله الْمُفْلِحِينَ -وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ- كَمَا أَنَّ غَيْرَ الْمَشَايِخِ فِيهِمْ هَؤُلَاءِ؛ كَالتُّجَّارِ وَالْفَلَّاحِينَ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْأَصْنَافِ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَمَنْ طَلَبَ أَنْ يُحْشَرَ مَعَ شَيْخٍ لَمْ يَعْلَمْ عَاقِبَتَهُ كَانَ ضَالًّا، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ فَيَطْلُبَ بِمَا يَعْلَمُ أَنْ يَحْشُرَهُ اللهُ مَعَ نَبِيِّهِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦].

وَعَلَى هَذَا فَمَنْ أَحَبَّ شَيْخًا مُخَالِفًا لِلشَّرِيعَةِ كَانَ مَعَهُ، فَإِذَا أُدْخِلَ الشَّيْخُ النَّارَ كَانَ مَعَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشُّيُوخَ الْمُخَالِفِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَهْلُ الضَّلَالِ وَالْجَهَالَةِ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ كَانَ مَصِيرُهُ مَصِيرَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ.

وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ؛ كَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَغَيْرِهِمْ؛ فَمَحَبَّةُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الْإِيمَانِ، وَأَعْظَمِ حَسَنَاتِ الْمُتَّقِينَ. (١٨/ ٣١٤).

من شروط الرقى

نَهَى عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ الرُّقَى الَّتِي لَا يُفْقَهُ مَعْنَاهَا؛ لِأَنَّهَا مَظِنَّةُ الشِّرْكِ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفِ الرَّاقِي أَنَّهَا شِرْكٌ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأشجعي، قَالَ: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»(١). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ الرُّقَى، فَجَاءَ آلُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ كَانَتْ عِنْدَنَا رُقْيَةٌ نَرْقِي بِهَا مِنْ الْعَقْرَبِ، وَإِنَّك نَهَيْتَ عَنْ الرُّقَى! قَالَ: فَعَرَضُوهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «**مَا أَرَى بَأْسًا، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ**»(٢). (١٩/ ١٣).

سبب تشكل شياطين الجن بالكلاب والقطط السود

تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي شَيْطَانِ الْجِنِّ إِذَا مَرَّ بَيْنَ يَدَيْ الْمُصَلِّي؛ هَلْ يَقْطَعُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: هُمَا قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد، كَمَا ذَكَرَهُمَا ابْنُ حَامِدٍ وَغَيْرُهُ: أَحَدُهُمَا: يَقْطَعُ؛ لِهَذَا الْحَدِيثِ، وَلِقَوْلِهِ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّ مُرُورَ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ يَقْطَعُ الصَّلَاة: «**الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ**

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) في كتاب السلام.
(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٩) في كتاب السلام.

شَيْطَانٌ»[١]. فَعَلَّلَ بِأَنَّهُ شَيْطَانٌ. وَهُوَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ الْكَلْبَ الْأَسْوَدَ شَيْطَانُ الْكِلَابِ، وَالْجِنُّ تَتَصَوَّرُ بِصُورَتِهِ كَثِيرًا، وَكَذَلِكَ صُورَةُ الْقِطِّ الْأَسْوَدِ؛ لِأَنَّ السَّوَادَ أَجْمَعُ لِلْقُوَى الشَّيْطَانِيَّةِ مِنْ غَيْرِهِ، وَفِيهِ قُوَّةُ الْحَرَارَةِ. (١٩/ ٥٢).

من خصائص المبتدعة

وَلَهُمْ خَاصَّتَانِ مَشْهُورَتَانِ فَارَقُوا بِهِمَا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَأَئِمَّتَهُمْ:

إحداهُمَا- خُرُوجُهُمْ عَنْ السُّنَّةِ، وَجَعْلُهُمْ مَا لَيْسَ بِسَيِّئَةٍ سَيِّئَةً، أَوْ مَا لَيْسَ بِحَسَنَةٍ حَسَنَةً، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَظْهَرُوهُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ قَالَ لَهُ ذُو الخويصرة التَّمِيمِيُّ: اعْدِلْ، فَإِنَّك لَمْ تَعْدِلْ. حَتَّى قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيْلَك! وَمَنْ يَعْدِلُ إذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إنْ لَمْ أَعْدِلْ**»[٢]. فَقَوْلُهُ: فَإِنَّك لَمْ تَعْدِلْ. جَعْلٌ مِنْهُ لِفِعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَفَهًا وَتَرْكَ عَدْلٍ، وَقَوْلُهُ: «اعْدِلْ» أَمْرٌ لَهُ بِمَا اعْتَقَدَهُ هُوَ حَسَنَةً مِنْ الْقِسْمَةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ، وَهَذَا الْوَصْفُ تَشْتَرِكُ فِيهِ الْبِدَعُ الْمُخَالِفَةُ لِلسُّنَّةِ، فَقَائِلُهَا لَا بُدَّ أَنْ يُثْبِتَ مَا نَفَتْهُ السُّنَّةُ، وَيَنْفِيَ مَا أَثْبَتَتْهُ السُّنَّةُ، وَيُحَسِّنُ مَا قَبَّحَتْهُ السُّنَّةُ، أَوْ يُقَبِّحَ مَا حَسَّنَتْ السُّنَّةُ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ بِدْعَةً، وَهَذَا الْقَدْرُ قَدْ يَقَعُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ خَطَأً فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ؛ لَكِنَّ أَهْلَ الْبِدَعِ يُخَالِفُونَ السُّنَّةَ الظَّاهِرَةَ الْمَعْلُومَةَ.

وَالْخَوَارِجُ جَوَّزُوا عَلَى الرَّسُولِ نَفْسِهِ أَنْ يَجُورَ وَيَضِلَّ فِي سُنَّتِهِ، وَلَمْ يُوجِبُوا طَاعَتَهُ وَمُتَابَعَتَهُ، وَإِنَّمَا صَدَّقُوهُ فِيمَا بَلَغَهُ مِنْ الْقُرْآنِ، دُونَ مَا شَرَعَهُ مِنْ السُّنَّةِ الَّتِي تُخَالِفُ -بِزَعْمِهِمْ- ظَاهِرَ الْقُرْآنِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٥١٠) في كتاب الصلاة، عن أبي ذر.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠) في كتاب المناقب، ومسلم (١٠٦٤) في كتاب الزكاة، عن أبي سعيد.

وَغَالِبُ أَهْلِ الْبِدَعِ غَيْرِ الْخَوَارِجِ يُتَابِعُونَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى هَذَا؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الرَّسُولَ لَوْ قَالَ بِخِلَافِ مَقَالَتِهِمْ لَمَا اتَّبَعُوهُ، كَمَا يُحْكَى عَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ، فِي حَدِيثِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ، وَإِنَّمَا يَدْفَعُونَ عَنْ نُفُوسِهِمْ الْحُجَّةَ: إمَّا بِرَدِّ النَّقْلِ، وَإِمَّا بِتَأْوِيلِ الْمَنْقُولِ؛ فَيَطْعَنُونَ تَارَةً فِي الْإِسْنَادِ، وَتَارَةً فِي الْمَتْنِ، وَإِلَّا فَهُمْ لَيْسُوا مُتَّبِعِينَ وَلَا مُؤْتَمِّينَ بِحَقِيقَةِ السُّنَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ، بَلْ وَلَا بِحَقِيقَةِ الْقُرْآنِ.

الْفَرْقُ الثَّانِي فِي الْخَوَارِجِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ: أَنَّهُمْ يُكَفِّرُونَ بِالذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى تَكْفِيرِهِمْ بِالذُّنُوبِ اسْتِحْلَالُ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَنَّ دَارَ الْإِسْلَامِ دَارُ حَرْبٍ، وَدَارَهُمْ هِيَ دَارُ الْإِيمَانِ، وَكَذَلِكَ يَقُولُ جُمْهُورُ الرَّافِضَةِ؛ وَجُمْهُورُ الْمُعْتَزِلَةِ، وَالْجَهْمِيَّة، وَطَائِفَةٌ مِنْ غُلَاةِ الْمُنْتَسِبَةِ إلَى أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَمُتَكَلِّمِيهِمْ.

فَهَذَا أَصْلُ الْبِدَعِ الَّتِي ثَبَتَ بِنَصِّ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، أَنَّهَا بِدْعَةٌ، وَهُوَ جَعْلُ الْعَفْوِ سَيِّئَةً، وَجَعْلُ السَّيِّئَةِ كُفْرًا.

فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْخَبِيثَيْنِ، وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُمَا مِنْ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ...

وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ هُمَا خِلَافُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَمَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ فِيمَا أَتَتْ بِهِ أَوْ شَرَعَتْهُ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ خَارِجٌ عَنْ السُّنَّةِ، وَمَنْ كَفَّرَ الْمُسْلِمِينَ بِمَا رَآهُ ذَنْبًا، سَوَاءٌ كَانَ دينًا أَوْ لَمْ يَكُنْ دينًا، وَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الْكُفَّارِ؛ فَهُوَ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ. وَعَامَّةُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ إنَّمَا تَنْشَأُ مِنْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ. (١٩/ ٧٢ بتصرف يسير).

روائع الكلمات

❁ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ، إلَّا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (١١/ ٢٠٨).

❁ فَإِنَّ اللَّذَّةَ وَالْفَرْحَةَ وَالسُّرُورَ وَطِيبَ الْوَقْتِ وَالنَّعِيمَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ (٢٨/ ٣١).

❁ وَلَيْسَ لِلْقُلُوبِ سُرُورٌ وَلَا لَذَّةٌ تَامَّةٌ إلَّا فِي مَحَبَّةِ اللهِ وَالتَّقَرُّبِ إلَيْهِ بِمَا يُحِبُّهُ، وَلَا تَمْكُنُ مَحَبَّتُهُ إلَّا بِالْإِعْرَاضِ عَنْ كُلِّ مَحْبُوبٍ سِوَاهُ (٢٨/ ٣٢).

❁ وَالْهَادِي الْمُطْلَقُ الَّذِي يَهْدِي إلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَكُلُّ أَحَدٍ مُحْتَاجٌ إلَى هِدَايَتِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ- هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَفْضَلُ أُمَّتِهِ أَفْضَلُهُمْ مُتَابَعَةً لَهُ. (٢٨/ ٤٢).

❁ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَقَدْ لَا يَنْقَلِعُ الْوَسَخُ إلَّا بِنَوْعِ مِنْ الْخُشُونَةِ؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ مِنْ النَّظَافَةِ وَالنُّعُومَةِ مَا نَحْمَدُ مَعَهُ ذَلِكَ التَّخْشِينَ. (٢٨/ ٥٣).

❁ قِيلَ: إنَّ اللهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ، وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ، وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. (٢٨/ ١٤٦).

قاعدة: الاعتصام بالرسالة

فِي وُجُوبِ الِاعْتِصَامِ بِالرِّسَالَةِ، وَبَيَانِ أَنَّ السَّعَادَةَ وَالْهُدَى فِي مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ الضَّلَالَ وَالشَّقَاءَ فِي مُخَالَفَتِهِ، وَأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فِي الْوُجُودِ؛ إمَّا عَامٌّ، وَإِمَّا خَاصٌّ؛ فَمَنْشَؤُهُ مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ، وَأَنَّ كُلَّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ مُخْتَصٌّ بِالْعَبْدِ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ أَوْ الْجَهْلُ بِمَا جَاءَ بِهِ، وَأَنَّ سَعَادَةَ الْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمُعَادِهِمْ بِاتِّبَاعِ الرِّسَالَةِ.

وَالرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْعِبَادِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا، وَحَاجَتُهُمْ إِلَيْهَا فَوْقَ حَاجَتِهِمْ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالرِّسَالَةُ رُوحُ الْعَالَمِ وَنُورُهُ وَحَيَاتُهُ، فَأَيُّ صَلَاحٍ لِلْعَالَمِ إِذَا عَدِمَ الرُّوحَ وَالْحَيَاةَ وَالنُّورَ؟

وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إِلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَيَنَالُهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ؛ وَهُوَ مِنَ الْأَمْوَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فَهَذَا وَصْفُ الْمُؤْمِنِ؛ كَانَ مَيْتًا فِي ظُلْمَةِ الْجَهْلِ فَأَحْيَاهُ اللهُ بِرُوحِ الرِّسَالَةِ وَنُورِ الْإِيمَانِ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَمَيْتُ الْقَلْبِ، فِي الظُّلُمَاتِ. وَسَمَّى اللهُ تَعَالَى رِسَالَتَهُ رُوحًا، وَالرُّوحُ إِذَا عُدِمَ فَقَدْ فُقِدَتْ الْحَيَاةُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فَذَكَرَ هُنَا الْأَصْلَيْنِ وَهُمَا: الرُّوحُ وَالنُّورُ، فَالرُّوحُ الْحَيَاةُ، وَالنُّورُ النُّورُ. (١٩/ ٩٣).

هدف الشرع الحقيقي

لَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ بِالْحِسِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ لِلْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ؛ فَإِنَّ الْحِمَارَ وَالْجَمَلَ يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الشَّعِيرِ وَالتُّرَابِ، بَلْ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّ فَاعِلَهَا فِي مَعَاشِهِ وَمُعَادِهِ كَنَفْعِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالْعَدْلِ وَالْبِرِّ وَالتَّصَدُّقِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْأَمَانَةِ وَالْعِفَّةِ، وَالشَّجَاعَةِ وَالْحُلْمِ وَالصَّبْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمَالِيكِ وَالْجَارِ، وَأَدَاءِ الْحُقُوقِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لله، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالرِّضَا بِمَوَاقِعِ

الْقَدَرِ بِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِ وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ، وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ، وَخَشْيَتِهِ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَالتَّقْوَى إِلَيْهِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ، وَاحْتِسَابِ الثَّوَابِ عِنْدَهُ، وَتَصْدِيقِهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَطَاعَتِهِ فِي كُلِّ مَا أُمِرُوا بِهِ، مِمَّا هُوَ نَفْعٌ وَصَلَاحٌ لِلْعَبْدِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ شَقَاوَتُهُ وَمَضَرَّتُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

وَلَوْلَا الرِّسَالَةُ لَمْ يَهْتَدِ الْعَقْلُ إِلَى تَفَاصِيلِ النَّافِعِ وَالضَّارِّ فِي الْمَعَاشِ وَالْمُعَادِ، فَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَأَشْرَفِ مِنَّةٍ عَلَيْهِمْ: أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبَيَّنَ لَهُمْ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ الْأَنْعَامِ وَالْبَهَائِمِ، بَلْ أَشَرَّ حَالًا مِنْهَا، فَمَنْ قَبِلَ رِسَالَةَ اللهِ وَاسْتَقَامَ عَلَيْهَا فَهُوَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، وَمَنْ رَدَّهَا وَخَرَجَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ شَرِّ الْبَرِيَّةِ، وَأَسْوَأُ حَالًا مِنْ الْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ. (١٩/ ٩٩).

حكمة التكرار في القرآن

يُسَمَّى اللهُ وَرَسُولُهُ وَكِتَابُهُ بِأَسْمَاءٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الِاسْمُ الْآخَرُ، وَلَيْسَ فِي هَذَا تَكْرَارٌ، بَلْ فِيهِ تَنْوِيعُ الْآيَاتِ، مِثْلَ: أَسْمَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إِذَا قِيلَ: مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَد، وَالْحَاشِرُ، وَالْعَاقِبُ، وَالْمُقَفَّى، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ[1]. فِي كُلِّ اسْمٍ دَلَالَةٌ عَلَى مَعْنًى لَيْسَ فِي الِاسْمِ الْآخَرِ، وَإِنْ كَانَتْ الذَّاتُ وَاحِدَةً فَالصِّفَاتُ مُتَنَوِّعَةٌ.

وَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ إِذَا قِيلَ فِيهِ: قُرْآنٌ، وَفُرْقَانٌ، وَبَيَانٌ؛ وَهُدًى، وَبَصَائِرُ، وَشِفَاءٌ، وَنُورٌ، وَرَحْمَةٌ، وَرُوحٌ. فَكُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى لَيْسَ هُوَ الْمَعْنَى الْآخَرَ.

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (٢٣٥٥) في كتاب الفضائل، عن أبي موسى الأشعري.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الرَّبِّ تَعَالَى إِذَا قِيلَ: الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيْمِنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ. فَكُلُّ اسْمٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى لَيْسَ هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي الِاسْمِ الْآخَرِ، فَالذَّاتُ وَاحِدَةٌ، وَالصِّفَاتُ مُتَعَدِّدَةٌ، فَهَذَا فِي الْأَسْمَاءِ الْمُفْرَدَةِ.

وَكَذَلِكَ فِي الْجُمَلِ التَّامَّةِ يُعَبِّرُ عَنْ الْقِصَّةِ بِجُمَلٍ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ فِيهَا، ثُمَّ يُعَبِّرُ عَنْهَا بِجُمَلٍ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ أُخَرَ، وَإِنْ كَانَتْ الْقِصَّةُ الْمَذْكُورَةُ ذَاتُهَا وَاحِدَةً فَصِفَاتُهَا مُتَعَدِّدَةٌ، فَفِي كُلِّ جُمْلَةٍ مِنْ الْجُمَلِ مَعْنًى لَيْسَ فِي الْجُمَلِ الْأُخَرِ.

وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ تَكْرَارٌ أَصْلًا، وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ كَرَّرَ الْقَصَصَ مَعَ إِمْكَانِ الِاكْتِفَاءِ بِالْوَاحِدَةِ، وَكَانَ الْحِكْمَةُ فِيهِ: أَنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَرِدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيُقْرِئُهُمْ الْمُسْلِمُونَ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ كَافِيًا، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَى الْقَبَائِلِ الْمُتَفَرِّقَةِ بِالسُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْآيَاتُ وَالْقِصَصُ مُثَنَّاةً مُتَكَرِّرَةً لَوَقَعَتْ قِصَّةُ مُوسَى إِلَى قَوْمٍ، وَقِصَّةُ عِيسَى إِلَى قَوْمٍ، وَقِصَّةُ نُوحٍ إِلَى قَوْمٍ، فَأَرَادَ اللهُ أَنَّ يُشْهِرَ هَذِهِ الْقِصَصَ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ، وَأَنْ يُلْقِيَهَا إِلَى كُلِّ سَمْعٍ- فَهَذَا كَلَامُ مَنْ لَمْ يُقَدِّرْ الْقُرْآنَ قَدْرَهُ. (١٩/ ١٦٧).

السلوك

فَإِنَّ السُّلُوكَ هُوَ بِالطَّرِيقِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا وَرَسُولُهُ مِنْ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، وَهَذَا كُلُّهُ مُبَيَّنٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّ هَذَا بِمَنْزِلَةِ الْغِذَاءِ الَّذِي لَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْهُ. (١٩/ ٢٧٤).

الاتباع أصل من أصول الدين

الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُحِبَّ مَا أَحَبَّ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ يُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ، فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدِ أَنْ يَجْعَلَ الْأَصْلَ فِي الدِّينِ لِشَخْصِ إِلَّا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يَقُولَ إِلَّا لِكِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. وَمَنْ نَصَّبَ شَخْصًا كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَوَالَى وَعَادَى عَلَى مُوَافَقَتِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ؛ فَهُوَ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ﴾ [الروم:٣٢]. وَإِذَا تَفَقَّهَ الرَّجُلُ وَتَأَدَّبَ بِطَرِيقَةِ قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، مِثْلَ اتِّبَاعِ الْأَئِمَّةِ وَالْمَشَايِخِ؛ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ قُدْوَتَهُ وَأَصْحَابَهُ هُمُ الْعِيَارَ؛ فَيُوَالِي مَنْ وَافَقَهُمْ، وَيُعَادِي مَنْ خَالَفَهُمْ، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ التَّفَقُّهَ الْبَاطِنَ فِي قَلْبِهِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَهَذَا زَاجِرٌ. وَكَمَائِنُ الْقُلُوبِ تَظْهَرُ عِنْدَ الْمِحَنِ. وَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى مَقَالَةٍ، أَوْ يَعْتَقِدَهَا، لِكَوْنِهَا قَوْلَ أَصْحَابِهِ، وَلَا يُنَاجِزَ عَلَيْهَا، بَلْ لِأَجْلِ أَنَّهَا مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، أَوْ أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، لِكَوْنِ ذَلِكَ طَاعَةً للهِ وَرَسُولِهِ. وَيَنْبَغِي لِلدَّاعِي أَنْ يُقَدِّمَ فِيمَا اسْتَدَلُّوا بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ وَهُدًى، ثُمَّ يَجْعَلَ إِمَامَ الْأَئِمَّةِ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ كَلَامَ الْأَئِمَّةِ.

وَلَا يَخْلُو أَمْرُ الدَّاعِي مِنْ أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ- أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا أَوْ مُقَلِّدًا، فَالْمُجْتَهِدُ يَنْظُرُ فِي تَصَانِيفِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ؛ ثُمَّ يُرَجِّحُ مَا يَنْبَغِي تَرْجِيحُهُ.

الثَّانِي- الْمُقَلِّدُ يُقَلِّدُ السَّلَفَ؛ إِذِ الْقُرُونُ الْمُتَقَدِّمَةُ أَفْضَلُ مِمَّا بَعْدَهَا.

فَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَنَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا رَبُّنَا: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦]، وَنَأْمُرُ بِمَا أَمَرَنَا بِهِ، وَنَنْهَى عَمَّا نَهَانَا عَنْهُ فِي نَصِّ كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ

نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧] الْآيَةَ. فَمَبْنَى أَحْكَامِ هَذَا الدِّينِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَالْإِجْمَاعِ. (٢٠/ ٨).

بصيرة المؤمن

وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ مَعْمُورًا بِالتَّقْوَى انْجَلَتْ لَهُ الْأُمُورُ وَانْكَشَفَتْ، بِخِلَافِ الْقَلْبِ الْخَرَابِ الْمُظْلِمِ؛ قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ: «إِنَّ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ سِرَاجًا يُزْهِرُ». وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ الدَّجَّالَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ قَارِئٍ وَغَيْرِ قَارِئٍ**»(١). فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَبَيَّنُ لَهُ مَا لَا يَتَبَيَّنُ لِغَيْرِهِ؛ وَلَا سِيَّمَا فِي الْفِتَنِ، وَيَنْكَشِفُ لَهُ حَالُ الْكَذَّابِ الْوَضَّاعِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّ الدَّجَّالَ أَكْذَبُ خَلْقِ اللهِ، مَعَ أَنَّ اللهَ يُجْرِي عَلَى يَدَيْهِ أُمُورًا هَائِلَةً، ومخاريق مُزَلْزِلَةً، حَتَّى إِنَّ مَنْ رَآهُ افْتَتَنَ بِهِ، فَيَكْشِفُهَا اللهُ لِلْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَعْتَقِدَ كَذِبَهَا وَبُطْلَانَهَا.

وَكُلَّمَا قَوِيَ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ قَوِيَ انْكِشَافُ الْأُمُورِ لَهُ؛ وَعَرَفَ حَقَائِقَهَا مِنْ بَوَاطِلِهَا، وَكُلَّمَا ضَعُفَ الْإِيمَانُ ضَعُفَ الْكَشْفُ، وَذَلِكَ مَثَلُ السِّرَاجِ الْقَوِيِّ وَالسِّرَاجِ الضَّعِيفِ فِي الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥]، قَالَ: هُوَ الْمُؤْمِنُ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ الْمُطَابِقَةِ لِلْحَقِّ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فِيهَا بِالْأَثَرِ، فَإِذَا سَمِعَ فِيهَا بِالْأَثَرِ كَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ.

فَالْإِيمَانُ الَّذِي فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ يُطَابِقُ نُورَ الْقُرْآنِ، فَالْإِلْهَامُ الْقَلْبِيُّ تَارَةً يَكُونُ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلِ وَالْعِلْمِ، وَالظَّنُّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَذِبٌ، وَأَنَّ هَذَا الْعَمَلَ بَاطِلٌ، وَهَذَا أَرْجَحُ مِنْ هَذَا، أَوْ هَذَا أَصْوَبُ. (٢٠/ ٤٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٤) عن حذيفة.

العاقل

يُقَالُ: لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْلَمُ الْخَيْرَ مِنْ الشَّرِّ، وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْلَمُ خَيْرَ الْخَيْرَيْنِ وَشَرَّ الشَّرَّيْنِ. (٢٠/ ٥٤).

ليلة واحدة بلا سلطان

اسْتَقَرَّ فِي عُقُولِ النَّاسِ... يُرَجِّحُونَ وُجُودَ السُّلْطَانِ مَعَ ظُلْمِهِ، عَلَى عَدَمِ السُّلْطَانِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ: سِتُّونَ سَنَةً مِنْ سُلْطَانٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِلَا سُلْطَانٍ. (٢٠/ ٥٤).

مراعاة الحال

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وَالْحُجَّةُ عَلَى الْعِبَادِ إِنَّمَا تَقُومُ بِشَيْئَيْنِ:

١- بِشَرْطِ التَّمَكُّنِ مِنْ الْعِلْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ.

٢- وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ.

فَأَمَّا الْعَاجِزُ عَنْ الْعِلْمِ كَالْمَجْنُونِ أَوْ الْعَاجِزِ عَنْ الْعَمَلِ فَلَا أَمْرَ عَلَيْهِ وَلَا نَهْيَ، وَإِذَا انْقَطَعَ الْعِلْمُ بِبَعْضِ الدِّينِ أَوْ حَصَلَ الْعَجْزُ عَنْ بَعْضِهِ؛ كَانَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْعَاجِزِ عَنْ الْعِلْمِ أَوْ الْعَمَلِ بِقَوْلِهِ، كَمَنْ انْقَطَعَ عَنْ الْعِلْمِ بِجَمِيعِ الدِّينِ، أَوْ عَجَزَ عَنْ جَمِيعِهِ، كَالْجُنُونِ مَثَلًا، وَهَذِهِ أَوْقَاتُ الْفَتَرَاتِ، فَإِذَا حَصَلَ مَنْ يَقُومُ بِالدِّينِ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْأُمَرَاءِ أَوْ مَجْمُوعِهِمَا كَانَ بَيَانُهُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا، بِمَنْزِلَةِ بَيَانِ الرَّسُولِ لِمَا بُعِثَ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُبَلِّغُ إِلَّا مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَلَمْ تَأْتِ الشَّرِيعَةُ جُمْلَةً، كَمَا يُقَالُ: إِذَا أَرَدْت أَنْ تُطَاعَ فَأْمُرْ بِمَا يُسْتَطَاعُ. فَكَذَلِكَ الْمُجَدِّدُ لِدِينِهِ وَالْمُحْيِي

لِسُنَّتِهِ؛ لَا يُبَلِّغُ إِلَّا مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، كَمَا أَنَّ الدَّاخِلَ فِي الْإِسْلَامِ لَا يُمْكِنُ حِينَ دُخُولِهِ أَنْ يُلَقَّنَ جَمِيعَ شَرَائِعِهِ وَيُؤْمَرَ بِهَا كُلِّهَا.

وَكَذَلِكَ التَّائِبُ مِنْ الذُّنُوبِ؛ وَالْمُتَعَلِّمُ وَالْمُسْتَرْشِدُ؛ لَا يُمْكِنُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنْ يُؤْمَرَ بِجَمِيعِ الدِّينِ، وَيُذْكَرَ لَهُ جَمِيعُ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِذَا لَمْ يُطِقْهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا لَمْ يَكُنْ لِلْعَالِمِ وَالْأَمِيرِ أَنْ يُوجِبَهُ جَمِيعَهُ ابْتِدَاءً، بَلْ يَعْفُوَ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِمَا لَا يُمْكِنُ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ إلَى وَقْتِ الْإِمْكَانِ، كَمَا عَفَا الرَّسُولُ عَمَّا عَفَا عَنْهُ إلَى وَقْتِ بَيَانِهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ إقْرَارِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْوَاجِبَاتِ؛ لِأَنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ مَشْرُوطٌ بِإِمْكَانِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَقَدْ فَرَضْنَا انْتِفَاءَ هَذَا الشَّرْطِ.

فَتَدَبَّرْ هَذَا الْأَصْلَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ.

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ سُقُوطُ كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ وَاجِبَةً أَوْ مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ؛ لِعَدَمِ إمْكَانِ الْبَلَاغِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ حُجَّةُ اللهِ فِي الْوُجُوبِ أَوْ التَّحْرِيمِ، فَإِنَّ الْعَجْزَ مُسْقِطٌ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا فِي الْأَصْلِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الِاجْتِهَادِيَّةِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، أَنَّ مَا قَالَهُ الْعَالِمُ أَوْ الْأَمِيرُ أَوْ فَعَلَهُ بِاجْتِهَادٍ أَوْ تَقْلِيدٍ؛ فَإِذَا لَمْ يَرَ الْعَالِمُ الْآخَرُ وَالْأَمِيرُ الْآخَرُ مِثْلَ رَأْيِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِهِ أَوْ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِمَا يَرَاهُ مَصْلَحَةً، وَلَا يَنْهَى عَنْهُ، إذْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَنْهَى غَيْرَهُ عَنْ اتِّبَاعِ اجْتِهَادِهِ، وَلَا أَنْ يُوجِبَ عَلَيْهِ اتِّبَاعَهُ، فَهَذِهِ الْأُمُورُ فِي حَقِّهِ مِنْ الْأَعْمَالِ الْمَعْفُوَّةِ، لَا يَأْمُرُ بِهَا وَلَا يَنْهَى عَنْهَا، بَلْ هِيَ بَيْنَ الْإِبَاحَةِ وَالْعَفْوِ. وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ جِدًّا فَتَدَبَّرْهُ. (٢٠/ ٥٩).

جذر الخير ومعدن الشر

الصِّدْقُ أَسَاسُ الْحَسَنَاتِ وَجِمَاعُهَا، وَالْكَذِبُ أَسَاسُ السَّيِّئَاتِ وَنِظَامُهَا، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ حَيٌّ نَاطِقٌ، فَالْوَصْفُ الْمُقَوِّمُ لَهُ الْفَاصِلُ لَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الدَّوَابِّ هُوَ الْمَنْطِقُ، وَالْمَنْطِقُ قِسْمَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ صِحَّتُهُ بِالصِّدْقِ، وَفَسَادُهُ بِالْكَذِبِ، فَالْكَاذِبُ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ الْبَهِيمَةِ الْعَجْمَاءِ، وَالْكَلَامُ الْخَبَرِيُّ هُوَ الْمُمَيِّزُ لِلْإِنْسَانِ، وَهُوَ أَصْلُ الْكَلَامِ الْإِنْشَائِيِّ، فَإِنَّهُ مَظْهَرُ الْعِلْمِ، وَالْإِنْشَاءُ مَظْهَرُ الْعَمَلِ، وَالْعِلْمُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعَمَلِ وَمُوجِبٌ لَهُ، فَالْكَاذِبُ لَمْ يَكْفِهِ أَنَّهُ سَلَبَ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ حَتَّى قَلَبَهَا إلَى ضِدِّهَا، وَلِهَذَا قِيلَ: لَا مُرُوءَةَ لِكَذُوبٍ، وَلَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ، وَلَا إخَاءَ لِمَلُولٍ، وَلَا سُؤْدَدَ لِبَخِيلٍ، فَإِنَّ الْمُرُوءَةَ مَصْدَرُ الْمَرْءِ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ مَصْدَرُ الْإِنْسَانِ.

الثَّانِي- أَنَّ الصِّفَةَ الْمُمَيِّزَةَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ هُوَ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ الصَّادِقُ الْأَمِينُ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٢-٣٣].

الثَّالِثُ- أَنَّ الصِّفَةَ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ هُوَ الصِّدْقُ، فَإِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ، وَعَلَى كُلِّ خُلُقٍ يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ، لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ. (٢٠/ ٧٤).

القلب مفطور على محبة الخير

إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْ بِأَمْرٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ سَبَبَهُ وَمُقْتَضِيَهُ فِي جِبِلَّةِ الْعَبْدِ، وَجَعَلَهُ مُحْتَاجًا إلَيْهِ وَفِيهِ صَلَاحُهُ وَكَمَالُهُ؛ فَإِنَّهُ أَمَرَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَالْقُلُوبُ

فِيهَا أَقْوَى الْأَسْبَابِ لِمَعْرِفَةِ بَارِيهَا وَالْإِقْرَارِ بِهِ، وَأَمَرَ بِالْعِلْمِ وَالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي فِي الْقُلُوبِ مَعْرِفَتُهَا وَمَحَبَّتُهَا؛ وَلِهَذَا سُمِّيَتْ مَعْرُوفًا، وَنَهَى عَنِ الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، وَعَنِ الْكَذِبِ وَالظُّلْمِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُنْكِرُهَا الْقُلُوبُ. وَإِنَّمَا يَفْعَلُ الْآدَمِيُّ الشَّرَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ لِجَهْلِهِ بِهِ، أَوْ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَشْتَهِيهِ وَيَلْتَذُّ بِوُجُودِهِ، أَوْ يَسْتَضِرُّ بِعَدَمِهِ، وَالْجَهْلُ عَدَمُ الْعِلْمِ، فَمَا كَانَ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ سَبَبُهُ الْجَهْلُ فَلِعَدَمِ فِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ، وَمَا كَا نَ سَبَبُهُ الْحَاجَةَ مِنْ شَهْوَةٍ أَوْ نَفْرَةٍ فَلِعَدَمِ الْمَأْمُورِ بِهِ الَّذِي يَقْتَضِي حَاجَتَهُ؛ مِثْلَ أَنْ يَزْنِيَ لِعَدَمِ اسْتِعْفَافِهِ بِالنِّكَاحِ الْمُبَاحِ، أَوْ يَأْكُلَ الطَّعَامَ الْحَرَامَ لِعَدَمِ اسْتِعْفَافِهِ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْمُبَاحِ، وَإِلَّا فَإِذَا فَعَلَ الْمَأْمُورَ بِهِ الَّذِي يُغْنِيهِ عَنِ الْحَرَامِ لَمْ يَقَعْ فِيهِ. فَثَبَتَ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ خَلَقَ اللهُ فِي الْعَبْدِ سَبَبَهُ وَمُقْتَضِيَهُ، وَأَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ إِنَّمَا يَقَعُ لِعَدَمِ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ الْمَانِعِ عَنْهُ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ فِي خِلْقَتِهِ مَا يَقْتَضِيهِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَبِهِ صَلَاحُهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَكْلِ لِلْجَسَدِ، بَلْ هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَبِمَنْزِلَةِ النِّكَاحِ لِلنَّوْعِ؛ وَهُوَ مِنَ الْمَأْمُورِ بِهِ.

وَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ لَيْسَ فِيهِ سَبَبُهُ إِلَّا لِعَدَمِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَكَانَ وُجُودُهُ لِعَدَمِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَكَانَ عَدَمُ الْمَأْمُورِ بِهِ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْ وُجُودِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ لِتَضَرُّرِهِ بِهِ مِنْ وَجْهَيْنِ، وَفِي تَرْكِهِ أَشَدَّ اسْتِحْقَاقًا لِلذَّمِّ وَالْعِقَابِ؛ لِوُجُودِ مُقْتَضِيهِ فِيهِ الْمُعِينِ لَهُ عَلَيْهِ. وَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ لَيْسَ فِيهِ مُقْتَضِيهِ فِي الْأَصْلِ إِلَّا مَعَ عَدَمِ الْمَأْمُورِ بِهِ، وَأَمَّا عَدَمُهُ فَلَا يَقْتَضِيهِ إِلَّا بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَهَذَا هَذَا. (٢٠/ ١٢١).

البر والتقوى

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْبِرُّ مَا أُمِرْتَ بِهِ؛ وَالتَّقْوَى مَا نُهِيتَ عَنْهُ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مَقْرُونًا. (٢٠/ ١٣٥).

كتمان النصوص عند المبتدع

فَلَا تَجِدُ قَطُّ مُبْتَدِعًا إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ كِتْمَانَ النُّصُوصِ الَّتِي تُخَالِفُهُ، وَيُبْغِضُهَا، وَيُبْغِضُ إِظْهَارَهَا وَرِوَايَتَهَا وَالتَّحَدُّثَ بِهَا، وَيُبْغِضُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا ابْتَدَعَ أَحَدٌ بِدْعَةً إِلَّا نُزِعَتْ حَلَاوَةُ الْحَدِيثِ مِنْ قَلْبِهِ. (٢٠/ ١٦١).

التقليد والاتباع

وَلَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ تَقْلِيدُ شَخْصٍ بِعَيْنِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُ، وَلَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ الْتِزَامُ مَذْهَبِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ غَيْرِ الرَّسُولِ ﷺ فِي كُلِّ مَا يُوجِبُهُ وَيُخْبِرُ بِهِ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وَاتِّبَاعُ شَخْصٍ لِمَذْهَبِ شَخْصٍ بِعَيْنِهِ، لِعَجْزِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الشَّرْعِ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ إِنَّمَا هُوَ مِمَّا يَسُوغُ لَهُ، لَيْسَ هُوَ مِمَّا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ إِذَا أَمْكَنَهُ مَعْرِفَةُ الشَّرْعِ بِغَيْرِ ذَلِكَ الطَّرِيقِ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَا اسْتَطَاعَ، وَيَطْلُبَ عِلْمَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، فَيَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ. (٢٠/ ٢٠٩).

احذروا زلة العالم

الْمَفْسَدَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِفِعْلِ وَاحِدٍ مِنْ الْعَامَّةِ مُحَرَّمًا لَمْ يَعْلَمْ تَحْرِيمَهُ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ مَعْرِفَةُ تَحْرِيمِهِ؛ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ مِنْ الْمَفْسَدَةِ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ إحْلَالِ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ لِمَا قَدْ حَرَّمَهُ

الشَّارِعُ، وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ تَحْرِيمَهُ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ مَعْرِفَةُ تَحْرِيمِهِ، وَلِهَذَا قِيلَ: احْذَرُوا زَلَّةَ الْعَالِمِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا زَلَّ زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالَمٌ. (٢٠/ ٢٧٤).

الجعالة للشفاء

إِذَا جَعَلَ لِلطَّبِيبِ جُعْلًا عَلَى شِفَاءِ الْمَرِيضِ جَازَ، كَمَا أَخَذَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ جُعِلَ لَهُمْ قَطِيعٌ عَلَى شِفَاءِ سَيِّدِ الْحَيِّ، فَرَقَاهُ بَعْضُهُمْ حَتَّى بَرِئَ، فَأَخَذُوا الْقَطِيعَ. فَإِنَّ الْجُعْلَ كَانَ عَلَى الشِّفَاءِ لَا عَلَى الْقِرَاءَةِ.

وَلَوْ اسْتَأْجَرَ طَبِيبًا إِجَارَةً لَازِمَةً عَلَى الشِّفَاءِ لَمْ يَجُزْ؛ لِأَنَّ الشِّفَاءَ غَيْرُ مَقْدُورٍ لَهُ، فَقَدْ يَشْفِيهِ اللهُ وَقَدْ لَا يَشْفِيهِ، فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا تَجُوزُ فِيهِ الْجَعَالَةُ دُونَ الْإِجَارَةِ اللَّازِمَةِ. (٢٠/ ٥٠٧).

ثلاث فوائد جليلة في غض البصر

إحْدَاهَا- حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ وَلَذَّتُهُ الَّتِي هِيَ أَحْلَى وَأَطْيَبُ مِمَا تَرَكَهُ للهِ، فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ، وَالنَّفْسُ تُحِبُّ النَّظَرَ إِلَى هَذِهِ الصُّوَرِ، لَا سِيَّمَا نُفُوسُ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ وَالصَّفَا، فَإِنَّهُ يَبْقَى فِيهَا رِقَّةٌ تُجْتَذَبُ بِسَبَبِهَا إِلَى الصُّوَرِ، حَتَّى تَبْقَى تَجْذِبُ أَحَدَهُمْ وَتَصْرَعُهُ كَمَا يَصْرَعُهُ السَّبُعُ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ التَّابِعِينَ: مَا أَنَا عَلَى الشَّابِّ التَّائِبِ مِنْ سَبُعٍ يَجْلِسُ إِلَيْهِ بِأَخْوَفَ عَلَيْهِ مِنْ حَدَثٍ جَمِيلٍ يَجْلِسُ إِلَيْهِ.. ثُمَّ النَّظَرُ يُؤَكِّدُ الْمَحَبَّةَ، فَيَكُونُ عِلَاقَةً لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ صَبَابَةً لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ غَرَامًا لِلُزُومِهِ لِلْقَلْبِ كَالْغَرِيمِ الْمُلَازِمِ لِغَرِيمِهِ، ثُمَّ عِشْقًا إِلَى أَنْ يَصِيرَ تتيما، وَالْمُتَيَّمُ الْمُعَبَّدُ، وَتَيَّمَ اللهَ: عَبَدَ اللهَ، فَيَبْقَى الْقَلْبُ عَبْدًا لِمَنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ أَخًا، بَلْ وَلَا خَادِمًا، وَهَذَا إِنَّمَا يُبْتَلَى بِهِ أَهْلُ الْأَعْرَاضِ عَنْ الْإِخْلَاصِ للهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى

فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ كَانَتْ مُشْرِكَةً، فَوَقَعَتْ مَعَ تَزَوُّجِهَا فِيمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنَ السُّوءِ، وَيُوسُفُ مَعَ عُزُوبَتِهِ وَمُرَاوَدَتِهَا لَهُ وَاسْتِعَانَتِهَا عَلَيْهِ بِالنِّسْوَةِ وَعُقُوبَتِهَا لَهُ بِالْحَبْسِ عَلَى الْعِفَّةِ: عَصَمَهُ اللهُ بِإِخْلَاصِهِ للهِ؛ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠]، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، وَالْغَيُّ هُوَ اتِّبَاعُ الْهَوَى. وَهَذَا الْبَابُ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ اتِّبَاعِ الْهَوَى.

وَأَمَّا الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ فِي غَضِّ الْبَصَرِ فَهُوَ: أَنَّهُ يُورِثُ نُورَ الْقَلْبِ، وَالْفِرَاسَةَ، قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ لُوطٍ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]. فَالتَّعَلُّقُ فِي الصُّوَرِ يُوجِبُ فَسَادَ الْعَقْلِ، وَعَمَى الْبَصِيرَةِ، وَسُكْرَ الْقَلْبِ، بَلْ جُنُونَهُ، كَمَا قِيلَ:

سَكْرَانُ سُكْرَ هَوًى وَسُكْرَ مُدَامَةٍ ... فَمَتَى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ؟

وَقِيلَ:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ آيَةَ النُّورِ عَقِيبَ آيَاتِ غَضِّ الْبَصَرِ، فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، وَكَانَ شاهُ بْنُ شُجَاعٍ الكرماني[1] لَا تُخْطِئُ لَهُ فِرَاسَةٌ، وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ عَمَّرَ ظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَبَاطِنَهُ بِدَوَامِ الْمُرَاقَبَةِ؛ وَغَضَّ بَصَرَهُ عَنِ الْمَحَارِمِ؛ وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ -وَذَكَرَ خَصْلَةً خَامِسَةً وَهِيَ أَكْلُ الْحَلَالِ- لَمْ تُخْطِئْ لَهُ فِرَاسَةٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْزِي الْعَبْدَ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ، فَغَضُّ بَصَرِهِ عَمَّا حَرُمَ

(١) أبو الفوارس الكرماني الزاهد؛ كان من أولاد الملوك ،فزهد وصحب أبا تراب النخشبي، وتوفي قبل الثلاثمائة. انظر ترجمته في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٣٧)، و«صفة الصفوة» (٤/ ٦٧).

يُعَوِّضُهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ جِنْسِهِ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؛ فَيُطْلِقُ نُورَ بَصِيرَتِهِ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْكُشُوفِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُنَالُ بِبَصِيرَةِ الْقَلْبِ.

وَالْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قُوَّةُ الْقَلْبِ وَثَبَاتُهُ وَشَجَاعَتُهُ، فَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ سُلْطَانَ النُّصْرَةِ مَعَ سُلْطَانِ الْحُجَّةِ. وَفِي الْأَثَرِ: «الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ». وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي الْمُتَّبِعِ لِهَوَاهُ مِنْ الذُّلِّ -ذُلِّ النَّفْسِ وَضَعْفِهَا وَمَهَانَتِهَا- مَا جَعَلَهُ اللهُ لِمَنْ عَصَاهُ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ الْعِزَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَالذِّلَّةَ لِمَنْ عَصَاهُ. (٢٠/ ٢٥٢).

فائدة جليلة في الأشياء التي لم تكن على عهد النبي ﷺ

إِنَّ مَا خَلَقَهُ اللهُ فِي سَائِرِ الْأَرْضِ مِنْ الْقُوتِ وَاللِّبَاسِ وَالْمَرَاكِبِ وَالْمَسَاكِنِ؛ لَمْ يَكُنْ كُلُّ نَوْعٍ مِنْهُ كَانَ مَوْجُودًا فِي الْحِجَازِ، فَلَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ الْقُوتِ وَالْفَاكِهَةِ، وَلَا لَبِسَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ اللِّبَاسِ. ثُمَّ إِنَّ مَنْ كَانَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضٍ أُخْرَى -كَالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَخُرَاسَانَ وأرمينية وَأَذْرَبِيجَانَ وَالْمَغْرِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ- عِنْدَهُمْ أَطْعِمَةٌ، وَثِيَابٌ مَجْلُوبَةٌ عِنْدَهُمْ، أَوْ مَجْلُوبَةٌ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا تَرْكَ الِانْتِفَاعِ بِذَلِكَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ سُنَّةً؛ لِكَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَأْكُلْ مِثْلَهُ وَلَمْ يَلْبَسْ مِثْلَهُ؛ إِذْ عَدَمُ الْفِعْلِ إِنَّمَا هُوَ عَدَمُ دَلِيلٍ وَاحِدٍ مِنْ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهُوَ أَضْعَفُ مِنْ الْقَوْلِ، بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ. وَسَائِرُ الْأَدِلَّةِ مِنْ أَقْوَالِهِ: كَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَإِذْنِهِ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى.. هِيَ أَقْوَى وَأَكْبَرُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ عَدَمُ سَائِرِ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ أَيْضًا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، فَنَفْيُ الْحُكْمِ بِالِاسْتِحْبَابِ لِانْتِفَاءِ دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ مِنْ غَيْرِ تَأَمُّلِ بَاقِي الْأَدِلَّةِ- خَطَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَقَدَّرَ

فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت:١٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٨]، وَلَمْ تَكُنْ الْبِغَالُ مَوْجُودَةً بِأَرْضِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَرْكَبْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَغْلَةً، إلَّا الْبَغْلَةَ الَّتِي أَهْدَاهَا لَهُ الْمُقَوْقِسُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَمِثْلُهَا فِي الْقُرْآنِ: يَمْتَنُّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ بِنِعَمِهِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٢٤-٣١]. وَلَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ الْحِجَازِ زَيْتُونٌ، وَلَا نُقِلَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَكَلَ زَيْتُونًا، وَلَكِنْ لَعَلَّ الزَّيْتَ كَانَ يُجْلَبُ إلَيْهِمْ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ [التين:١]، وَلَمْ يَكُنْ بِأَرْضِهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، وَلَا نُقِلَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْهُمَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ [المؤمنون:٢٠]، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»(١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور:٣٥]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ [عبس:٣٠]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْبَحْرِ: ﴿ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل:١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف:١٢-١٤]، وَلَمْ يَرْكَبِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَحْرَ، وَلَا أَبُو بَكْرٍ، وَلَا عُمَرُ، وَقَدْ أَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) حسن لغيره. أخرجه الترمذي (١٨٥١) عن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٩٨).

بِمَنْ يَرْكَبُ الْبَحْرَ مِنْ أُمَّتِهِ، غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ كَأَنَّهُمْ مُلُوكٌ عَلَى الْأَسِرَّةِ - لِأُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ ملحان، وَقَالَتْ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنت مِنهُم»[1]. وَكَانَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَطْعَمُ مَا يَجِدُهُ فِي أَرْضِهِ، وَيَلْبَسُ مَا يَجِدُهُ، وَيَرْكَبُ مَا يَجِدُهُ مِمَّا أَبَاحَهُ اللهُ تَعَالَى، فَمَنْ اسْتَعْمَلَ مَا يَجِدُهُ فِي أَرْضِهِ فَهُوَ الْمُتَّبِعُ لِلسُّنَّةِ، كَمَا أَنَّهُ حَجَّ الْبَيْتَ مِنْ مَدِينَتِهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ مِنْ مَدِينَةِ نَفْسِهِ فَهُوَ الْمُتَّبِعُ لِلسُّنَّةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ تِلْكَ.

وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجَاهِدُ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، فَمَنْ جَاهَدَ مَنْ يَلِيهِ مِنْ هَؤُلَاءِ فَقَدْ اتَّبَعَ السُّنَّةَ، وَإِنْ كَانَ نَوْعُ هَؤُلَاءِ غَيْرَ نَوْعِ أُولَئِكَ، إِذْ أُولَئِكَ كَانَ غَالِبُهُمْ عَرَبًا، وَلَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ هُمْ عَلَيْهِ، فَمَنْ جَاهَدَ سَائِرَ الْمُشْرِكِينَ: تُرْكَهُمْ وَهِنْدَهُمْ وَغَيْرَهُمْ؛ فَقَدْ فَعَلَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَتْ أَصْنَامُهُمْ لَيْسَتْ تِلْكَ الْأَصْنَامَ. وَمَنْ جَاهَدَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فَقَدْ اتَّبَعَ السُّنَّةَ، وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ نَوْعٍ آخَرَ غَيْرِ النَّوْعِ الَّذِينَ جَاهَدَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ جَاهَدَ يَهُودَ الْمَدِينَةِ: كقريظة وَالنَّضِيرِ وَبَنِيَّ قَيْنُقَاعَ وَيَهُودِ خَيْبَرَ؛ وَضَرَبَ الْجِزْيَةَ عَلَى نَصَارَى نَجْرَانَ، وَغَزَا نَصَارَى الشَّامِ؛ عَرَبَهَا وَرُومَهَا، عَامَ تَبُوكَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا قِتَالٌ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَعَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ قَاتَلُوهُمْ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ، وَقَالَ: «أَمِيرُكُمْ زَيْدٌ، فَإِنْ قُتِلَ فَجَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ»[2]. وَصَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ، وَكَانُوا مَجُوسًا، عَلَى الْجِزْيَةِ، وَهُمْ أَهْلُ هَجَرَ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَدِمَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ فَجَعَلَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَا ثَابَ حَتَّى قَسَمَهُ، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمَيَّزْنَا بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَبَيَّنَّا أَنَّ السُّنَّةَ هِيَ مَا قَامَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ عَلَيْهِ عَلَى زَمَانِهِ، أَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ وَلَمْ يُفْعَلْ عَلَى

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري (٢٧٩٩)، ومسلم (١٩١٢)، وأبو داود (٢٤٩٠) بنحوه.

(٢) صحيح. انظر «إرواء الغليل» (١٦٦٢) للألباني.

زَمَانِهِ، لِعَدَمِ الْمُقْتَضِي حِينَئِذٍ لِفِعْلِهِ، أَوْ وُجُودِ الْمَانِعِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ أَمَرَ بِهِ أَوْ اسْتَحَبَّهُ فَهُوَ سُنَّةٌ، كَمَا أَمَرَ بِإِجْلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَكَمَا جَمَعَ الصَّحَابَةُ الْقُرْآنَ فِي الْمُصْحَفِ. (٢١/ ٣١٤).

حُكم تجديد الوضوء

عُلِمَ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُوجِبُ الْوُضُوءَ عَلَى مَنْ صَلَّى، ثُمَّ قَامَ إِلَى صَلَاةٍ أُخْرَى، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ أَنَّهُ صَلَّى بِالْمُسْلِمِينَ يَوْمَ عَرَفَةَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا؛ جَمَعَ بِهِمْ بَيْنَ الصَّلَاتَيْنِ، وَصَلَّى خَلْفَهُ أُلُوفٌ مُؤَلَّفَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ. وَلَمَّا سَلَّمَ مِنَ الظُّهْرِ، صَلَّى بِهِمُ الْعَصْرَ، وَلَمْ يُحْدِثْ وُضُوءًا لَا هُوَ وَلَا أَحَدٌ وَلَا أَمَرَ النَّاسَ بِإِحْدَاثِ وُضُوءٍ، وَلَا نَقَلَ ذَلِكَ أَحَدٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّجْدِيدَ لَا يُسْتَحَبُّ مُطْلَقًا.

وَهَلْ يُسْتَحَبُّ التَّجْدِيدُ لِكُلِّ صَلَاةٍ مِنَ الْخَمْسِ؟

فِيهِ نِزَاعٌ، وَفِيهِ عَنْ أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ رِوَايَتَانِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا لَمَّا قَدِمَ مُزْدَلِفَةَ صَلَّى بِهِمُ الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمْعًا، مِنْ غَيْرِ تَجْدِيدِ وُضُوءٍ لِلْعِشَاءِ، وَهُوَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ قَدْ قَامَ هُوَ وَهُمْ إِلَى صَلَاةٍ بَعْدَ صَلَاةٍ، وَأَقَامَ لِكُلِّ صَلَاةٍ إِقَامَةً، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَحَادِيثِ الْجَمْعِ الثَّابِتَةِ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كُلُّهَا تَقْتَضِي أَنَّهُ هُوَ ﷺ، وَالْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُ؛ صَلَّوْا الثَّانِيَةَ مِنَ الْمَجْمُوعَتَيْنِ بِطِهَارَةِ الْأُولَى، لَمْ يُحْدِثُوا لَهَا وُضُوءًا.

وَكَذَلِكَ هُوَ ﷺ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَضَّأُ لِصَلَاةِ اللَّيْلِ، فَيُصَلِّي بِهِ الْفَجْرَ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ حَتَّى

يَغُطُّ. وَيَقُولُ: «تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»[١]. فَهَذَا أَمْرٌ مِنْ أَصَحِّ مَا يَكُونُ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ ثُمَّ يُصَلِّي بِذَلِكَ الْوُضُوءِ الَّذِي تَوَضَّأَ لِلنَّافِلَةِ يُصَلِّي بِهِ الْفَرِيضَةَ. فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صَلَاةٍ؟ وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَاشْتَغَلَ بِهِمْ عَنْ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ وَلَمْ يُحْدِثْ وُضُوءًا، وَكَانَ يُصَلِّي تَارَةً الْفَرِيضَةَ ثُمَّ النَّافِلَةَ، وَتَارَةً النَّافِلَةَ، ثُمَّ الْفَرِيضَةَ، وَتَارَةً فَرِيضَةً ثُمَّ فَرِيضَةً. كُلُّ ذَلِكَ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ. وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ صَلَّوْا خَلْفَهُ فِي رَمَضَانَ بِاللَّيْلِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً. وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَهْدِهِ يَتَوَضَّئُونَ ثُمَّ يُصَلُّونَ مَا لَمْ يُحْدِثُوا، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ. وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ -لَا بِإِسْنَادِ صَحِيحٍ وَلَا ضَعِيفٍ: أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ.

فَالْقَوْلُ بِاسْتِحْبَابِ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِوُجُوبِهِ؛ فَمُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ، وَالنَّقْلُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ لَا يَثْبُتُ، بَلْ الثَّابِتُ عَنْهُ خِلَافُهُ.

وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَجَلُّ مَنْ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا، وَالْكَذِبُ عَلَى عَلِيٍّ كَثِيرٌ مَشْهُورٌ: أَكْثَرُ مِنْهُ عَلَى غَيْرِهِ.

وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ سِعَةِ عِلْمِهِ بِآثَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ فِي هَذَا نِزَاعٌ، وَقَالَ أَحْمَد بْنُ الْقَاسِمِ: سَأَلْت أَحْمَد عَمَّنْ صَلَّى أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ صَلَوَاتٍ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ؟ فَقَالَ: لَا بَأْسَ بِذَلِكَ إذَا لَمْ يَنْتَقِضْ وُضُوءُهُ، مَا ظَنَنْت أَنَّ أَحَدًا أَنْكَرَ هَذَا.

---

(١) صحيح. انظر «الصحيحة» (٦٩٦) للعلامة الألباني.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ. قُلْت: وَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: يُجْزِئُ أَحَدَنَا الْوُضُوءُ مَا لَمْ يُحْدِثْ[1]. وَهَذَا هُوَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْمُفَرَّقَةِ.

وَلِهَذَا اسْتَحَبَّ أَحْمَد ذَلِكَ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ أَحْيَانًا يُصَلِّي صَلَوَاتٍ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ. كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إنِّي رَأَيْتُك صَنَعْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ صَنَعْته؟ قَالَ: عَمْدًا صَنَعْتُهُ يَا عُمَرُ»[2]. وَالْقُرْآنُ أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْمُتَوَضِّئِ أَنْ يَتَوَضَّأَ مَرَّةً ثَانِيَةً. (٢١/ ٣٧١).

أنواع المغالبات

الْمُغَالِبَاتُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: فَمَا كَانَ مُعِينًا عَلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، جَازَ بِجُعْلٍ وَبِغَيْرِ جُعْلٍ.

وَمَا كَانَ مُفْضِيًا إلَى مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ: كَالنَّرْدِ وَالشِّطْرَنْجِ، فَمَنْهِيٌّ عَنْهُ بِجُعْلٍ وَبِغَيْرِ جُعْلٍ.

وَمَا قَدْ يَكُونُ فِيهِ مَنْفَعَةٌ بِلَا مَضَرَّةٍ رَاجِحَةٍ: كَالْمُسَابَقَةِ وَالْمُصَارَعَةِ، جَازَ بِلَا جُعْلٍ. (٢٢/ ٢٢٧).

اجتماع الكلمة

وَيَسُوغُ أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْسَانُ الْأَفْضَلَ؛ لِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ؛ خَوْفًا مِنْ التَّنْفِيرِ عَمَّا يَصْلُحُ، كَمَا تَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَاءَ الْبَيْتِ عَلَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ؛ لِكَوْنِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٤) في كتاب الوضوء.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٧) في كتاب الطهارة.

قُرَيْشٍ كَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، وَخَشِيَ تَنْفِيرَهُمْ بِذَلِكَ، وَرَأَى أَنَّ مَصْلَحَةَ الِاجْتِمَاعِ والائتلاف مُقَدَّمَةٌ عَلَى مَصْلَحَةِ الْبِنَاءِ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، لَمَّا أَكْمَلَ الصَّلَاةَ خَلْفَ عُثْمَانَ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: الْخِلَافُ شَرٌّ[1]. (٢٢ / ٤٢٦).

النية المجردة

إِنَّ النِّيَّةَ الْمُجَرَّدَةَ مِنْ الْعَمَلِ يُثَابُ عَلَيْهَا، وَالْعَمَلَ الْمُجَرَّدَ عَنْ النِّيَّةِ لَا يُثَابُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ أَنَّ مَنْ عَمِلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بِغَيْرِ إخْلَاصٍ للهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ذَلِكَ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ**»[2].

وأَنَّ مَنْ نَوَى الْخَيْرَ، وَعَمِلَ مِنْهُ مَقْدُورَهُ، وَعَجَزَ عَنْ إكْمَالِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُ عَامِلٍ. (٢٢/ ٢٤٣).

حُسن الاتباع

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَّبِعًا لِأَبِي حَنِيفَةَ أَوْ مَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَحْمَدَ، وَرَأَى فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ أَنَّ مَذْهَبَ غَيْرِهِ أَقْوَى فَاتَّبَعَهُ كَانَ قَدْ أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ فِي دِينِهِ، وَلَا عَدَالَتِهِ، بِلَا نِزَاعٍ؛ بَلْ هَذَا أَوْلَى بِالْحَقِّ، وَأَحَبُّ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ يَتَعَصَّبُ لِوَاحِدٍ مُعَيَّنٍ غَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَنْ يَتَعَصَّبُ لِمَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَحْمَد أَوْ أَبِي حَنِيفَةَ، وَيَرَى أَنَّ قَوْلَ هَذَا الْمُعَيَّنِ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ دُونَ قَوْلِ الْإِمَامِ الَّذِي خَالَفَهُ، فَمَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ جَاهِلًا ضَالًّا؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ كَافِرًا؛ فَإِنَّهُ مَتَى اعْتَقَدَ

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود (١٩٦٠)، وصححه الألباني

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣٠) في كتاب الإيمان.

أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ دُونَ الْإِمَامِ الْآخَرِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُسْتَتَابَ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ، بَلْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهُ يَسُوغُ أَوْ يَنْبَغِي أَوْ يَجِبُ عَلَى الْعَامِّيِّ أَنْ يُقَلِّدَ وَاحِدًا، لَا بِعَيْنِهِ، مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ زَيْدٍ وَلَا عَمْرٍو. وَأَمَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ. فَهَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ. وَمَنْ كَانَ مُوَالِيًا لِلْأَئِمَّةِ مُحِبًّا لَهُمْ يُقَلِّدُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلسُّنَّةِ فَهُوَ مُحْسِنٌ فِي ذَلِكَ، بَلْ هَذَا أَحْسَنُ حَالًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا يُقَالُ لِمِثْلِ هَذَا مُذَبْذَبٌ، عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ. وَإِنَّمَا الْمُذَبْذَبُ الْمَذْمُومُ الَّذِي لَا يَكُونُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مَعَ الْكُفَّارِ، بَلْ يَأْتِي الْمُؤْمِنِينَ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي الْكَافِرِينَ بِوَجْهٍ. (٢٢/ ٢٤٨).

من بركة الثناء والدعاء

وَأَمَّا الدَّاعِي فَإِذَا كَانَ مُهْتَمًّا بِمَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، مِنْ جَلْبِ مَنْفَعَةٍ وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ، كَحَاجَتِهِ إِلَى الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ الضَّرُورِيِّ؛ كَانَ اشْتِغَالُهُ بِهَذَا نَفْسِهِ صَارِفًا لَهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَإِذَا دَعَا اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ يَحْصُلُ لَهُ بِالدُّعَاءِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ مَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَنْفَعُ مِنْ مَطْلُوبِهِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَقَدْ بُورِكَ لَك فِي حَاجَةٍ أَكْثَرْتَ فِيهَا قَرْعَ بَابِ سَيِّدِك.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ لَيَكُونُ لِي إِلَى اللهِ حَاجَةٌ، فَأَدْعُوهُ، فَيَفْتَحُ لِي مِنْ بَابِ مَعْرِفَتِهِ مَا أُحِبُّ مَعَهُ أَلَّا يُعَجِّلَ لِي قَضَاءَهَا؛ لِئَلَّا يَنْصَرِفَ قَلْبِي عَنْ الدُّعَاءِ. (٢٢/ ٣٨٥).

افتتاح خطبة العيد

لَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ افْتَتَحَ خُطْبَتَهُ بِغَيْرِ الْحَمْدِ، لَا خُطْبَةَ عِيدٍ وَلَا اسْتِسْقَاءٍ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ أَمرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بالحمد فَهُوَ أَجْذَمُ**»(١).

وَقَدْ كَانَ يَخْطُبُ خُطَبَ الْحَجِّ وَغَيْرَ خُطَبِ الْحَجِّ، خُطَبًا عَارِضَةً، وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ عَنْهُ أَنَّهُ افْتَتَحَ خُطْبَةً بِغَيْرِ الْحَمْدِ، فَالَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْخُطْبَةِ: الْحَمْدُ للهِ، وَالتَّشَهُّدُ، وَالْحَمْدُ يَتْبَعُهُ التَّسْبِيحُ، وَالتَّشَهُّدُ يَتْبَعُهُ التَّكْبِيرُ، وَهَذِهِ هِيَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٥]. (٢٢/ ٣٩٤).

علاج الوسواس

الِاجْتِهَادُ فِي دَفْعِ مَا يَشْغَلُ الْقَلْبَ مِنْ تَفَكُّرِ الْإِنْسَانِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ وَتَدَبُّرُ الْجَوَاذِبِ الَّتِي تَجْذِبُ الْقَلْبَ عَنْ مَقْصُودِ الصَّلَاةِ، وَهَذَا فِي كُلِّ عَبْدٍ بِحَسَبِهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْوَسْوَاسِ بِحَسَبِ كَثْرَةِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَتَعَلِيقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبَاتِ الَّتِي يَنْصَرِفُ الْقَلْبُ إِلَى طَلَبِهَا، وَالْمَكْرُوهَاتِ الَّتِي يَنْصَرِفُ الْقَلْبُ إِلَى دَفْعِهَا.

وَالْوَسَاوِسُ: إِمَّا مِنْ قَبِيلِ الْحُبِّ مِنْ أَنْ يَخْطِرَ بِالْقَلْبِ مَا قَدْ كَانَ، أَوْ مِنْ قَبِيلِ الطَّلَبِ، وَهُوَ أَنْ يَخْطِرَ فِي الْقَلْبِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ.

وَمِنْ الْوَسَاوِسِ مَا يَكُونُ مِنْ خَوَاطِرِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، فَيَتَأَلَّمُ لَهَا قَلْبُ الْمُؤْمِنِ تَأَلُّمًا شَدِيدًا، كَمَا قَالَ الصَّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مَا لَأَنْ يَخِرَّ مِنْ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. فَقَالَ: «أَوَجَدتُمُوهُ؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «**ذَلِكَ صَرِيحُ**

---

(١) ضعيف. انظر تخريجه في «إرواء الغليل» (٢) للعلامة الألباني.

الْإِيمَانِ»[١]. وَفِي لَفْظٍ: إنَّ أَحَدَنَا لَيَجِدُ فِي نَفْسِهِ مَا يَتَعَاظَمُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. فَقَالَ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إلَى الْوَسْوَسَةِ»[٢]. قَالَ كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ: فَكَرَاهَةُ ذَلِكَ، وَبُغْضُهُ، وَفِرَارُ الْقَلْبِ مِنْهُ هُوَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَانَ غَايَةُ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الْوَسْوَسَةَ، فَإِنَّ شَيْطَانَ الْجِنِّ إذَا غَلَبَ وَسْوَسَ، وَشَيْطَانَ الْإِنْسِ إذَا غَلَبَ كَذَبَ، وَالْوَسْوَاسُ يَعْرِضُ لِكُلِّ مَنْ تَوَجَّهَ إلَى اللهِ تَعَالَى بِذِكْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثْبُتَ وَيَصْبِرَ، وَيُلَازِمَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ الذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ، وَلَا يَضْجَرَ، فَإِنَّهُ بِمُلَازَمَةِ ذَلِكَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ؛ ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]. وَكُلَّمَا أَرَادَ الْعَبْدُ تَوَجُّهًا إلَى اللهِ تَعَالَى بِقَلْبِهِ جَاءَ مِنْ الْوَسْوَاسِ أُمُورٌ أُخْرَى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ بِمَنْزِلَةِ قَاطِعِ الطَّرِيقِ؛ كُلَّمَا أَرَادَ الْعَبْدُ يَسِيرُ إلَى اللهِ تَعَالَى أَرَادَ قَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: إنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: لَا نُوَسْوَسُ. فَقَالَ: صَدَقُوا، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِالْبَيْتِ الْخَرَابِ؟!

وَتَفَاصِيلُ مَا يَعْرِضُ لِلسَّالِكِينَ طَوِيلٌ مَوْضِعُهُ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: إنِّي لَأُجَهِّزُ جَيْشِي، وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ[٣]. فَذَاكَ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ مَأْمُورًا بِالْجِهَادِ، وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ أَمِيرُ الْجِهَادِ. فَصَارَ بِذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ بِمَنْزِلَةِ الْمُصَلِّي الَّذِي يُصَلِّي صَلَاةَ الْخَوْفِ، حَالَ مُعَايَنَةِ الْعَدُوِّ، إمَّا حَالَ الْقِتَالِ وَإِمَّا غَيْرَ حَالِ الْقِتَالِ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّلَاةِ وَمَأْمُورٌ بِالْجِهَادِ، فَعَلَيْهِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢) بلفظ مقارب، وابن أبي عاصم (٦٥٤) في «السنة»، وصححه الألباني في «ظلال الجنة».

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٤/ ١٠)، وأبو داود (٥١١٤) عن ابن عباس، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا، في أبواب العمل في الصلاة (١٨)، باب: تفكر الرجل الشيء في الصلاة.

أَنْ يُؤَدِّيَ الْوَاجِبَيْنِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥]. (٢٢/ ٦٠٧).

حفظ القرآن الكريم

أَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ عَيْنًا كَعِلْمِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى حِفْظِ مَا لَا يَجِبُ مِنْ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ الْأَوَّلِ وَاجِبٌ، وَطَلَبَ الثَّانِي مُسْتَحَبٌّ، وَالْوَاجِبُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُسْتَحَبِّ، وَأَمَّا طَلَبُ حِفْظِ الْقُرْآنِ: فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا تُسَمِّيهِ النَّاسُ عِلْمًا، وَهُوَ إمَّا بَاطِلٌ، أَوْ قَلِيلُ النَّفْعِ. وَهُوَ أَيْضًا مُقَدَّمٌ فِي التَّعَلُّمِ فِي حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ عِلْمَ الدِّينِ مِنْ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، فَإِنَّ الْمَشْرُوعَ فِي حَقِّ مِثْلِ هَذَا فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ أَنْ يَبْدَأَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ أَصْلُ عُلُومِ الدِّينِ، بِخِلَافِ مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ الْأَعَاجِمِ وَغَيْرِهِمْ، حَيْثُ يَشْتَغِلُ أَحَدُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْعِلْمِ مِنْ الْكَلَامِ أَوْ الْجِدَالِ وَالْخِلَافِ، أَوْ الْفُرُوعِ النَّادِرَةِ، أَوْ التَّقْلِيدِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ، أَوْ غَرَائِبِ الْحَدِيثِ الَّتِي لَا تَثْبُتُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهَا، وَكَثِيرٍ مِنْ الرِّيَاضِيَّاتِ الَّتِي لَا تَقُومُ عَلَيْهَا حُجَّةٌ، وَيَتْرُكُ حِفْظَ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَلَا بُدَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ التَّفْصِيلِ. وَالْمَطْلُوبُ مِنْ الْقُرْآنِ هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ حَافِظِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ. (٢٣/ ٥٤).

الخرور للسجود أول الخضوع المنافي للكبر

قال تعالى عَنْ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص:٢٤]، لَا رَيْبَ أَنَّهُ سَجَدَ، كَمَا ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ سَجَدَ للهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مَدَحَهُ بِكَوْنِهِ خَرَّ رَاكِعًا، وَهَذَا أَوَّلُ السُّجُودِ، وَهُوَ خُرُورُهُ. فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَوَّلَ فِعْلِهِ، وَهُوَ خُرُورُهُ رَاكِعًا؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا عِبَادَةٌ مَقْصُودَةٌ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْخُرُورُ كَانَ لِيَسْجُدَ. كَمَا أَثْنَى عَلَى النَّبِيِّينَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]، ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ ﴿أَنَّهُمْ ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩]، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخُرُورَ هُوَ أَوَّلُ الْخُضُوعِ الْمُنَافِي لِلْكِبْرِ، فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ يَكْرَهُ أَنْ يَخِرَّ، وَيُحِبُّ أَنْ لَا يَزَالُ مُنْتَصِبًا مُرْتَفِعًا، إذَا كَانَ الْخُرُورُ فِيهِ ذُلٌّ وَتَوَاضُعٌ وَخُشُوعٌ؛ وَلِهَذَا يَأْنَفُ مِنْهُ أَهْلُ الْكِبْرِ مِنْ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ. فَكَانَ أَحَدُهُمْ إذَا سَقَطَ مِنْهُ الشَّيْءُ لَا يَتَنَاوَلُهُ لِئَلَّا يَخِرَّ وَيَنْحَنِي، فَإِنَّ الْخُرُورَ انْخِفَاضُ الْوَجْهِ وَالرَّأْسِ، وَهُوَ أَعْلَى مَا فِي الْإِنْسَانِ وَأَفْضَلُهُ، وَهُوَ قَدْ خُلِقَ رَفِيعًا مُنْتَصِبًا، فَإِذَا خَفَضَهُ لَا سِيَّمَا بِالسُّجُودِ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ ذُلِّهِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَصْلُحْ السُّجُودُ إلَّا لِلَّهِ، فَمَنْ سَجَدَ لِغَيْرِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ لَهُ فَهُوَ مُسْتَكْبِرٌ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَكِلَاهُمَا كَافِرٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، وَقَالَ فِي قِصَّةِ بلقيس: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٤-٢٦]، وَالشَّمْسُ أَعْظَمُ مَا يُرَى فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَأَعَمُّهُ نَفْعًا وَتَأْثِيرًا، فَالنَّهْيُ عَنْ السُّجُودِ لَهَا نَهْيٌ عَمَّا هُوَ دُونَهَا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى مِنْ الْكَوَاكِبِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت:٣٧]، دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ السُّجُودَ لِلْخَالِقِ لَا لِلْمَخْلُوقِ، وَإِنْ عَظُمَ قَدْرُهُ؛ بَلْ لِمَنْ خَلَقَهُ، وَهَذَا لِمَنْ يَقْصِدُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ. كَمَا قَالَ: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَسْجُدَ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ. (٢٣/ ١٤٥).

موجبات التلاوة

[تلاوة آيات القرآن] تُوجِبُ شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- فَهْمُهَا وَتَدَبُّرُهَا لِيَعْلَمَ مَا تَضَمَّنَتْهُ.

وَالثَّانِي- عِبَادَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ إِذَا سُمِعَتْ، فَتِلَاوَتُهُ إِيَّاهَا وَسَمَاعُهَا يُوجِبُ هَذَا وَهَذَا، فَلَوْ سَمِعَهَا السَّامِعُ وَلَمْ يَفْهَمْهَا كَانَ مَذْمُومًا، وَلَوْ فَهِمَهَا وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهَا كَانَ مَذْمُومًا، بَلْ لَا بُدَّ لِكُلِّ أَحَدٍ عِنْدَ سَمَاعِهَا مِنْ فَهْمِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا. (٢٣/ ١٤٧).

لذة الورد اليومي

مَنْ كَانَ لَهُ وِرْدٌ مَشْرُوعٌ مِنْ صَلَاةِ الضُّحَى، أَوْ قِيَامِ لَيْلٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يُصَلِّيهِ حَيْثُ كَانَ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَدَعَ وِرْدَهُ الْمَشْرُوعَ لِأَجْلِ كَوْنِهِ بَيْنَ النَّاسِ، إِذَا عَلِمَ اللهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ يَفْعَلُهُ سِرًّا للهِ، مَعَ اجْتِهَادِهِ فِي سَلَامَتِهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَمُفْسِدَاتِ الْإِخْلَاصِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: تَرْكُ الْعَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ. وَفِعْلُهُ فِي مَكَانِهِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ مَعِيشَتُهُ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَفْعَلَهُ حَيْثُ تَتَعَطَّلُ مَعِيشَتُهُ وَيَشْتَغِلُ قَلْبُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ كُلَّمَا كَانَتْ أَجْمَعَ لِلْقَلْبِ، وَأَبْعَدَ مِنَ الْوَسْوَاسِ؛ كَانَتْ أَكْمَلَ. (٢٣/ ١٧٤).

موضع دعاء الاستخارة

يَجُوزُ الدُّعَاءُ فِي صَلَاةِ الِاسْتِخَارَةِ وَغَيْرِهَا: قَبْلَ السَّلَامِ وَبَعْدَهُ، وَالدُّعَاءُ قَبْلَ السَّلَامِ أَفْضَلُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ كَانَ قَبْلَ السَّلَامِ، وَالْمُصَلِّي قَبْلَ السَّلَامِ لَمْ يَنْصَرِفْ فَهَذَا أَحْسَنُ. (٢٣/ ١٧٧).

لا ينهي عن خير ولو كان رياء

مَنْ نَهَى عَنْ أَمْرٍ مَشْرُوعٍ بِمُجَرَّدِ زَعْمِهِ أَنَّ ذَلِكَ رِيَاءٌ فَنَهْيُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ؛ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا- أَنَّ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ لَا يُنْهَى عَنْهَا خَوْفًا مِنْ الرِّيَاءِ، بَلْ يُؤْمَرُ بِهَا وَبِالْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَنَحْنُ إذَا رَأَيْنَا مَنْ يَفْعَلُهَا أَقْرَرْنَاهُ، وَإِنْ جَزَمْنَا أَنَّهُ يَفْعَلُهَا رِيَاءً، فَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، فَهَؤُلَاءِ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ يُقِرُّونَهُمْ عَلَى مَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ الدِّينِ، وَإِنْ كَانُوا مُرَائِينَ، وَلَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الْفَسَادَ فِي تَرْكِ إظْهَارِ الْمَشْرُوعِ أَعْظَمُ مِنْ الْفَسَادِ فِي إظْهَارِهِ رِيَاءً، كَمَا أَنَّ فَسَادَ تَرْكِ إظْهَارِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَوَاتِ أَعْظَمُ مِنْ الْفَسَادِ فِي إظْهَارِ ذَلِكَ رِيَاءً؛ وَلِأَنَّ الْإِنْكَارَ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى الْفَسَادِ فِي إظْهَارِ ذَلِكَ رِئَاءَ النَّاسِ.

الثَّانِي- لِأَنَّ الْإِنْكَارَ إنَّمَا يَقَعُ عَلَى مَا أَنْكَرَتْهُ الشَّرِيعَةُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنِّي لَمْ أومر أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَنْ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ؟**»(١)، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَحْبَبْنَاهُ وَوَالَيْنَاهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا شَرًّا أَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّ سَرِيرَتَهُ صَالِحَةٌ.

الثَّالِثُ- أَنَّ تَسْوِيغَ مِثْلِ هَذَا يُفْضِي إلَى أَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالْفَسَادِ يُنْكِرُونَ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالدِّينِ؛ إذَا رَأَوْا مَنْ يُظْهِرُ أَمْرًا مَشْرُوعًا مَسْنُونًا، قَالُوا: هَذَا مِرَاءٌ، فَيَتْرُكُ أَهْلُ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ إظْهَارَ الْأُمُورِ الْمَشْرُوعَةِ، حَذَرًا مِنْ لَمْزِهِمْ وَذَمِّهِمْ، فَيَتَعَطَّلُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري.

الْخَيْرُ، وَيَبْقَى لِأَهْلِ الشِّرْكِ شَوْكَةٌ، يُظْهِرُونَ الشَّرَّ وَلَا أَحَدَ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ.

الرَّابِعُ- أَنَّ مِثْلَ هَذَا مِنْ شَعَائِرِ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ يَطْعَنُ عَلَى مَنْ يُظْهِرُ الْأَعْمَالَ الْمَشْرُوعَةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٧٩]، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ عَامَ تَبُوكَ جَاءَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ يَدُهُ تَعْجِزُ مِنْ حَمْلِهَا، فَقَالُوا: هَذَا مُرَاءٍ، وَجَاءَ بَعْضُهُمْ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: لَقَدْ كَانَ اللهُ غَنِيًّا عَنْ صَاعِ فُلَانٍ. فَلَمَزُوا هَذَا، وَهَذَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ذَلِكَ وَصَارَ عِبْرَةً فِيمَنْ يَلْمِزُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ للهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٢٣/ ١٧٤).

أدب المناظرة عند السلف

كَانَ الْعُلَمَاءُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ، إذَا تَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وَكَانُوا يَتَنَاظَرُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ مُنَاظَرَةَ مُشَاوَرَةٍ وَمُنَاصَحَةٍ، وَرُبَّمَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، مَعَ بَقَاءِ الْأُلْفَةِ وَالْعِصْمَةِ وَأُخُوَّةِ الدِّينِ.

نَعَمْ، مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَالسُّنَّةَ الْمُسْتَفِيضَةَ، أَوْ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ خِلَافًا لَا يُعْذَرُ فِيهِ، فَهَذَا يُعَامَلُ بِمَا يُعَامَلُ بِهِ أَهْلُ الْبِدَعِ.

فَعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَدْ خَالَفَتْ ابْنَ عَبَّاسٍ وَغَيْرَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ، فِي أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ، وَقَالَتْ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ

تَعَالَى الْفِرْيَةَ»[١]. وَجُمْهُورُ الْأُمَّةِ عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ، مَعَ أَنَّهُمْ لَا يُبَدِّعُونَ الْمَانِعِينَ الَّذِينَ وَافَقُوا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَكَذَلِكَ أَنْكَرَتْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْوَاتُ يَسْمَعُونَ دُعَاءَ الْحَيِّ لَمَّا قِيلَ لَهَا: إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[٢]. فَقَالَتْ: إنَّمَا قَالَ: إنَّهُمْ لَيَعْلَمُونَ الْآنَ أَنَّ مَا قُلْتُ لَهُمْ حَقٌّ[٣]. وَمَعَ هَذَا، فَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمَوْتَى يَسْمَعُونَ خَفْقَ النِّعَالِ، كَمَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ الرَّجُلِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ؛ إلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**»[٤]، صَحَّ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحَادِيثِ. وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ تَأَوَّلَتْ، وَاَللَّهُ يَرْضَى عَنْهَا، وَكَذَلِكَ مُعَاوِيَةُ؛ نُقِلَ عَنْهُ فِي أَمْرِ الْمِعْرَاجِ أَنَّهُ قَالَ: إنَّمَا كَانَ بِرُوحِهِ. وَالنَّاسُ عَلَى خِلَافِ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَأَمَّا الِاخْتِلَافُ فِي (الْأَحْكَامِ) فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَنْضَبِطَ، وَلَوْ كَانَ كُلَّمَا اخْتَلَفَ مُسْلِمَانِ فِي شَيْءٍ تَهَاجَرَا لَمْ يَبْقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عِصْمَةٌ وَلَا أُخُوَّةٌ، وَلَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سَيِّدَا الْمُسْلِمِينَ يَتَنَازَعَانِ فِي أَشْيَاءَ لَا يَقْصِدَانِ إلَّا الْخَيْرَ. (٢٤/ ١٧٢).

ضابط هجر المبتدع ومرتكب الكبائر

صح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ؛ فَيُصُدُّ هَذَا، وَيُصُدُّ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧) في كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٠) في كتاب الجنائز.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧١) في كتاب الجنائز.

(٤) ضعيف. انظر تخريجه وعله إسناده في «الضعيفة» (٤٤٩٣) للعلامة الألباني.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٠) في كتاب البر والصلة، عن أبي أيوب الأنصاري.

نَعَمْ، صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ هَجَرَ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَصَاحِبَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَظَهَرَتْ مَعْصِيَتُهُمْ، وَخِيفَ عَلَيْهِمُ النِّفَاقُ، فَهَجَرَهُمْ وَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِهَجْرِهِمْ، حَتَّى أَمَرَهُمْ بِاعْتِزَالِ أَزْوَاجِهِمْ مِنْ غَيْرِ طَلَاقٍ خَمْسِينَ لَيْلَةً، إِلَى أَنْ نَزَلَتْ تَوْبَتُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ. وَكَذَلِكَ أَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمُسْلِمِينَ بِهَجْرِ صبيغ بْنِ عسلٍ التَّمِيمِيِّ، لَمَّا رَآهُ مِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْكِتَابِ، إِلَى أَنْ مَضَى عَلَيْهِ حَوْلٌ وَتَبَيَّنَ صِدْقُهُ فِي التَّوْبَةِ، فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِمُرَاجَعَتِهِ. فَبِهَذَا وَنَحْوِهِ رَأَى الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَهْجُرُوا مَنْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الزَّيْغِ مِنَ الْمُظْهِرِينَ لِلْبِدَعِ الدَّاعِينَ إِلَيْهَا وَالْمُظْهِرِينَ لِلْكَبَائِرِ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُسْتَتِرًا بِمَعْصِيَةٍ، أَوْ مُسِرًّا لِبِدْعَةٍ غَيْرِ مُكَفِّرَةٍ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُهْجَرُ، وَإِنَّمَا يُهْجَرُ الدَّاعِي إِلَى الْبِدْعَةِ؛ إِذْ الْهَجْرُ نَوْعٌ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَإِنَّمَا يُعَاقَبُ مَنْ أَظْهَرَ الْمَعْصِيَةَ قَوْلًا أَوْ عَمَلًا.

وَأَمَّا مَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، فَإِنَّا نَقْبَلُ عَلَانِيَتَهُ وَنَكِلُ سَرِيرَتَهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ غَايَتَهُ أَنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَةِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ عَلَانِيَتَهُمْ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ، لَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ عَامَ تَبُوكَ يَحْلِفُونَ وَيَعْتَذِرُونَ.

وَلِهَذَا كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَد وَأَكْثَرُ مَنْ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ: كَمَالِكٍ وَغَيْرِهِ، لَا يَقْبَلُونَ رِوَايَةَ الدَّاعِي إِلَى بِدْعَةٍ، وَلَا يُجَالِسُونَهُ، بِخِلَافِ السَّاكِتِ، وَقَدْ أَخْرَجَ أَصْحَابُ الصَّحِيحِ عَنْ جَمَاعَاتٍ مِمَّنْ رُمِيَ بِبِدْعَةٍ مِنَ السَّاكِتِينَ، وَلَمْ يُخْرِجُوا عَنِ الدُّعَاةِ إِلَى الْبِدَعِ. (٢٤/ ١٧٤).

فَرْشِ السَّجَّادَةِ فِي الرَّوْضَةِ الشَّرِيفَةِ

لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْرِشَ شَيْئًا وَيَخْتَصَّ بِهِ مَعَ غَيْبَتِهِ وَيَمْنَعَ بِهِ غَيْرَهُ[1]. هَذَا غَصْبٌ لِتِلْكَ الْبُقْعَةِ، وَمَنْعٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ الصَّلَاةِ. وَالسُّنَّةُ أَنْ يَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، وَأَمَّا مَنْ يَتَقَدَّمُ بِسَجَّادَةٍ فَهُوَ ظَالِمٌ يُنْهَى عَنْهُ، وَيَجِبُ رَفْعُ تِلْكَ السَّجَاجِيدِ، وَيُمَكَّنُ النَّاسُ مِنْ مَكَانِهَا. (٢٤/ ٢١٦).

المصلحة ترجح فعل المستحب وتركه

إن الْعَمَلُ الْوَاحِدُ يَكُونُ فِعْلُهُ مُسْتَحَبًّا تَارَةً، وَتَرْكُهُ تَارَةً، بِاعْتِبَارِ مَا يَتَرَجَّحُ مِنْ مَصْلَحَةِ فِعْلِهِ وَتَرْكِهِ، بِحَسَبِ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَالْمُسْلِمُ قَدْ يَتْرُكُ الْمُسْتَحَبَّ إذَا كَانَ فِي فِعْلِهِ فَسَادٌ رَاجِحٌ عَلَى مَصْلَحَتِهِ، كَمَا تَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَاءَ الْبَيْتِ عَلَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ، وَقَالَ لِعَائِشَةَ: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَك حَدِيثُو عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ، وَلَأَلْصَقْتهَا بِالْأَرْضِ، وَلَجَعَلْت لَهَا بَابَيْنِ؛ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ**» وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[2]. فَتَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ أَفْضَلَ الْأَمْرَيْنِ، لِلْمُعَارِضِ الرَّاجِحِ، وَهُوَ حِدْثَانُ عَهْدِ قُرَيْشٍ بِالْإِسْلَامِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ التَّنْفِيرِ لَهُمْ، فَكَانَتْ الْمَفْسَدَةُ رَاجِحَةً عَلَى الْمَصْلَحَةِ. وَلِذَلِكَ اسْتَحَبَّ الْأَئِمَّةُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ أَنْ يَدَعَ الْإِمَامُ مَا هُوَ عِنْدَهُ أَفْضَلُ، إذَا كَانَ فِيهِ تَأْلِيفُ الْمَأْمُومِينَ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ فَصْلُ الْوِتْرِ أَفْضَلَ؛ بِأَنْ يُسَلِّمَ فِي الشَّفْعِ ثُمَّ يُصَلِّيَ رَكْعَةَ

---

(١) هذا لا يعني منع الصلاة على الفرش في المساجد، كما توهم بعض المبتدعة، ولكن الذي يعنيه شيخ الإسلام اختصاص المكان ومنع غيره، أو وضع السجادة في المساجد المفروشة بالحصباء، مع اعتقاد نجاسة الأرض.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٦) في كتاب العلم، ومسلم (١٣٣٣) في كتاب الحج.

الْوِتْرِ، وَهُوَ يَؤُمُّ قَوْمًا لَا يَرَوْنَ إِلَّا وَصْلَ الْوِتْرِ، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَفْضَلِ كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ الْحَاصِلَةُ بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ بِوَصْلِ الْوِتْرِ أَرْجَحَ مِنْ مَصْلَحَةِ فَصْلِهِ، مَعَ كَرَاهَتِهِمْ لِلصَّلَاةِ خَلْفَهُ، وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَرَى الْمُخَافَتَةَ بِالْبَسْمَلَةِ أَفْضَلَ، أَوْ الْجَهْرَ بِهَا، وَكَانَ الْمَأْمُومُونَ عَلَى خِلَافِ رَأْيِهِ، فَفَعَلَ الْمَفْضُولَ عِنْدَهُ لِمَصْلَحَةِ الْمُوَافَقَةِ وَالتَّأْلِيفِ الَّتِي هِيَ رَاجِحَةٌ عَلَى مَصْلَحَةِ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ؛ كَانَ جَائِزًا حَسَنًا. (٢٤/ ١٩٥).

تدفع المضرة وتستجلب المنفعة بما يرضي الله

إن الْأَحَادِيثَ فِيمَا يُثِيبُ اللهُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَدْفَعَ كُلَّ ضَرَرٍ بِمَا شَاءَ، وَلَا يَجْلِبُ كُلَّ نَفْعٍ بِمَا شَاءَ، بَلْ لَا يَجْلِبُ النَّفْعَ إِلَّا بِمَا فِيهِ تَقْوَى الله، وَلَا يَدْفَعُ الضَّرَرَ إِلَّا بِمَا فِيهِ تَقْوَى الله، فَإِنْ كَانَ مَا يَفْعَلُهُ [المعالج أو يقوله] مِنْ الْعَزَائِمِ وَالْأَقْسَامِ وَالدُّعَاءِ وَالْخَلْوَةِ وَالسَّهَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَبَاحَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ لَمْ يَفْعَلْهُ. (٢٤/ ٢٨٠).

الشكوى لله وحده

إن دُعَاء اللهَ وَاسْتِغَاثَتَهُ بِهِ وَاشْتِكَاءَهُ إِلَيْهِ لَا يُنَافِي الصَّبْرَ الْمَأْمُورَ بِهِ، وَإِنَّمَا يُنَافِيهِ فِي ذَلِكَ الِاشْتِكَاءُ إِلَى الْمَخْلُوقِ، وَلَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ طَاوُوسٍ: أَنَّهُ كَرِهَ أَنِينَ الْمَرِيضِ، وَقَالَ: إِنَّهُ شَكْوَى. وَقُرِئَ ذَلِكَ عَلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ، فَمَا أَنَّ حَتَّى مَاتَ، وَيُرْوَى عَنْ السِّرِيِّ السقطي أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَ الْمَرِيضِ «آهْ»؛ مِنْ ذِكْرِ الله، وَهَذَا إِذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله، وَهَذَا كَمَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَرَأَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، ثُمَّ بَكَى حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ

مِنْ آخِرِ الصُّفُوفِ، فَالْأَنِينُ وَالْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَالتَّضَرُّعُ وَالشِّكَايَةُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَسَنٌ، وَأَمَّا الْمَكْرُوهُ فَيُكْرَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٢٤/ ٢٨٤).

مسألة عجيبة

سُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ امْرَأَةٍ نَصْرَانِيَّةٍ بَعْلُهَا مُسْلِمٌ؛ تُوُفِّيَتْ وَفِي بَطْنِهَا جَنِينٌ لَهُ سَبْعَةُ أَشْهُرٍ، فَهَلْ تُدْفَنُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَوْ مَعَ النَّصَارَى؟

فَأَجَابَ: لَا تُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا مَقَابِرِ النَّصَارَى، لِأَنَّهُ اجْتَمَعَ مُسْلِمٌ وَكَافِرٌ، فَلَا يُدْفَنُ الْكَافِرُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا الْمُسْلِمُ مَعَ الْكَافِرِينَ؛ بَلْ تُدْفَنُ مُنْفَرِدَةً، وَيُجْعَلُ ظَهْرُهَا إِلَى الْقِبْلَةِ؛ لِأَنَّ وَجْهَ الطِّفْلِ إِلَى ظَهْرِهَا، فَإِذَا دُفِنَتْ كَذَلِكَ كَانَ وَجْهُ الصَّبِيِّ الْمُسْلِمِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَالطِّفْلُ يَكُونُ مُسْلِمًا بِإِسْلَامِ أَبِيهِ، وَإِنْ كَانَتْ أُمُّهُ كَافِرَةً، بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ. (٢٤/ ٢٩٥).

للتحريف والجهل نصيب عند بعض المسلمين

وَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تَتَّبِعُ سَنَنَ مَنْ قَبْلَهَا «**حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»[1]؛ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَيُغَيِّرُ مَعْنَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِيمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ أَوْ أَمَرَ بِهِ، وَفِيهِمْ أُمِّيُّونَ لَا يَفْقَهُونَ مَعَانِيَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَلْ رُبَّمَا يَظُنُّونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمَانِيِّ الَّتِي هِيَ مُجَرَّدُ التِّلَاوَةِ، وَمَعْرِفَةُ ظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ، هُوَ غَايَةُ الدِّينِ، ثُمَّ قَدْ يُنَاظِرُونَ الْمُحَرِّفِينَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَوِ الْكُفَّارِ، مَعَ عِلْمِ أُولَئِكَ بِمَا لَمْ يَعْلَمْهُ الْأُمِّيُّونَ، فَإِمَّا أَنْ تَضِلَّ الطَّائِفَتَانِ، وَيَصِيرَ كَلَامُ هَؤُلَاءِ فِتْنَةً عَلَى أُولَئِكَ، حَيْثُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَا يَقُولُهُ الْأُمِّيُّونَ هُوَ غَايَةُ عِلْمِ

---

(١) انظر صحيح البخاري (٧٣١٩) في كتاب الاعتصام، ومسلم (٢٦٦٩) في كتاب العلم.

الدِّينِ، وَيَصِيرُوا فِي طَرَفَيْ النَّقِيضِ. وَإِمَّا أَنْ يَتَّبِعَ أُولَئِكَ الْأُمِّيُّونَ أُولَئِكَ الْمُحَرِّفِينَ فِي بَعْضِ ضَلَالِهِمْ. وَهَذَا مِنْ بَعْضِ أَسْبَابِ تَغْيِيرِ الْمِلَلِ، إلَّا أَنَّ هَذَا الدِّينَ مَحْفُوظٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]. وَلَا تَزَالُ فِيهِ طَائِفَةٌ قَائِمَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْحَقِّ، فَلَمْ يَنَلْهُ مَا نَالَ غَيْرَهُ مِنْ الْأَدْيَانِ مِنْ تَحْرِيفِ كُتُبِهَا، وَتَغْيِيرِ شَرَائِعِهَا، مُطْلَقًا؛ لِمَا يُنْطِقُ اللهُ بِهِ الْقَائِمِينَ بِحُجَّةِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ، الَّذِينَ يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللهِ الْمَوْتَى، وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِهِ أَهْلَ الْعَمَى، فَإِنَّ الْأَرْضَ لَنْ تَخْلُوَ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ؛ لِكَيْلَا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ. (٢٥/ ١٣٠).

تسمية الهلال هلالًا

الْهِلَالَ أَمْرٌ مَشْهُودٌ مَرْئِيٌّ بِالْأَبْصَارِ، وَمِنْ أَصَحِّ الْمَعْلُومَاتِ مَا شُوهِدَ بِالْأَبْصَارِ، وَلِهَذَا سَمَّوْهُ هِلَالًا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ تَدُلُّ عَلَى الظُّهُورِ وَالْبَيَانِ: إمَّا سَمْعًا، وَإِمَّا بَصَرًا، كَمَا يُقَالُ: أَهَلَّ بِالْعُمْرَةِ، وَأَهَلَّ بِالذَّبِيحَةِ لِغَيْرِ اللهِ. إذَا رَفَعَ صَوْتَهُ، وَيُقَالُ لِوَقْعِ الْمَطَرِ: الْهَلَلُ. وَيُقَالُ: اسْتَهَلَّ الْجَنِينُ. إذَا خَرَجَ صَارِخًا، وَيُقَالُ: تَهَلَّلَ وَجْهُهُ. إذَا اسْتَنَارَ وَأَضَاءَ، وَقِيلَ: إنَّ أَصْلَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ، ثُمَّ لَمَّا كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ سَمَّوْهُ هِلَالًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

يُهِلُّ بِالْفَرْقَدِ رُكْبَانُهَا ... كَمَا يُهِلُّ الرَّاكِبُ الْمُعْتَمِرُ

وَتَهَلُّلُ الْوَجْهِ مَأْخُوذٌ مِنْ اسْتِنَارَةِ الْهِلَالِ. (٢٥/ ١٣٦).

الأمية في الدين

الْأُمِّيَّةُ: مِنْهَا مَا هُوَ مُحَرَّمٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مَكْرُوهٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ نَقْصٌ وَتَرْكُ الْأَفْضَلِ، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْ الْفَاتِحَةَ، أَوْ لَمْ يَقْرَأْ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ تُسَمِّيهِ الْفُقَهَاءُ فِي بَابِ الصَّلَاةِ أُمِّيًّا،

وَيُقَابِلُونَهُ بِالْقَارِئِ، فَيَقُولُونَ: لَا يَصِحُّ اقْتِدَاءُ الْقَارِئِ بِالْأُمِّيِّ، وَيَجُوزُ أَنْ يَأْتَمَّ الْأُمِّيُّ بِالْأُمِّيِّ. وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْمَسَائِلِ، وَغَرَضُهُمْ بِالْأُمِّيِّ هُنَا الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقِرَاءَةَ الْوَاجِبَةَ، سَوَاءٌ كَانَ يَكْتُبُ أَوْ لَا يَكْتُبُ، يَحْسُبُ أَوْ لَا يَحْسُبُ، فَهَذِهِ الْأُمِّيَّةُ مِنْهَا مَا هُوَ تَرْكُ وَاجِبٍ يُعَاقَبُ الرَّجُلُ عَلَيْهِ، إذَا قَدَرَ عَلَى التَّعَلُّمِ فَتَرَكَهُ.

وَمِنْهَا مَا هُوَ مَذْمُومٌ كَالَّذِي وَصَفَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٨٧]، فَهَذِهِ صِفَةُ مَنْ لَا يَفْقَهُ كَلَامَ اللهِ وَلا يَعْمَلُ بِهِ، وَإِنَّمَا يَقْتَصِرُ عَلَى مُجَرَّدِ تِلَاوَتِهِ. كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا». فَالْأُمِّيُّ هُنَا قَدْ يَقْرَأُ حُرُوفَ الْقُرْآنِ أَوْ غَيْرَهَا وَلَا يَفْقَهُ، بَلْ يَتَكَلَّمُ فِي الْعِلْمِ بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْلِ ظَنًّا، فَهَذَا أَيْضًا أُمِّيٌّ مَذْمُومٌ، كَمَا ذَمَّهُ اللهُ؛ لِنَقْصِ عِلْمِهِ الْوَاجِبِ، سَوَاءٌ كَانَ فَرْضَ عَيْنٍ أَمْ كِفَايَةٍ.

وَمِنْهَا مَا هُوَ الْأَفْضَلُ الْأَكْمَلُ، كَالَّذِي لَا يَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ إلَّا بَعْضَهُ، وَلَا يَفْهَمُ مِنْهُ إلَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَلَا يَفْهَمُ مِنْ الشَّرِيعَةِ إلَّا مِقْدَارَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ، فَهَذَا أَيْضًا يُقَالُ له أُمِّيٌّ، وَغَيْرُهُ مِمَّنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ عِلْمًا وَعَمَلًا أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَكْمَلُ.

فَهَذِهِ الْأُمُورُ الْمُمَيِّزَةُ لِلشَّخْصِ عَنْ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ فَضَائِلُ وَكَمَالٌ؛ فَقْدُهَا إمَّا فَقْدُ وَاجِبٍ عَيْنًا، أَوْ وَاجِبٍ عَلَى الْكِفَايَةِ، أَوْ مُسْتَحَبٍّ. وَهَذِهِ يُوصَفُ اللهُ بِهَا وَأَنْبِيَاؤُهُ مُطْلَقًا، فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، جَمَعَ الْعِلْمَ وَالْكَلَامَ النَّافِعَ، طَلَبًا وَخَبَرًا وَإِرَادَة. وَكَذَلِكَ أَنْبِيَاؤُهُ، وَنَبِيُّنَا سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ. (٢٥/ ١٦٩).

الأجر على قدر منفعة العمل

مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ رِضَاهُ أَوْ مَحَبَّتُهُ فِي مُجَرَّدِ عَذَابِ النَّفْسِ وَحَمْلِهَا عَلَى الْمَشَاقِّ، حَتَّى يَكُونَ الْعَمَلُ كُلَّمَا كَانَ أَشَقَّ كَانَ أَفْضَلَ، كَمَا يَحْسَبُ كَثِيرٌ مِنْ الْجُهَّالِ؛ أَنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ! لَا، وَلَكِنَّ الْأَجْرَ عَلَى قَدْرِ مَنْفَعَةِ الْعَمَلِ وَمَصْلَحَتِهِ وَفَائِدَتِهِ، وَعَلَى قَدْرِ طَاعَةِ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ. فَأَيُّ الْعَمَلَيْنِ كَانَ أَحْسَنَ، وَصَاحِبُهُ أَطْوَعَ وَأَتْبَعَ، كَانَ أَفْضَلَ. فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِمَا يَحْصُلُ فِي الْقُلُوبِ حَالَ الْعَمَلِ. (٢٥/ ٢٨١).

لا يأمر الله إلا بالإصلاح

إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا فِيهِ صَلَاحُنَا، وَلَمْ يَنْهَنَا إِلَّا عَمَّا فِيهِ فَسَادُنَا، وَلِهَذَا يُثْنِي اللهُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَيَأْمُرُ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَيَنْهَى عَنْ الْفَسَادِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا الْخَبَائِثَ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَضَرَّةِ وَالْفَسَادِ، وَأَمَرَنَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنْفَعَةِ وَالصَّلَاحِ لَنَا. وَقَدْ لَا تَحْصُلُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ: كَالْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ، فَيَحْتَمِلُ تِلْكَ الْمَشَقَّةَ وَيُثَابُ عَلَيْهَا؛ لِمَا يَعْقُبُهُ مِنْ الْمَنْفَعَةِ. (٢٥/ ٢٨٢).

لا دعاء عند استقبال الحجرة النبوية

وَلَا يَدْعُو [زائر المسجد النبوي وهو] مُسْتَقْبِلُ الْحُجْرَةَ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ. وَمَالِكٍ مِنْ أَعْظَمِ الْأَئِمَّةِ كَرَاهِيَةً لِذَلِكَ. وَالْحِكَايَةُ الْمَرْوِيَّةُ عَنْهُ أَنَّهُ أَمَرَ الْمَنْصُورَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْحُجْرَةَ، وَقْتَ الدُّعَاءِ؛ كَذِبٌ عَلَى مَالِكٍ. وَلَا يَقِفُ عِنْدَ الْقَبْرِ لِلدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذَا بِدْعَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ يَقِفُ عِنْدَهُ يَدْعُو لِنَفْسِهِ،

وَلَكِنْ كَانُوا يَسْتَقْبِلُونَ الْقِبْلَةَ وَيَدْعُونَ فِي مَسْجِدِهِ، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اللهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(١)، وَقَالَ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»(٢)، وَقَالَ: «**أَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**». فَقَالُوا: كَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَرِمْتَ؟ أَيْ بَلِيتَ، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»(٣). فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَسْمَعُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ مِنَ الْقَرِيبِ، وَأَنَّهُ يَبْلُغُهُ ذَلِكَ مِنَ الْبَعِيدِ، وَقَالَ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ(٤). (٢٦/ ١٤٧).

سبب إدخال الحجرة إلى المسجد

دفن الصَّحَابَةُ [رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ مِنْ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وَكَانَتْ هِيَ وَسَائِرُ الْحُجَرِ خَارِجَ الْمَسْجِدِ مِنْ قِبْلِيِّهِ وَشَرْقِيِّهِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ فِي زَمَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عُمِّرَ هَذَا الْمَسْجِدُ وَغَيْرُهُ، وَكَانَ نَائِبُهُ عَلَى الْمَدِينَةِ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَأَمَرَ أَنْ تُشْتَرَى الْحُجَرُ، وَيُزَادَ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَتْ الْحُجْرَةُ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَبُنِيَتْ مُنْحَرِفَةً عَنْ الْقِبْلَةِ مُسَنَّمَةً؛ لِئَلَّا يُصَلِّيَ أَحَدٌ إلَيْهَا، فَإِنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إلَيْهَا**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الغَنَوي(٥). (٢٦/ ١٤٧).

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦)، وصححه العلامة الألباني (٢١٦) في «أحكام الجنائز».

(٢) حسن. أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود (٢٠٤٢)، وحسنه الألباني في «تحذير الساجد» (١٤٢).

(٣) صحيح. أخرجه أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود (١٠٤٧و١٥٣١)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥و١٦٣٦)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٣٠) في كتاب الجنائز، ومسلم (٥٢٩) عن عائشة.

(٥) أخرجه مسلم (٩٧٢) في كتاب الجنائز.

زيارة القبور بين المشروع والممنوع

وَزِيَارَةُ الْقُبُورِ عَلَى وَجْهَيْنِ: زِيَارَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَزِيَارَةٌ بِدْعِيَّةٌ.

فَالشَّرْعِيَّةُ الْمَقْصُودُ بِهَا السَّلَامُ عَلَى الْمَيِّتِ، وَالدُّعَاءُ لَهُ، كَمَا يُقْصَدُ بِالصَّلَاةِ عَلَى جِنَازَتِهِ، فَزِيَارَتُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ جِنْسِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَالسُّنَّةُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى الْمَيِّتِ وَيَدْعُوَ لَهُ، سَوَاءٌ كَانَ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَ نَبِيٍّ، كَمَا كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ إِذَا زَارُوا الْقُبُورَ أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ**»، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ». وَهَكَذَا يَقُولُ إِذَا زَارَ أَهْلَ الْبَقِيعِ وَمَنْ بِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ، أَوْ زَارَ شُهَدَاءَ أُحُدٍ وَغَيْرَهُمْ، وَلَيْسَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ قُبُورِهِمْ أَوْ قُبُورِ غَيْرِهِمْ مُسْتَحَبَّةً عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ الصَّلَاةُ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا قَبْرُ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي فِيهَا ذَلِكَ، بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ بَلْ الصَّلَاةُ فِي الْمَسَاجِدِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ؛ إِمَّا مُحَرَّمَةٌ، وَإِمَّا مَكْرُوهَةٌ.

وَالزِّيَارَةُ الْبِدْعِيَّةُ: أَنْ يَكُونَ مَقْصُودُ الزَّائِرِ أَنْ يَطْلُبَ حَوَائِجَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَيِّتِ، أَوْ يَقْصِدَ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ، أَوْ يَقْصِدَ الدُّعَاءَ بِهِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا اسْتَحَبَّهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا؛ بَلْ هُوَ مِنَ الْبِدَعِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا، بِاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَقَدْ كَرِهَ مَالِكٍ وَغَيْرُهُ أَنْ يَقُولُ الْقَائِلُ: زُرْتُ قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذَا اللَّفْظُ لَمْ يُنْقَلْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلِ الْأَحَادِيثُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذَا الْبَابِ، مِثْلَ قَوْلِهِ:

«مَنْ زَارَنِي وَزَارَ أَبِي إبْرَاهِيمَ فِي عَامٍ وَاحِدٍ ضَمِنْت لَهُ عَلَى اللهِ الْجَنَّةَ»[١]. وَقَوْلِهِ: «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَمَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي، وَمَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَمَاتِي حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي»[٢]. وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ كُلُّهَا أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ، بَلْ مَوْضُوعَةٌ، لَيْسَتْ فِي شَيْءٍ مِنْ دَوَاوِينِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَلَا نَقَلَهَا إمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، لَا الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَلَا غَيْرُهُمْ؛ وَلَكِنْ رَوَى بَعْضَهَا الْبَزَّارُ وَالدَّارَقُطْنِي وَنَحْوُهُمَا بِأَسَانِيدَ ضَعِيفَةٍ، وَلِأَنَّ مِنْ عَادَةِ الدارقطني وَأَمْثَالِهِ يَذْكُرُونَ هَذَا فِي السُّنَنِ؛ لِيُعْرَفَ، وَهُوَ وَغَيْرُهُ يُبَيِّنُونَ ضَعْفَ الضَّعِيفِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي فِيهَا شِرْكٌ وَبِدْعَةٌ نُهِيَ عَنْهَا عِنْدَ قَبْرِهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ، فَالنَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِ غَيْرِهِ أَوْلَى وَأَحْرَى. (٢٦/ ١٤٩).

قاعدة شريفة: الدين مبني على أصلين

وَذَلِكَ أَنَّ الدِّينَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلَيْنِ:

١- أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

٢- وَلَا يُعْبَدَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدُهُ بِالْبِدَعِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ فِيهِ لِأَحَدٍ شَيْئًا. وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ، فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ. قِيلَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إنَّ الْعَمَلَ إذَا كَانَ خَالِصًا، وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا؛ لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا؛ لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا.

---

(١) موضوع. انظر تخريجه أيضًا في «الضعيفة» (٤٦) للعلامة الألباني.

(٢) موضوع. وانظر تخريجه في «دفاع عن الحديث النبوي والسيرة» (١٠٨) للعلامة الألباني.

وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ للهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١]. (٢٦/ ١٥١).

حقوق الله سبحانه وحقوق رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَللَّهِ تَعَالَى حَقٌّ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ؛ كَالْعِبَادَاتِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالْحَجِّ، وَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالصَّدَقَةِ.

وَالرَّسُولُ لَهُ حَقٌّ: كَالْإِيمَانِ بِهِ، وَطَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَمُوَالَاةِ مَنْ يُوَالِيهِ، وَمُعَادَاةِ مَنْ يُعَادِيهِ، وَتَقْدِيمِهِ فِي الْمَحَبَّةِ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالنَّفْسِ، كَمَا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[1]. (٢٦/ ١٥٨).

حكم هادية

- لَا سَعَادَةَ لِلْعِبَادِ، وَلَا نَجَاةَ فِي الْمَعَادِ؛ إِلَّا بِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ. (١/ ٤).
- فَالنُّفُوسُ أَحْوَجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ مِنْهَا إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ هَذَا إِذَا فَاتَ حَصَلَ الْمَوْتُ فِي الدُّنْيَا، وَذَاكَ إِذَا فَاتَ حَصَلَ الْعَذَابُ. (١/ ٥).
- الْعَقْلِ لَا يَهْتَدِي إِلَّا إِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ. (١/ ٦).
- فَمَنْ كَانَ مُخْلِصًا فِي أَعْمَالِ الدِّينِ يَعْمَلُهَا للهِ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ أَهْلِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ. (١/ ٨).
- فَلَيْسَ فِي الْكَائِنَاتِ مَا يَسْكُنُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ، وَيَطْمَئِنُّ بِهِ، وَيَتَنَعَّمُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ؛ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ. (١/ ٢٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤) في كتاب الإيمان، عن أبي هريرة.

❁ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَضُرَّهُ مَحْبُوبُهُ؛ وَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِعَذَابِهِ. (١/ ٢٨).

❁ إِذَا كُنْتَ غَيْرَ عَالِمٍ بِمَصْلَحَتِكَ، وَلَا قَادِرٍ عَلَيْهَا، وَلَا مُرِيدٍ لَهَا كَمَا يَنْبَغِي؛ فَغَيْرُكَ مِنْ النَّاسِ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ عَالِمًا بِمَصْلَحَتِكَ، وَلَا قَادِرًا عَلَيْهَا، وَلَا مُرِيدًا لَهَا. (١/ ٣٣).

❁ أَسْعَدُ الْخَلْقِ: أَعْظَمُهُمْ عُبُودِيَّةً للهِ. (١/ ٣٩).

❁ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى الله. (١/ ٥٥).

❁ كُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ عَمَلًا لِلْخَيْرِ ازْدَادَ إيمَانُهُ. هَذَا هُوَ الْإِنْعَامُ الْحَقِيقِيُّ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧]. (١/ ١٣٣).

❁ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِمَا لَيْسَ مِنْ الْحَسَنَاتِ الْمَأْمُورِ بِهَا أَمْرَ إيجَابٍ، وَلَا اسْتِحْبَابٍ؛ فَهُوَ ضَالٌّ مُتَّبِعٌ لِلشَّيْطَانِ. (١/ ١٦٢).

❁ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هِيَ بِاتِّبَاعِ الْمُرْسَلِينَ. (٤/ ٢٦).

❁ إِذَا افْتَقَرَ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ، وَدَعَاهُ، وَأَدْمَنَ النَّظَرَ فِي كَلَامِ اللهِ، وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ؛ انْفَتَحَ لَهُ طَرِيقُ الْهُدَى. (٥/ ١١٨).

❁ مَنْ أُعْطِيَ الصَّبْرَ وَالْيَقِينَ جَعَلَهُ اللهُ إمَامًا فِي الدِّينِ. (٦/ ٢١٥).

❁ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ: بُغْضُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ. (٨/ ٣٦١).

❁ فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْقَلْبُ حُبًّا للهِ ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، وَكُلَّمَا ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً ازْدَادَ لَهُ حُبًّا وَحُرِّيَّةً عَمَّا سِوَاهُ. (١٠/ ١٩٣).

❁ حَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَى الرِّسَالَةِ أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ حَاجَةِ الْمَرِيضِ إِلَى الطِّبِّ. (١٩/ ٩٦).

❁ لَا تَنْظُرْ إلَى كَثْرَةِ ذَمِّ النَّاسِ الدُّنْيَا ذَمًّا غَيْرَ دِينِيٍّ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْعَامَّةِ إنَّمَا يَذُمُّونَهَا لِعَدَمِ حُصُولِ أَغْرَاضِهِمْ مِنْهَا. (٢٠/ ١٤٨).

❁ النَّاسَ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ النِّزَاعَ إلَّا كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ السَّمَاءِ، وَإِذَا رَدُّوا إلَى عُقُولِهِمْ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَقْلٌ. (٢٠/ ١٦٣).

❁ خَيْرَ الْأَعْمَالِ مَا كَانَ للهِ أَطْوَعَ، وَلِصَاحِبِهِ أَنْفَعَ. (٢٢/ ٣١٣).

❁ قِوَامُ الدِّينِ بِالْكِتَابِ الْهَادِي وَالسَّيْفِ النَّاصِرِ، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١]. (٢٨/ ٢٣٢).

❁ لَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللهِ إلَّا لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ. (٢٨/ ٤٤).

قبة الصخرة

وَأَمَّا (الصَّخْرَةُ) فَلَمْ يُصَلِّ عِنْدَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا الصَّحَابَةُ، وَلَا كَانَ عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَلَيْهَا قُبَّةٌ، بَلْ كَانَتْ مَكْشُوفَةً فِي خِلَافَةِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ وَمَرْوَانَ؛ وَلَكِنْ لَمَّا تَوَلَّى ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ الشَّامَ، وَوَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ الزُّبَيْرِ الْفِتْنَةُ كَانَ النَّاسُ يَحُجُّونَ فَيَجْتَمِعُونَ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، فَأَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنْ يَصْرِفَ النَّاسَ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَبَنَى الْقُبَّةَ عَلَى الصَّخْرَةِ، وَكَسَاهَا فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ لِيُرَغِّبَ النَّاسَ فِي (زِيَارَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ)، وَيَشْتَغِلُوا بِذَلِكَ عَنْ اجْتِمَاعِهِمْ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ مَنَّ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ فَلَمْ يَكُونُوا يُعَظِّمُونَ الصَّخْرَةَ، فَإِنَّهَا قِبْلَةٌ مَنْسُوخَةٌ، كَمَا أَنَّ يَوْمَ السَّبْتِ كَانَ عِيدًا فِي شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ نُسِخَ فِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَوْمِ الْجُمْعَةِ. (٢٧/ ١٢).

إنما يقدس الرجل عمله

أَمَّا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَقَدْ يَكُونُ مُقَامُهُ فِي غَيْرِ الشَّامِ أَفْضَلَ لَهُ كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ لَوْ خَرَجُوا عَنْهَا إلَى مَكَانٍ يَكُونُونَ فِيهِ أَطْوَعَ للهِ وَلِرَسُولِهِ؛ لَكَانَ أَفْضَلَ لَهُمْ. وَقَدْ كَتَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ لَهُ: هَلُمَّ إلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ. فَكَتَبَ إلَيْهِ سَلْمَانُ: إنَّ الْأَرْضَ لَا تُقَدِّسُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يُقَدِّسُ الرَّجُلَ عَمَلُهُ[1]. وَهُوَ كَمَا قَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ؛ فَإِنَّ مَكَّةَ -حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى- أَشْرَفُ الْبِقَاعِ، وَقَدْ كَانَتْ فِي غُرْبَةِ الْإِسْلَامِ دَارَ كُفْرٍ وَحَرْبٍ يَحْرُمُ الْمُقَامُ بِهَا، وَحَرُمَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَنْ يَرْجِعَ إلَيْهَا الْمُهَاجِرُونَ فَيُقِيمُوا بِهَا، وَقَدْ كَانَتْ الشَّامُ فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَبْلَ خُرُوجِهِ بِبَنِي إسْرَائِيلَ، دَارَ الصَّابِئَةِ الْمُشْرِكِينَ الْجَبَابِرَةِ الْفَاسِقِينَ، وَفِيهَا قَالَ تَعَالَى لِبَنِي إسْرَائِيلَ: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥]. فَإِنَّ كَوْنَ الْأَرْضِ (دَارَ كُفْرٍ)، أَوْ (دَارَ إسْلَامٍ أَوْ إيمَانٍ)، أَوْ (دَارَ سِلْمٍ)، أَوْ (حَرْبٍ)، أَوْ (دَارَ طَاعَةٍ)، أَوْ (مَعْصِيَةٍ)، أَوْ (دَارَ الْمُؤْمِنِينَ)، أَوْ (الْفَاسِقِينَ)- أَوْصَافٌ عَارِضَةٌ، لَا لَازِمَةٌ، فَقَدْ تَنْتَقِلُ مِنْ وَصْفٍ إلَى وَصْفٍ، كَمَا يَنْتَقِلُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ مِنْ الْكُفْرِ إلَى الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَكَذَلِكَ بِالْعَكْسِ، وَأَمَّا الْفَضِيلَةُ الدَّائِمَةُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَمَكَانٍ فَفِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. (٢٧/ ٤٤).

تفضيل قوم على قوم لا يعني تفضيل الأفراد

وَإِذَا فَضَّلْت جُمْلَةً عَلَى جُمْلَةٍ لَمْ يَسْتَلْزِمْ ذَلِكَ تَفْضِيلَ الْأَفْرَادِ عَلَى الْأَفْرَادِ، كَتَفْضِيلِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَلَى الثَّالِثِ، وَتَفْضِيلِ الْعَرَبِ عَلَى مَا سِوَاهُمْ، وَتَفْضِيلِ قُرَيْشٍ عَلَى مَا سِوَاهُمْ. (٢٧/ ٤٧).

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٧٦٩)، وأبونعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٥)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (١/ ٥٤٨)، قال الزرقاني في «المنتقى (٤/ ٧٤): «هذا منقطع، لكن أخرجه الدينوري في «المجالسة» من وجه آخر عن يحيى بن سعيد عن عبيد بن هبيره (فذكره).

تعليق الدين بما لم يأت به النبي ﷺ ضلال

وكُلّ مَنْ عَلَّقَ دِينَهُ بِالْمَجْهُولَاتِ، وَأَعْرَضَ عَمَّا بَعَثَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ، الْخَارِجُ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ. (٢٧/ ٥٧).

المؤمن لا يسأل غير الله تعالى

وَتَفْصِيلُ الْقَوْلِ: أَنَّ مَطْلُوبَ الْعَبْدِ، إنْ كَانَ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إلَّا اللهُ تَعَالَى، مِثْلَ أَنْ يَطْلُبَ شِفَاءَ مَرِيضِهِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، أَوْ وَفَاءَ دَيْنِهِ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَوْ عَافِيَةَ أَهْلِهِ وَمَا بِهِ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَانْتِصَارَهُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَهِدَايَةَ قَلْبِهِ، وَغُفْرَانَ ذَنْبِهِ، أَوْ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ نَجَاتَهُ مِنْ النَّارِ، أَوْ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ، أَوْ أَنْ يُصْلِحَ قَلْبَهُ وَيُحَسِّنَ خُلُقَهُ وَيُزَكِّيَ نَفْسَهُ، وَأَمْثَالَ ذَلِكَ- فَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا لَا يَجُوزُ أَنْ تُطْلَبَ إلَّا مِنْ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ لِمَلِكٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا شَيْخٍ -سَوَاءٌ كَانَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا- اغْفِرْ ذَنْبِي، وَلَا انْصُرْنِي عَلَى عَدُوِّي، وَلَا اشْفِ مَرِيضِي، وَلَا عَافِنِي أَوْ عَافِ أَهْلِي أَوْ دَابَّتِي. (٢٧/ ٦٧).

لا تعصب ولا تحزب إلا لله ورسوله

وَلَيْسَ لِلْمُعَلِّمِينَ أَنْ يحزبوا النَّاسَ، وَيَفْعَلُوا مَا يُلْقِي بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، بَلْ يَكُونُونَ مِثْلَ الْإِخْوَةِ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

وَلَيْسَ لِأَحَدِ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أَحَدٍ عَهْدًا بِمُوَافَقَتِهِ عَلَى كُلِّ مَا يُرِيدُهُ، وَمُوَالَاةِ مَنْ يُوَالِيهِ، وَمُعَادَاةِ مَنْ يُعَادِيهِ، بَلْ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ مَنْ جِنْسِ جنكيزخان وَأَمْثَالِهِ الَّذِينَ

يَجْعَلُونَ مَنْ وَافَقَهُمْ صَدِيقًا مُوَالِيًا، وَمَنْ خَالَفَهُمْ عَدُوًّا بَاغِيًا؛ بَلْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَتْبَاعِهِمْ عَهْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ بِأَنْ يُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيَفْعَلُوا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَيُحَرِّمُوا مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيَرْعَوْا حُقُوقَ الْمُعَلِّمِينَ، كَمَا أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ. فَإِنْ كَانَ أُسْتَاذُ أَحَدٍ مَظْلُومًا نَصَرَهُ، وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا لَمْ يُعَاوِنْهُ عَلَى الظُّلْمِ، بَلْ يَمْنَعُهُ مِنْهُ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «**تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ**»(١).

وَإِذَا وَقَعَ بَيْنَ مُعَلِّمٍ وَمُعَلِّمٍ أَوْ تِلْمِيذٍ وَتِلْمِيذٍ أَوْ مُعَلِّمٍ وَتِلْمِيذٍ خُصُومَةٌ وَمُشَاجَرَةٌ لَمْ يَجُزْ لِأَحَدٍ أَنْ يُعِينَ أَحَدَهُمَا، حَتَّى يَعْلَمَ الْحَقَّ، فَلَا يُعَاوِنُهُ بِجَهْلٍ وَلَا بِهَوَى، بَلْ يَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ أَعَانَ الْمُحِقَّ مِنْهُمَا عَلَى الْمُبْطِلِ، سَوَاءٌ كَانَ الْمُحِقُّ مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ أَصْحَابِ غَيْرِهِ؛ وَسَوَاءٌ كَانَ الْمُبْطِلُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَوْ أَصْحَابِ غَيْرِهِ، فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ، وَاتِّبَاعَ الْحَقِّ وَالْقِيَامَ بِالْقِسْطِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥] (٢٨/ ١٦).

وللسفر حكمة

أَمَّا سَفَرُ صَاحِبِ الْعِيَالِ فَإِنْ كَانَ السَّفَرُ يَضُرُّ بِعِيَالِهِ لَمْ يُسَافِرْ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»(٢). وَسَوَاءٌ كَانَ تَضَرُّرُهُمْ لِقِلَّةِ النَّفَقَةِ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) في كتاب الإكراه، عن أنس.

(٢) **حسن لغيره**. أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم، إلا أنه قال: من يعول. وقال: صحيح الإسناد، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٦٥)، و«صحيح الجامع» (٨٦١٠).

لِضَعْفِهِمْ، وَسَفَرُ مِثْلِ هَذَا حَرَامٌ. وَإِنْ كَانُوا لَا يَتَضَرَّرُونَ، بَلْ يَتَأَلَّمُونَ وَتَنْقُصُ أَحْوَالُهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّفَرِ فَائِدَةٌ جَسِيمَةٌ تَرْبُو عَلَى ثَوَابِ مُقَامِهِ عِنْدَهُمْ؛ كَعَلَمٍ يَخَافُ فَوْتَهُ، وَشَيْخٍ يَتَعَيَّنُ الِاجْتِمَاعُ بِهِ، وَإِلَّا فَمُقَامُهُ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ. وَهَذَا لَعَمْرِي إِذَا صَحَّتْ نِيَّتُهُ فِي السَّفَرِ كَانَ مَشْرُوعًا، وَأَمَّا إِنْ كَانَ كَسَفَرِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا يُسَافِرُ قَلَقًا وَتَزْجِيَةً لِلْوَقْتِ؛ فَهَذَا مُقَامُهُ يَعْبُدُ اللهَ فِي بَيْتِهِ خَيْرٌ لَهُ بِكُلِّ حَالٍ، وَيَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يَسْتَشِيرَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ رَجُلًا عَالِمًا بِحَالِهِ وَبِمَا يُصْلِحُهُ، مَأْمُونًا عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ أَحْوَالَ النَّاسِ تَخْتَلِفُ فِي مِثْلِ هَذَا اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا. (٢٨/ ٢٨).

رسالة من سجن الإسكندرية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]. وَالَّذِي أُعَرِّفُ بِهِ الْجَمَاعَةَ -أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ- فَإِنِّي، وَاللَّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فِي نِعَمٍ مِنَ اللهِ مَا رَأَيْت مِثْلَهَا فِي عُمْرِي كُلِّهِ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ أَبْوَابِ فَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ، وَخَزَائِنِ جُودِهِ وَرَحْمَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ بِالْبَالِ، وَلَا يَدُورُ فِي الْخَيَالِ، مَا يَصِلُ الطَّرْفُ إِلَيْهَا؛ يَسَّرَهَا اللهُ تَعَالَى، حَتَّى صَارَتْ مَقَاعِدَ، وَهَذَا يَعْرِفُ بَعْضَهَا بِالذَّوْقِ مَنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، وَمَا هُوَ مَطْلُوبُ الْأَوَّلِينَ والآخرين مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.

فَإِنَّ اللَّذَّةَ وَالْفَرْحَةَ وَالسُّرُورَ وَطِيبَ الْوَقْتِ وَالنَّعِيمَ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَانْفِتَاحِ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ، وَالْمَعَارِفِ الْقُرْآنِيَّةِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ: لَقَدْ كُنْت فِي حَالٍ أَقُولُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَقَالَ آخَرُ: لَتَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ، إلَّا نَعِيمُ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ. (٢٨/ ٣٠).

نعمة في نظر شاكر صابر

وَكَتَبَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ فِي السِّجْنِ(١):

وَنَحْنُ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ- فِي نِعَمٍ عَظِيمَةٍ، تَتَزَايَدُ كُلَّ يَوْمٍ، وَيُجَدِّدُ اللهُ تَعَالَى مِنْ نِعَمِهِ نِعَمًا أُخْرَى، وَخُرُوجُ الْكُتُبِ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ، فَإِنِّي كُنْت حَرِيصًا عَلَى خُرُوجِ شَيْءٍ مِنْهَا لِتَقِفُوا عَلَيْهِ، وَهُمْ كَرِهُوا خُرُوجَ (الإخنائية)، فَاسْتَعْمَلَهُمْ اللهُ فِي إخْرَاجِ الْجَمِيعِ، وَإِلْزَامِ الْمُنَازِعِينَ بِالْوُقُوفِ عَلَيْهِ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ مَا أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مِنْ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسَائِلَ كَانَتْ خَفِيَّةً عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ، فَإِذَا ظَهَرَتْ؛ فَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ الْحَقَّ هَدَاهُ اللهُ، وَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ الْبَاطِلَ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ اللهِ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يُذِلَّهُ اللهُ وَيُخْزِيَهُ، وَمَا كَتَبْت شَيْئًا مِنْ هَذَا لِيُكْتَمَ عَنْ أَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ مُبْغِضًا. وَالْأَوْرَاقُ الَّتِي فِيهَا جَوَابَاتُكُمْ وَصَلَتْ، وَأَنَا طَيِّبٌ، وَعَيْنَايَ طَيِّبَتَانِ أَطْيَبَ مَا كَانَتَا. وَنَحْنُ فِي نِعَمٍ عَظِيمَةٍ لَا تُحْصَى وَلَا تُعَدُّ. وَالْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ. ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا، وَقَالَ: كُلُّ مَا يَقْضِيهِ اللهُ تَعَالَى فِيهِ الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ وَالْحِكْمَةُ؛ إنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، إنَّهُ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَلَا يُدْخَلُ عَلَى أَحَدٍ ضَرَرٌ إلَّا مِنْ ذُنُوبِهِ؛ ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، فَالْعَبْدُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ وَيَحْمَدَهُ دَائِمًا عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَيَسْتَغْفِرَ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَالشُّكْرُ يُوجِبُ الْمَزِيدَ مِنْ النِّعَمِ،

---

(١) قال الشيخ ناصر بن حمد الفهد (ص ٢١٤).

إن هذه الرسالة هي من آخر ما كتبه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث كتبها قبل موته بنحو شهر ونصف، كما في «العقود الدرية» ص [٣٨٤].

وَالِاسْتِغْفَارُ يَدْفَعُ النِّقَمَ، وَلَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ. (٢٨/ ٤٧).

دروس تربوية من رسالة شيخ الإسلام إلى أمه

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ أَحْمَد بْنِ تَيْمِيَّة إِلَى الْوَالِدَةِ السَّعِيدَةِ، أَقَرَّ اللهُ عَيْنَيْهَا بِنِعَمِهِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا جَزِيلَ كَرَمِهِ، وَجَعَلَهَا مِنْ خِيَارِ إِمَائِهِ وَخَدَمِهِ.. سَلَامُ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ لِلْحَمْدِ أَهْلٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

كِتَابِي إِلَيْكُمْ عَنْ نِعَمٍ مِنْ اللهِ عَظِيمَةٍ، وَمِنَنٍ كَرِيمَةٍ، وَآلَاءٍ جَسِيمَةٍ، نَشْكُرُ اللهَ عَلَيْهَا، وَنَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ، وَنِعَمُ اللهِ كُلَّمَا جَاءَتْ؛ فِي نُمُوٍّ وَازْدِيَادٍ، وَأَيَادِيهِ جَلَّتْ عَنْ التَّعْدَادِ. وَتَعْلَمُونَ أَنَّ مُقَامَنَا السَّاعَةَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ إِنَّمَا هُوَ لِأُمُورٍ ضَرُورِيَّةٍ، مَتَى أَهْمَلْنَاهَا فَسَدَ عَلَيْنَا أَمْرُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَسْنَا وَاللَّهِ مُخْتَارِينَ لِلْبُعْدِ عَنْكُمْ، وَلَوْ حَمَلَتْنَا الطُّيُورُ لَسِرْنَا إِلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْغَائِبَ عُذْرُهُ مَعَهُ، وَأَنْتُمْ لَوْ اطَّلَعْتُمْ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّكُمْ -وَللهِ الْحَمْدُ- مَا تَخْتَارُونَ السَّاعَةَ إِلَّا ذَلِكَ، وَلَمْ نَعْزِمْ عَلَى الْمُقَامِ وَالِاسْتِيطَانِ شَهْرًا وَاحِدًا، بَلْ كُلَّ يَوْمٍ نَسْتَخِيرُ اللهَ لَنَا وَلَكُمْ، وَادْعُوا لَنَا بِالْخِيَرَةِ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَخِيرَ لَنَا وَلَكُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ مَا فِيهِ الْخِيَرَةُ فِي خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ. وَمَعَ هَذَا فَقَدْ فَتَحَ اللهُ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهِدَايَةِ وَالْبَرَكَةِ مَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِالْبَالِ، وَلَا يَدُورُ فِي الْخَيَالِ، وَنَحْنُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَهْمُومُونَ بِالسَّفَرِ، مُسْتَخِيرُونَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَلَا يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَا نُؤْثِرُ عَلَى قُرْبِكُمْ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا قَطُّ، بَلْ وَلَا نُؤْثِرُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ مَا يَكُونُ قُرْبُكُمْ

أَرْجَحَ مِنْهُ، وَلَكِنْ ثَمَّ أُمُورٌ كِبَارٌ نَخَافُ الضَّرَرَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ مِنْ إهْمَالِهَا. وَالشَّاهِدُ يَرَى مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ. وَالْمَطْلُوبُ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ بِالْخِيَرَةِ، فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَلَا نَعْلَمُ، وَيَقْدِرُ وَلَا نَقْدِرُ، وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللهَ، وَرِضَاهُ بِمَا يَقْسِمُ اللهُ لَهُ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُ اسْتِخَارَتِهِ اللهَ، وَسُخْطُهُ بِمَا يَقْسِمُ اللهُ لَهُ**»(١)، وَالتَّاجِرُ يَكُونُ مُسَافِرًا فَيَخَافُ ضَيَاعَ بَعْضِ مَالِهِ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يُقِيمَ حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ، وَمَا نَحْنُ فِيهِ أَمْرٌ يَجِلُّ عَنْ الْوَصْفِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، كَثِيرًا كَثِيرًا، وَعَلَى سَائِرِ مَنْ فِي الْبَيْتِ مِنْ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ، وَسَائِرِ الْجِيرَانِ وَالْأَهْلِ وَالْأَصْحَابِ، وَاحِدًا وَاحِدًا، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا. (٢٨/ ٤٨).

التخشين في النصيحة مع المحبين

إنَّ مَا يَجْرِي مِنْ نَوْعِ تَغْلِيظٍ أَوْ تَخْشِينٍ عَلَى بَعْضِ الْأَصْحَابِ وَالْإِخْوَانِ: مَا كَانَ يَجْرِي بِدِمَشْقَ، وَمِمَّا جَرَى الْآنَ بِمِصْرِ؛ فَلَيْسَ ذَلِكَ غَضَاضَةً وَلَا نَقْصًا فِي حَقِّ صَاحِبِهِ، وَلَا حَصَلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ تَغَيُّرٌ مِنَّا وَلَا بُغْضٌ، بَلْ هُوَ بَعْدَ مَا عُومِلَ بِهِ مِنْ التَّغْلِيظِ وَالتَّخْشِينِ أَرْفَعُ قَدْرًا وَأَنْبَهُ ذِكْرًا وَأَحَبُّ وَأَعْظَمُ، وَإِنَّمَا هَذِهِ الْأُمُورُ هِيَ مِنْ مَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي يُصْلِحُ اللهُ بِهَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَقَدْ لَا يَنْقَلِعُ الْوَسَخُ إلَّا بِنَوْعِ مِنْ الْخُشُونَةِ؛ لَكِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ مِنْ النَّظَافَةِ وَالنُّعُومَةِ مَا نَحْمَدُ مَعَهُ ذَلِكَ التَّخْشِينَ. (٢٨/ ٥٣).

---

(١) ضعيف. انظر «الضعيفة» (١٩٠٦).

طلب العلم الشرعي

طَلَبُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، إِلَّا فِيمَا يَتَعَيَّنُ؛ مِثْلَ طَلَبِ كُلِّ وَاحِدٍ عِلْمَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ وَمَا نَهَاهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ هَذَا فَرْضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ، كَمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1]، وَكُلُّ مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا لَا بُدَّ أَنْ يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ لَمْ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ لَمْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا، وَالدِّينُ: مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَهُوَ مَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُصَدِّقَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ تَصْدِيقًا عَامًّا وَطَاعَةً عَامَّةً. (٢٨/ ٨٠).

اتباع الهوى

وَاتِّبَاعُ الْأَهْوَاءِ فِي الدِّيَانَاتِ أَعْظَمُ مِنْ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ فِي الشَّهَوَاتِ. (٢٨/ ١٣٢).

شقاء الدنيا

إِذَا كَانَ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ سَبَبَ الشَّرِّ وَالْعُدْوَانِ فَقَدْ يُذْنِبُ الرَّجُلُ أَوْ الطَّائِفَةُ، وَيَسْكُتُ آخَرُونَ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيُنْكِرُ عَلَيْهِمْ آخَرُونَ إِنْكَارًا مَنْهِيًّا عَنْهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ؛ فَيَحْصُلُ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ وَالشَّرُّ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ وَالشُّرُورِ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا؛ إِذْ الْإِنْسَانُ ظَلُومٌ جَهُولٌ، وَالظُّلْمُ وَالْجَهْلُ أَنْوَاعٌ، فَيَكُونُ ظُلْمُ الْأَوَّلِ وَجَهْلُهُ مِنْ نَوْعٍ، وَظُلْمُ كُلٍّ مِنْ الثَّانِي وَالثَّالِثِ وَجَهْلُهُمَا مَنْ نَوْعٍ آخَرَ وَآخَرَ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ الْفِتَنَ الْوَاقِعَةَ رَأَى سَبَبَهَا ذَلِكَ، وَرَأَى أَنَّ مَا وَقَعَ بَيْنَ أُمَرَاءِ الْأُمَّةِ وَعُلَمَائِهَا، وَمَنْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ مِنْ مُلُوكِهَا وَمَشَايِخِهَا؛ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ الْعَامَّةِ مِنْ الْفِتَنِ:

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) في كتاب العلم، ومسلم (١٠٣٧) في كتاب الزكاة عن معاوية.

هَذَا أَصْلُهَا؛ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَسْبَابُ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ الَّتِي هِيَ الْأَهْوَاءُ الدِّينِيَّةُ والشهوانية؛ وَهِيَ الْبِدَعُ فِي الدِّينِ، وَالْفُجُورُ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ الْبِدَعُ فِي الدِّينِ، وَالْفُجُورُ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ مُشْتَرَكَةٌ، تَعُمُّ بَنِي آدَمَ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ؛ فَبِذَنْبِ بَعْضِ النَّاسِ يَظْلِمُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ، كَالزِّنَا بِلِوَاطٍ وَغَيْرِهِ، أَوْ شُرْبِ خَمْرٍ، أَوْ ظُلْمٍ فِي الْمَالِ بِخِيَانَةٍ أَوْ سَرِقَةٍ أَوْ غَصْبٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. (٢٨/ ١٤٢).

العدل أساس الملك

إن أُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الِاشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ، وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إثْمٍ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ اللهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ، وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً.

وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ، وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ ذَنْبٌ أَسْرَعَ عُقُوبَةً مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»(١). فَالْبَاغِي يُصْرَعُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ مَغْفُورًا لَهُ مَرْحُومًا فِي الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلٍ قَامَتْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلٍ لَمْ تَقُمْ، وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنْ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَالنَّفْسُ فِيهَا دَاعِي الظُّلْمِ لِغَيْرِهَا بِالْعُلُوِّ عَلَيْهِ وَالْحَسَدِ لَهُ؛ وَالتَّعَدِّي عَلَيْهِ فِي حَقِّهِ، وَدَاعِي الظُّلْمِ لِنَفْسِهَا بِتَنَاوُلِ الشَّهَوَاتِ الْقَبِيحَةِ كَالزِّنَا وَأَكْلِ الْخَبَائِثِ، فَهِيَ قَدْ تَظْلِمُ مَنْ لَا يَظْلِمُهَا، وَتُؤْثِرُ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْهَا، فَإِذَا رَأَتْ نُظَرَاءَهَا قَدْ ظَلَمُوا وَتَنَاوَلُوا هَذِهِ الشَّهَوَاتِ صَارَ دَاعِي هَذِهِ الشَّهَوَاتِ أَوْ الظُّلْمِ فِيهَا أَعْظَمَ بِكَثِيرٍ، وَقَدْ تَصْبِرُ، وَيَهِيجُ ذَلِكَ لَهَا مِنْ بُغْضِ ذَلِكَ الْغَيْرِ وَحَسَدِهِ وَطَلَبِ عِقَابِهِ وَزَوَالِ الْخَيْرِ عَنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَهَا حُجَّةٌ

---

(١) صحيح. انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٣٧) للألباني.

عِنْدَ نَفْسِهَا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؛ بِكَونِ ذَلِكَ الْغَيْرِ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّ أَمْرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ، وَالْجِهَادُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الدِّينِ. (٢٨/ ١٤٦).

فائدة جليلة: الناس ثلاثة

وَالنَّاسُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

قَوْمٌ لَا يَقُومُونَ إلَّا فِي أَهْوَاءِ نُفُوسِهِمْ؛ فَلَا يَرْضَوْنَ إلَّا بِمَا يُعْطُونَهُ، وَلَا يَغْضَبُونَ إلَّا لِمَا يحرمونه؛ فَإِذَا أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ مَا يَشْتَهِيهِ مِنْ الشَّهَوَاتِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ زَالَ غَضَبُهُ، وَحَصَلَ رِضَاهُ، وَصَارَ الْأَمْرُ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ مُنْكَرًا -يَنْهَى عَنْهُ وَيُعَاقِبُ عَلَيْهِ؛ وَيَذُمُّ صَاحِبَهُ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِ- مَرْضِيًّا عِنْدَهُ، وَصَارَ فَاعِلًا لَهُ وَشَرِيكًا فِيهِ، وَمُعَاوِنًا عَلَيْهِ، وَمُعَادِيًا لِمَنْ نَهَى عَنْهُ، وَيُنْكِرُ عَلَيْهِ. وَهَذَا غَالِبٌ فِي بَنِي آدَمَ؛ يَرَى الْإِنْسَانُ وَيَسْمَعُ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يُحْصِيهِ. وَسَبَبُهُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ ظَلُومٌ جَهُولٌ؛ فَلِذَلِكَ لَا يَعْدِلُ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ ظَالِمًا فِي الْحَالَيْنِ، يَرَى قَوْمًا يُنْكِرُونَ عَلَى الْمُتَوَلِّي ظُلْمَهُ لِرَعِيَّتِهِ وَاعْتِدَاءَهُ عَلَيْهِمْ؛ فَيَرْضَى أُولَئِكَ الْمُنْكِرُونَ بِبَعْضِ الشَّيْءِ، فَيَنْقَلِبُونَ أَعْوَانًا لَهُ. وَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِمْ أَنْ يَسْكُتُوا عَنْ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ تَرَاهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَزْنِي وَيَسْمَعُ الْمَلَاهِيَ حَتَّى يُدْخِلُوا أَحَدَهُمْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَرْضَوْهُ بِبَعْضِ ذَلِكَ، فَتَرَاهُ قَدْ صَارَ عَوْنًا لَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَعُودُونَ بِإِنْكَارِهِمْ إلَى أَقْبَحِ مِنْ الْحَالِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَقَدْ يَعُودُونَ إلَى مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ أَوْ نَظِيرِهِ.

وَقَوْمٌ يَقُومُونَ دِيَانَةً صَحِيحَةً، يَكُونُونَ فِي ذَلِكَ مُخْلِصِينَ لله مُصْلِحِينَ فِيمَا عَمِلُوهُ، وَيَسْتَقِيمُ لَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى يَصْبِرُوا عَلَى مَا أُوذُوا، وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَهُمْ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؛ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.

وَقَوْمٌ يَجْتَمِعُ فِيهِمْ هَذَا وَهَذَا؛ وَهُمْ غَالِبُ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَنْ فِيهِ دِينٌ، وَلَهُ شَهْوَةٌ تَجْتَمِعُ فِي قُلُوبِهِمْ إرَادَةُ الطَّاعَةِ وَإِرَادَةُ الْمَعْصِيَةِ، وَرُبَّمَا غَلَبَ هَذَا تَارَةً، وَهَذَا تَارَةً. وَهَذِهِ الْقِسْمَةُ الثُّلَاثِيَّةُ كَمَا قِيلَ: الْأَنْفُسُ ثَلَاثٌ: أَمَّارَةٌ؛ وَمُطْمَئِنَّةٌ؛ وَلَوَّامَةٌ.

فَالْأَوَّلُونَ: هُمْ أَهْلُ الْأَنْفُسِ الْأَمَّارَةِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ.

وَالْأَوْسَطُونَ: هُمْ أَهْلُ النُّفُوسِ الْمُطْمَئِنَّةِ الَّتِي قِيلَ فِيهَا: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

وَالْآخَرُونَ: هُمْ أَهْلُ النُّفُوسِ اللَّوَّامَةِ الَّتِي تَفْعَلُ الذَّنْبَ ثُمَّ تَلُومُ عَلَيْهِ؛ وَتَتَلَوَّنُ: تَارَةً كَذَا، وَتَارَةً كَذَا، وَتَخْلِطُ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا. (٢٨/ ١٤٧).

أثر الجود والإحسان

[من] أَمَرَ غَيْرَهُ يُحْسِنُ أَوْ أَحَبَّ مُوَافَقَتَهُ عَلَى ذَلِكَ ؛ أَوْ نَهَى غَيْرَهُ عَنْ شَيْءٍ ؛ فَيَحْتَاجُ أَنْ يُحْسِنَ إلَى ذَلِكَ الْغَيْرِ إحْسَانًا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُهُ؛ مِنْ حُصُولِ الْمَحْبُوبِ وَانْدِفَاعِ الْمَكْرُوهِ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تَصْبِرُ عَلَى الْمُرِّ إلَّا بِنَوْعٍ مِنْ الْحُلْوِ؛ لَا يُمْكِنُ غَيْرُ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ ؛ حَتَّى جَعَلَ لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ نَصِيبًا فِي الصَّدَقَاتِ. (٢٨/ ١٥٣).

الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم

وَكُلُّ بَشَرٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى، حَتَّى لَوْ أَنَّهُ وَحْدَهُ لَكَانَ يَأْمُرُ نَفْسَهُ وَيَنْهَاهَا؛ إمَّا بِمَعْرُوفٍ وَإِمَّا بِمُنْكَرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣]. فَإِنَّ الْأَمْرَ هُوَ طَلَبُ الْفِعْلِ وَإِرَادَتِهِ؛ وَالنَّهْيُ طَلَبُ التَّرْكِ وَإِرَادَتِهِ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ إرَادَةٍ وَطَلَبٍ فِي نَفْسِهِ يَقْتَضِي بِهِمَا فِعْلَ نَفْسِهِ،

وَيَقْتَضِي بِهِمَا فِعْلَ غَيْرِهِ إِذَا أَمْكَنَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَيٌّ يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَتِهِ، وَبَنُو آدَمَ لَا يَعِيشُونَ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ، وَإِذَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ فَصَاعِدًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا ائْتِمَارٌ بِأَمْرٍ، وَتَنَاهٍ عَنْ أَمْرٍ، وَلِهَذَا كَانَ أَقَلُّ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّلَاةِ اثْنَيْنِ، كَمَا قِيلَ: الِاثْنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ. لَكِنْ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ اشْتِرَاكًا فِي مُجَرَّدِ الصَّلَاةِ حَصَلَ بِاثْنَيْنِ، أَحَدُهُمَا إِمَامٌ وَالْآخَرُ مَأْمُومٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَالِكِ بْنِ الحويرث وَصَاحِبِهِ: «**إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَأَذِّنَا وَأَقِيمَا؛ وَلْيَؤُمَّكُمَا أَكْبَرُكُمَا**»(١). وَكَانَا مُتَقَارِبَيْنِ فِي الْقِرَاءَةِ. وَأَمَّا الْأُمُورُ الْعَادِيَّةُ فَفِي السُّنَنِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ فِي سَفَرٍ إِلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ**»(٢).

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مِنْ لَوَازِمِ وُجُودِ بَنِي آدَمَ: فَمَنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَيَنْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ الَّذِي نَهَى اللهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤْمَرْ بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَيُنْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ الَّذِي نَهَى اللهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ؛ وَإِلَّا فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى، وَيُؤْمَرَ وَيُنْهَى: إِمَّا بِمَا يُضَادُّ ذَلِكَ، وَإِمَّا بِمَا يَشْتَرِكُ فِيهِ الْحَقُّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ، بِالْبَاطِلِ الَّذِي لَمْ يُنْزِلْهُ اللهُ، وَإِذَا اتُّخِذَ ذَلِكَ دِينًا كَانَ دِينًا مُبْتَدَعًا. وَهَذَا كَمَا أَنَّ كُلَّ بَشَرٍ فَإِنَّهُ مُتَحَرِّكٌ بِإِرَادَتِهِ، هَمَّامٌ حَارِثٌ، فَمَنْ لَمْ تَكُنْ نِيَّتُهُ صَالِحَةً وَعَمَلُهُ عَمَلًا صَالِحًا لِوَجْهِ اللهِ، وَإِلَّا كَانَ عَمَلًا فَاسِدًا، أَوْ لِغَيْرِ وَجْهِ اللهِ، وَهُوَ الْبَاطِلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]. (٢٨/ ١٦٨).

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٤) في كتاب المساجد عن مالك بن الحويرث.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) وفيه عبد الله بن لهيعة، والحديث ضعفه الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٥١).

أعظم ما عُبد الله به

فَإِنَّ أَعْظَمَ مَا عُبِدَ اللهُ بِهِ نَصِيحَةُ خَلْقِهِ. (٢٨/ ٦١٥).

كلمات رائعة

❁ الْمَعَاصِيَ قَيْدٌ وَحَبْسٌ لِصَاحِبِهَا عَنْ الْجَوَلَانِ فِي فَضَاءِ التَّوْحِيدِ، وَعَنْ جَنْيِ ثِمَارِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. (١٤/ ٤٩).

❁ الدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ مَلْعُونَةٌ إلَّا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ. (١٩/ ٩٣).

❁ الْعَبْدُ مَا لَمْ تُشْرِقْ فِي قَلْبِهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَيَنَلْهُ مِنْ حَيَاتِهَا وَرُوحِهَا؛ فَهُوَ فِي ظُلْمَةٍ، وَهُوَ مِنْ الْأَمْوَاتِ. (١٩/ ٩٣).

❁ الشَّرْعُ نُورُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَعَدْلُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَحِصْنُهُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. (١٩/ ٩٩).

❁ وَلَوْ كَانَ كُلَّمَا اخْتَلَفَ مُسْلِمَانِ فِي شَيْءٍ تَهَاجَرَا لَمْ يَبْقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عِصْمَةٌ وَلَا أُخُوَّةٌ. (٢٤/ ٢٧٣).

❁ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ إلَّا نَعِيمُ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَة. (٢٨/ ٣١).

❁ عِبَادُ اللهِ الْمُؤْمِنُونَ وَقُلُوبُهُمْ الصَّادِقَةُ وَأَدْعِيَتُهُمْ الصَّالِحَةُ هِيَ الْعَسْكَرُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ وَالْجُنْدُ الَّذِي لَا يُخْذَلُ. (٢٨/ ٦٤٤).

لفظ السنة في كلام السلف

لَفْظُ (السُّنَّةِ) فِي كَلَامِ السَّلَفِ يَتَنَاوَلُ السُّنَّةَ فِي الْعِبَادَاتِ، وَفِي الِاعْتِقَادَاتِ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِمَّنْ صَنَّفَ فِي السُّنَّةِ يَقْصِدُونَ الْكَلَامَ فِي الِاعْتِقَادَاتِ، وَهَذَا كَقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ وأبي بْنِ كَعْبٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: اقْتِصَادٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ اجْتِهَادٍ فِي بِدْعَةٍ. وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. (٢٨/ ١٧٨).

الصبر على ظلم الأئمة

مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ الصَّبْرُ عَلَى ظُلْمِ الْأَئِمَّةِ وَجَوْرِهِمْ، كَمَا هُوَ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَكَمَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُ، لَمَّا قَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**»(١). وَقَالَ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ**»(٢). إلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ(٣)، وَقَالَ: «**أَدُّوا إلَيْهِمْ الَّذِي لَهُمْ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ، وَانْهَوْا عَنْ قِتَالِهِمْ مَا صَلَّوْا**»؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَعَهُمْ أَصْلَ الدِّينِ الْمَقْصُودِ وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ، وَمَعَهُمْ حَسَنَاتٌ وَتَرْكُ سَيِّئَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَأَمَّا مَا يَقَعُ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَجَوْرِهِمْ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ أَوْ غَيْرِ سَائِغٍ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُزَالَ لِمَا فِيهِ مِنْ ظُلْمٍ وَجَوْرٍ، كَمَا هُوَ عَادَةُ أَكْثَرِ النُّفُوسِ؛ تُزِيلُ الشَّرَّ بِمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَتُزِيلُ الْعُدْوَانَ بِمَا هُوَ أَعْدَى مِنْهُ. (٢٨/ ١٧٩).

فساد المصلحة ظلم عظيم

وكذبُ العلماء فِي الْعِلْمِ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، وَكَذَلِكَ إظْهَارُهُمْ لِلْمَعَاصِي وَالْبِدَعِ الَّتِي تَمْنَعُ الثِّقَةَ بِأَقْوَالِهِمْ، وَتَصْرِفُ الْقُلُوبَ عَنْ اتِّبَاعِهِمْ، وَتَقْتَضِي مُتَابَعَةَ النَّاسِ لَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥) عن أسيد بن حضير.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس.

(٣) وقال في موضع آخر في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٤٤): «مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ تَرْكَ الْخُرُوجِ بِالْقِتَالِ عَلَى الْمُلُوكِ الْبُغَاةِ وَالصَّبْرِ عَلَى ظُلْمِهِمْ إلَى أَنْ يَسْتَرِيحَ بَرٌّ أَوْ يُسْتَرَاحُ مِنْ فَاجِرٍ». وقال أيضا (٢٥/ ١٢): «وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالْفَضْلِ فَلَا يُرَخِّصُونَ لِأَحَدٍ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ وُلَاةِ الْأُمُورِ وَغِشِّهِمْ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ: بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ، كَمَا قَدْ عُرِفَ مِنْ عَادَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالدِّينِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ سِيرَةِ غَيْرِهِمْ». وقال في «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٣٩١): «ولهذا كانَ المشهورُ من مذهبِ أهل السنة أنهم لا يرونَ الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما».

فِيهَا؛ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، وَيَسْتَحِقُّونَ مِنْ الذَّمِّ وَالْعُقُوبَةِ عَلَيْهَا مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ مَنْ أَظْهَرَ الْكَذِبَ وَالْمَعَاصِيَ وَالْبِدَعَ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ إظْهَارَ غَيْرِ الْعَالِمِ -وَإِنْ كَانَ فِيهِ نَوْعُ ضَرَرٍ- فَلَيْسَ هُوَ مِثْلُ الْعَالِمِ فِي الضَّرَرِ الَّذِي يَمْنَعُ ظُهُورَ الْحَقِّ وَيُوجِبُ ظُهُورَ الْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ إظْهَارَ هَؤُلَاءِ لِلْفُجُورِ وَالْبِدَعِ بِمَنْزِلَةِ إعْرَاضِ الْمُقَاتِلَةِ عَنْ الْجِهَادِ وَدَفْعِ الْعَدُوِّ؛ لَيْسَ هُوَ مِثْلُ إعْرَاضِ آحَادِ الْمُقَاتِلَةِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

فَتَرْكُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِتَبْلِيغِ الدِّينِ كَتَرْكِ أَهْلِ الْقِتَالِ لِلْجِهَادِ، وَتَرْكُ أَهْلِ الْقِتَالِ لِلْقِتَالِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ كَتَرْكِ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلتَّبْلِيغِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ، كِلَاهُمَا ذَنْبٌ عَظِيمٌ؛ وَلَيْسَ هُوَ مِثْلَ تَرْكِ مَا تَحْتَاجُ الْأُمَّةُ إلَيْهِ، مِمَّا هُوَ مُفَوَّضٌ إلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ تَرْكَ هَذَا أَعْظَمُ مِنْ تَرْكِ أَدَاءِ الْمَالِ الْوَاجِبِ إلَى مُسْتَحَقِّهِ. وَمَا يُظْهِرُونَهُ مِنْ الْبِدَعِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي تَمْنَعُ قَبُولَ قَوْلِهِمْ، وَتَدْعُو النُّفُوسَ إلَى مُوَافَقَتِهِمْ، وَتَمَنُّعُهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنْ إظْهَارِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ- أَشَدُّ ضَرَرًا لِلْأُمَّةِ وَضَرَرًا عَلَيْهِمْ مِنْ إظْهَارِ غَيْرِهِمْ لِذَلِكَ، وَلِهَذَا جَبَلَ اللهُ قُلُوبَ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَعْظِمُ جُبْنَ الْجُنْدِيِّ وَفَشَلَهُ وَتَرْكَهُ لِلْجِهَادِ وَمُعَاوَنَتَهُ لِلْعَدُوِّ، أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَعْظِمُهُ مِنْ غَيْرِهِ. وَتَسْتَعْظِمُ إظْهَارَ الْعَالِمِ الْفُسُوقَ وَالْبِدَعَ، أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَعْظِمُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ؛ بِخِلَافِ فُسُوقِ الْجُنْدِيِّ وَظُلْمِهِ وَفَاحِشَتِهِ، وَبِخِلَافِ قُعُودِ الْعَالِمِ عَنْ الْجِهَادِ بِالْبَدَنِ. وَمِثْلُ ذَلِكَ وُلَاةُ الْأُمُورِ؛ كُلٌّ بِحَسَبِهِ مِنْ الْوَالِي وَالْقَاضِي، فَإِنَّ تَفْرِيطَ أَحَدِهِمْ فِيمَا عَلَيْهِ رِعَايَتُهُ مِنْ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ، أَوْ فِعْلَ ضِدِّ ذَلِكَ مِنْ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ؛ يُسْتَعْظَمُ أَعْظَمَ مِمَّا يُسْتَعْظَمُ ذَنْبٌ يَخُصُّ أَحَدَهُمْ. (٢٨/ ١٨٨).

فائدة: بيان عوار المبتدع

وَإِذَا كَانَ مُبْتَدِعًا يَدْعُو إِلَى عَقَائِدَ تُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ يَسْلُكُ طَرِيقًا يُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَيُخَافُ أَنْ يُضِلَّ الرَّجُلُ النَّاسَ بِذَلِكَ: بَيَّنَ أَمْرَهُ لِلنَّاسِ لِيَتَّقُوا ضَلَالَهُ وَيَعْلَمُوا حَالَهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ النُّصْحِ وَابْتِغَاءِ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى لَا لِهَوَى الشَّخْصِ مَعَ الْإِنْسَانِ : مِثْلَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا عَدَاوَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ أَوْ تَحَاسُدٌ أَوْ تَبَاغُضٌ أَوْ تَنَازُعٌ عَلَى الرِّئَاسَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَسَاوِئِهِ مُظْهِرًا لِلنُّصْحِ وَقَصْدُهُ فِي الْبَاطِنِ الْغَضُّ مِنْ الشَّخْصِ وَاسْتِيفَاؤُهُ مِنْهُ فَهَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ. (٢٨/ ٢٢١).

الكلام في أهل البدع جهاد في سبيل الله

وَمِثْلُ أَئِمَّةِ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْمَقَالَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَوْ الْعِبَادَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّ بَيَانَ حَالِهِمْ وَتَحْذِيرَ الْأُمَّةِ مِنْهُمْ وَاجِبٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى قِيلَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَعْتَكِفُ أَحَبُّ إلَيْك أَوْ يَتَكَلَّمُ فِي أَهْلِ الْبِدَعِ؟ فَقَالَ: إذَا قَامَ وَصَلَّى وَاعْتَكَفَ فَإِنَّمَا هُوَ لِنَفْسِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ فِي أَهْلِ الْبِدَعِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلْمُسْلِمِينَ، هَذَا أَفْضَلُ.

فَبَيَّنَ أَنَّ نَفْعَ هَذَا عَامٌّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ، مِنْ جِنْسِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ إذْ تَطْهِيرُ سَبِيلِ اللهِ وَدِينِهِ وَمِنْهَاجِهِ وَشِرْعَتِهِ وَدَفْعِ بَغْيِ هَؤُلَاءِ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْلَا مَنْ يُقِيمُهُ اللهُ لِدَفْعِ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ لَفَسَدَ الدِّينُ، وَكَانَ فَسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ فَسَادِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إذَا اسْتَوْلَوْا لَمْ يُفْسِدُوا الْقُلُوبَ وَمَا فِيهَا مِنْ الدِّينِ إلَّا تَبَعًا، وَأَمَّا أُولَئِكَ فَهُمْ يُفْسِدُونَ الْقُلُوبَ ابْتِدَاءً. (٢٨/ ٢٣١).

التحذير من البدع والمبتدعة

فِي قَوْلِهِ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] فِي آيَتَيْنِ مِنْ الْقُرْآنِ، فَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ مُنَافِقُونَ يَبْتَدِعُونَ بِدَعًا تُخَالِفُ الْكِتَابَ وَيُلْبِسُونَهَا عَلَى النَّاسِ وَلَمْ تُبَيَّنْ لِلنَّاسِ : فَسَدَ أَمْرُ الْكِتَابِ وَبُدِّلَ الدِّينُ؛ كَمَا فَسَدَ دِينُ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ التَّبْدِيلِ الَّذِي لَمْ يُنْكَرْ عَلَى أَهْلِهِ.

وَإِذَا كَانَ أَقْوَامٌ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ لَكِنَّهُمْ سَمَّاعُونَ لِلْمُنَافِقِينَ: قَدْ الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ حَتَّى ظَنُّوا قَوْلَهُمْ حَقًّا؛ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَصَارُوا دُعَاةً إلَى بِدَعِ الْمُنَافِقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، فَلَا بُدَّ أَيْضًا مِنْ بَيَانِ حَالِ هَؤُلَاءِ؛ بَلْ الْفِتْنَةُ بِحَالِ هَؤُلَاءِ أَعْظَمُ فَإِنَّ فِيهِمْ إيمَانًا يُوجِبُ مُوَالَاتَهُمْ وَقَدْ دَخَلُوا فِي بِدَعٍ مِنْ بِدَعِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي تُفْسِدُ الدِّينَ فَلَا بُدَّ مِنْ التَّحْذِيرِ مِنْ تِلْكَ الْبِدَعِ، وَإِنْ اقْتَضَى ذَلِكَ ذِكْرَهُمْ وَتَعْيِينَهُمْ؛ بَلْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَقَّوْا تِلْكَ الْبِدْعَةَ عَنْ مُنَافِقٍ؛ لَكِنْ قَالُوهَا ظَانِّينَ أَنَّهَا هُدًى وَأَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا دِينٌ؛ وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ لَوَجَبَ بَيَانُ حَالِهَا. (٢٨/ ٢٣٣).

أصناف الناس في الغيبة

مِنْ النَّاسِ مَنْ يَغْتَابُ مُوَافَقَةً لِجُلَسَائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَعَشَائِرِهِ، مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ الْمُغْتَابَ بَرِيءٌ مِمَّا يَقُولُونَ، أَوْ فِيهِ بَعْضُ مَا يَقُولُونَ، لَكِنْ يَرَى أَنَّهُ لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَطَعَ الْمَجْلِسَ، وَاسْتَثْقَلَهُ أَهْلُ الْمَجْلِسِ، وَنَفَرُوا عَنْهُ، فَيَرَى مُوَافَقَتَهُمْ مِنْ حُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ وَطِيبِ الْمُصَاحَبَةِ، وَقَدْ يَغْضَبُونَ فَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِمْ، فَيَخُوضُ مَعَهُمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُ الْغِيبَةَ فِي قَوَالِبَ شَتَّى؛ تَارَةً فِي قَالِبِ دِيَانَةٍ وَصَلَاحٍ، فَيَقُولُ: لَيْسَ لِي عَادَةً أَنْ أَذْكُرَ أَحَدًا إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا أُحِبُّ الْغِيبَةَ وَلَا الْكَذِبَ؛ وَإِنَّمَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحْوَالِهِ. وَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنَّهُ مِسْكِينٌ، أَوْ رَجُلٌ جَيِّدٌ؛ وَلَكِنْ فِيهِ كَيْت وَكَيْت. وَرُبَّمَا يَقُولُ: دَعُونَا مِنْهُ، اللهُ يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُ. وَإِنَّمَا قَصْدُهُ اسْتِنْقَاصُهُ وَهَضْمٌ لِجَانِبِهِ، وَيُخْرِجُونَ الْغِيبَةَ فِي قَوَالِبَ صَلَاحٍ وَدِيَانَةٍ يُخَادِعُونَ اللهَ بِذَلِكَ، كَمَا يُخَادِعُونَ مَخْلُوقًا؛ وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهُمْ أَلْوَانًا كَثِيرَةً مِنْ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْفَعُ غَيْرَهُ رِيَاءً، فَيَرْفَعُ نَفْسَهُ، فَيَقُولُ: لَوْ دَعَوْتُ الْبَارِحَةَ فِي صَلَاتِي لِفُلَانٍ لَمَا بَلَغَنِي عَنْهُ كَيْت وَكَيْت. لِيَرْفَعَ نَفْسَهُ وَيَضَعَهُ عِنْدَ مَنْ يَعْتَقِدُهُ، أَوْ يَقُولُ: فُلَانٌ بَلِيدُ الذِّهْنِ قَلِيلُ الْفَهْمِ. وَقَصْدُهُ مَدْحُ نَفْسِهِ، وَإِثْبَاتُ مَعْرِفَتِهِ وَأَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُهُ الْحَسَدُ عَلَى الْغِيبَةِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَبِيحَيْنِ: الْغِيبَةِ وَالْحَسَدِ، وَإِذَا أَثْنَى عَلَى شَخْصٍ أَزَالَ ذَلِكَ عَنْهُ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ تَنَقُّصِهِ فِي قَالِبِ دِينٍ وَصَلَاحٍ، أَوْ فِي قَالِبِ حَسَدٍ وَفُجُورٍ وَقَدْحٍ؛ لِيُسْقِطَ ذَلِكَ عَنْهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُ الْغِيبَةَ فِي قَالِبِ تمسخرٍ وَلَعِبٍ؛ لَيُضْحِكَ غَيْرَهُ بِاسْتِهْزَائِهِ وَمُحَاكَاتِهِ، وَاسْتِصْغَارِ الْمُسْتَهْزَأِ بِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُ الْغِيبَةَ فِي قَالِبِ التَّعَجُّبِ، فَيَقُولُ: تَعَجَّبْتُ مِنْ فُلَانٍ، كَيْفَ لَا يَفْعَلُ كَيْت وَكَيْت، وَمِنْ فُلَانٍ كَيْفَ وَقَعَ مِنْهُ كَيْت وَكَيْت، وَكَيْفَ فَعَلَ كَيْت وَكَيْت! فَيُخْرِجُ اسْمَهُ فِي مَعْرِضِ تَعَجُّبِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُ الِاغْتِمَامَ فَيَقُولُ: مِسْكِينٌ فُلَانٌ، غَمَّنِي مَا جَرَى لَهُ، وَمَا تَمَّ لَهُ. فَيَظُنُّ مَنْ يَسْمَعُهُ أَنَّهُ يَغْتَمُّ لَهُ وَيَتَأَسَّفُ، وَقَلْبُهُ مُنْطَوٍ عَلَى التَّشَفِّي بِهِ، وَلَوْ قَدَرَ لَزَادَ عَلَى مَا بِهِ، وَرُبَّمَا يَذْكُرُهُ عِنْدَ أَعْدَائِهِ لِيَشْتَفُوا بِهِ.

وَهَذَا وَغَيْرُهُ مِنْ أَعْظَمِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْمُخَادَعَاتِ للهِ وَلِخَلْقِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ الْغِيبَةَ فِي قَالِبِ غَضَبٍ وَإِنْكَارِ مُنْكَرٍ، فَيُظْهِرُ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْيَاءَ مِنْ زَخَارِفِ الْقَوْلِ، وَقَصْدُهُ غَيْرُ مَا أَظْهَرَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. (٢٨/ ٢٣٦).

حضور أماكن المنكر

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْضُرَ الْأَمَاكِنَ الَّتِي يَشْهَدُ فِيهَا الْمُنْكَرَاتِ، وَلَا يُمْكِنُهُ الْإِنْكَارُ؛ إِلَّا لِمُوجِبٍ شَرْعِيٍّ: مِثْلَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، لِمَصْلَحَةِ دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ، لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ حُضُورِهِ، أَوْ يَكُونُ مُكْرَهًا، فَأَمَّا حُضُورُهُ لِمُجَرَّدِ الْفُرْجَةِ، وَإِحْضَارِ امْرَأَتِهِ تُشَاهِدُ ذَلِكَ، فَهَذَا مِمَّا يَقْدَحُ فِي عَدَالَتِهِ وَمُرُوءَتِهِ إِذَا أَصَرَّ عَلَيْهِ. (٢٨/ ٢٣٩).

تولية الأبرار

الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ وُسْعِهِ؛ فَمَنْ وَلِيَ وِلَايَةً يَقْصِدُ بِهَا طَاعَةَ اللهِ، وَإِقَامَةَ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ دِينِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقَامَ فِيهَا مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ الْوَاجِبَاتِ، وَاجْتِنَابَ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ- لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا يَعْجِزُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ تَوْلِيَةَ الْأَبْرَارِ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ مِنْ تَوْلِيَةِ الْفُجَّارِ. (٢٨/ ٣٩٦).

صورة من صور الظلم الشديد

وَالرِّبَا فِيهِ ظُلْمٌ مُحَقَّقٌ لِلْمُحْتَاجِ، وَلِهَذَا كَانَ ضِدَّ الصَّدَقَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَدَعِ الْأَغْنِيَاءَ حَتَّى أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَ الْفُقَرَاءِ؛ فَإِنَّ مَصْلَحَةَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِذَلِكَ، فَإِذَا أَرْبَى مَعَهُ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَهُ عَلَى رَجُلٍ دَيْنٌ فَمَنَعَهُ دَيْنَهُ، وَظَلَمَهُ زِيَادَةً أُخْرَى، وَالْغَرِيمُ مُحْتَاجٌ إِلَى دَيْنِهِ. فَهَذَا مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ؛ وَلِعَظَمَتِهِ لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ آكِلَهُ، وَهُوَ الْآخِذُ، وَمُوكِلَهُ، وَهُوَ الْمُحْتَاجُ الْمُعْطَى لِلزِّيَادَةِ، وَشَاهِدَيْهِ، وَكَاتِبَهُ؛ لِإِعَانَتِهِمْ عَلَيْهِ. (٢٩/ ٢٤).

آفة الحيل

لَقَدْ تَأَمَّلْت أَغْلَبَ مَا أَوْقَعَ النَّاسَ فِي الْحِيَلِ؛ فَوَجَدْته أَحَدَ شَيْئَيْنِ:

١- إمَّا ذُنُوبٌ جَوَّزُوا عَلَيْهَا بِتَضْيِيقٍ فِي أُمُورِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا دَفْعَ هَذَا الضِّيقِ إلَّا بِالْحِيَلِ، فَلَمْ تَزِدْهُمْ الْحِيَلُ إلَّا بَلَاءً، كَمَا جَرَى لِأَصْحَابِ السَّبْتِ مِنْ الْيَهُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٦٠]. وَهَذَا الذَّنْبُ ذَنْبٌ عَمَلِيٌّ.

٢- وَإِمَّا مُبَالَغَةٌ فِي التَّشْدِيدِ لِمَا اعْتَقَدُوهُ مِنْ تَحْرِيمِ الشَّارِعِ، فَاضْطَرَّهُمْ هَذَا الِاعْتِقَادُ إلَى الِاسْتِحْلَالِ بِالْحِيَلِ. (٢٩/ ٤٥).

التورق

وَأَمَّا الْبَيْعُ إلَى أَجَلٍ ابْتِدَاءً، فَإِنْ كَانَ قَصْدُ الْمُشْتَرِي الِانْتِفَاعَ بِالسِّلْعَةِ وَالتِّجَارَةَ فِيهَا؛ جَازَ إذَا كَانَ عَلَى الْوَجْهِ الْمُبَاحِ، وَأَمَّا إنْ كَانَ مَقْصُودُهُ الدَّرَاهِمَ فَيَشْتَرِي بِمِائَةٍ مُؤَجَّلَةٍ وَيَبِيعُهَا فِي السُّوقِ بِسَبْعِينَ حَالَّةٍ، فَهَذَا مَذْمُومٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي أَظْهَرِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ. وَهَذَا يُسَمَّى (التَّوَرُّقُ)، قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّوَرُّقُ أخية الرِّبَا. (٢٩/ ٣٠٣).

السفتجة

وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ أَخَذَ (السَّفْتَجَةَ) مِنْ الْمُقْرِضِ، وَهُوَ أَنْ يُقْرِضَهُ دَرَاهِمَ يَسْتَوْفِيهَا مِنْهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ الْمُقْرِضُ غَرَضُهُ حَمْلُ دَرَاهِمَ إلَى بَلَدٍ آخَرَ، وَالْمُقْتَرِضُ لَهُ دَرَاهِمُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى دَرَاهِمَ فِي بَلَدِ الْمُقْرِضِ، فَيَقْتَرِضُ مِنْهُ فِي بَلَدِ دَرَاهِمَ الْمُقْرِضِ، وَيَكْتُبُ لَهُ سَفْتَجَةً -أَيْ وَرَقَةً- إلَى بَلَدِ دَرَاهِمِ الْمُقْتَرِضِ، فَهَذَا يَجُوزُ فِي أَصَحِّ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ. وَقِيلَ: يُنْهَى عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ قَرْضٌ جَرَّ مَنْفَعَةً، وَالْقَرْضُ إذَا جَرَّ مَنْفَعَةً كَانَ رِبًا. وَالصَّحِيحُ الْجَوَازُ؛ لِأَنَّ الْمُقْتَرِضَ رَأَى النَّفْعَ بِأَمْنِ خَطَرِ الطَّرِيقِ إلَى نَقْلِ

دَرَاهِمِهِ إِلَى بَلَدِ دَرَاهِمِ الْمُقْتَرِضِ، فَكِلَاهُمَا مُنْتَفِعٌ بِهَذَا الِاقْتِرَاضِ. وَالشَّارِعُ لَا يَنْهَى عَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَيُصْلِحُهُمْ وَيَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَنْهَى عَمَّا يَضُرُّهُمْ وَيُفْسِدُهُمْ، وَقَدْ أَغْنَاهُمْ اللهُ عَنْهُ. (٢٩/ ٤٥٦).

المؤمن لا يخادع

عَاتَبَ اللهُ مَنْ أَسْقَطَ الْوَاجِبَاتِ وَاسْتَحَلَّ الْمُحَرَّمَاتِ بِالْحِيَلِ وَالْمُخَادَعَاتِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ (ن)، وَفِي قِصَّةِ أَهْلِ السَّبْتِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتْ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ**»(١). (٢٩/ ٣٣٦).

عزة المسلم

لَا يَجُوزُ لِمُسْلِمِ أَنْ يَجْعَلَ جَاهَ الْمُسْلِمِ ذَرِيعَةً لِرَفْعِ كَافِرٍ عَلَى مُسْلِمٍ. وَمَنْ شَارَكَ الْكَافِرَ أَوْ اسْتَخْدَمَهُ، وَأَرَادَ بِجَاهِ الْإِسْلَامِ أَنْ يُرْفَعَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ بَخَسَ الْإِسْلَامَ وَاسْتَحَقَّ أَنْ يُهَانَ الْإِهَانَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ. (٣٠/ ١٣).

فائدة عظيمة: السماع والاستماع

إِنَّ الْمُحَرَّمَ هُوَ الِاسْتِمَاعُ، لَا السَّمَاعُ، فَالرَّجُلُ لَوْ يَسْمَعُ الْكُفْرَ وَالْكَذِبَ وَالْغِيبَةَ وَالْغِنَاءَ والشبابة مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ؛ بَلْ كَانَ مُجْتَازًا بِطَرِيقٍ فَسَمِعَ ذَلِكَ لَمْ يَأْثَمْ بِذَلِكَ، بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَوْ جَلَسَ وَاسْتَمَعَ إِلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ لَا بِقَلْبِهِ وَلَا بِلِسَانِهِ وَلَا يَدِهِ؛ كَانَ آثِمًا، بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ

(١) انظر تخريجه في «الإرواء» (١٥٣٥)، وقال الألباني في «صفة الفتوى» (٣٣): وحسن إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير.

يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٦٨-٦٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٠]، فَجَعَلَ الْقَاعِدَ الْمُسْتَمِعَ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ بِمَنْزِلَةِ الْفَاعِلِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: الْمُسْتَمِعُ شَرِيكُ الْمُغْتَابِ. وَفِي الْأَثَرِ: مَنْ شَهِدَ الْمَعْصِيَةَ وَكَرِهَهَا كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا. فَإِذَا شَهِدَهَا لِحَاجَةٍ أَوْ لِإِكْرَاهِ أَنْكَرَهَا بِقَلْبِهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»(١). (٣٠/ ٢١٢).

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

مَنْ خَلَّصَ مَالَ غَيْرِهِ مِنْ التَّلَفِ بِمَا أَدَّاهُ عَنْهُ يَرْجِعُ بِهِ عَلَيْهِ؛ مِثْلَ مَنْ خَلَّصَ مَالًا مِنْ قُطَّاعٍ، أَوْ عَسْكَرِ ظَالِمٍ، أَوْ مُتَوَلٍّ ظَالِمٍ، وَلَمْ يُخَلِّصْهُ إلَّا بِمَا أَدَّى عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِذَلِكَ، وَهُوَ مُحْسِنٌ إلَيْهِ بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُؤْتَمَنًا عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ، وَلَا مُكْرَهًا عَلَى الْأَدَاءِ عَنْهُ، فَإِنَّهُ مُحْسِنٌ إلَيْهِ بِذَلِكَ، وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلَّا الْإِحْسَانُ. فَإِذَا خَلَّصَ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ بِأَلْفِ أَدَّاهَا عَنْهُ كَانَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ، فَإِذَا أَعْطَاهُ الْأَلْفَ كَانَ قَدْ أَعْطَاهُ بَدَلَ قَرْضِهِ، وَبَقِيَ عَمَلُهُ وَسَعْيُهُ فِي تَخْلِيصِ الْمَالِ إحْسَانًا إلَيْهِ لَمْ يَجْزِهِ بِهِ. هَذَا أَصْوَبُ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ. وَمَنْ جَعَلَهُ فِي مِثْلِ هَذَا مُتَبَرِّعًا وَلَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا فَقَدْ قَالَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا، وَقَدْ قَابَلَ الْإِحْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ. وَمَنْ قَالَ هَذَا هُوَ الشَّرْعُ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ فَقَدْ قَالَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ؛ لَكِنَّهُ قَوْلُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ خَالَفَهُمْ آخَرُونَ. وَنِسْبَةُ مِثْلِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ إلَى الشَّرْعِ تُوجِبُ سُوءَ ظَنٍّ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ فِي الشَّرْعِ وَفِرَارَهُمْ مِنْهُ وَالْقَدْحَ فِي أَصْحَابِهِ. فَإِنَّ مِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ قَوْلًا بِرَأْيِهِ وَخَالَفَهُ فِيهِ آخَرُونَ، وَلَيْسَ مَعَهُ شَرْعٌ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) في كتاب الإيمان، عن أبي بكر.

مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ بَلْ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ قَدْ تَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ قَوْلِهِ، وَقَدْ يَتَّفِقُ أَنَّ مَنْ يَحْكُمُ بِذَلِكَ يَزِيدُ ذَلِكَ ظُلْمًا بِجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ، وَيَتَّفِقُ أَنَّ كُلَّ أَهْلِ ظُلْمٍ وَشَرٍّ يَزِيدُونَ الشَّرَّ شَرًّا وَيَنْسُبُونَ هَذَا الظُّلْمَ كُلَّهُ إلَى شَرْعِ مَنْ نَزَّهَهُ اللهُ عَنْ الظُّلْمِ، وَبَعَثَهُ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَجَعَلَ الْعَدْلَ الْمَحْضَ الَّذِي لَا ظُلْمَ فِيهِ هُوَ شَرْعَهُ. وَلِهَذَا كَانَ الْعَدْلُ وَشَرْعُهُ مُتَلَازِمَيْنِ. (٣٠/ ٣٥٤).

فائدة: تعدد المساجد وخراب بعضها

تَجِبُ عِمَارَةُ الْمَسْجِدِ إلَى إقَامَةِ الصَّلَاةِ فِيهِ، وَكَذَلِكَ تَرْتِيبُ إمَامٍ فِي مَسْجِدٍ آخَرَ يَجِبُ أَنْ يُفْعَلَ عِنْدَ الْمَصْلَحَةِ وَالْحَاجَةِ، وَلَا يَحِلُّ إغْلَاقُ الْمَسَاجِدِ عَمَّا شُرِعَتْ لَهُ. وَأَمَّا عِنْدَ قِلَّةِ أَهْلِ الْبُقْعَةِ وَاكْتِفَائِهِمْ بِمَسْجِدٍ وَاحِدٍ، مِثْلَ أَنْ يَكُونُوا حَوْلَهُ فَلَا يَجِبُ تَفْرِيقُ شَمْلِهِمْ فِي غَيْرِ مَسْجِدِهِمْ. (٣٠/ ٢٥٥).

فائدة عظيمة: دواء العشق

مَنْ أَصَابَهُ جُرْحٌ مَسْمُومٌ فَعَلَيْهِ بِمَا يُخْرِجُ السُّمَّ وَيُبْرِئُ الْجُرْحَ بِالتِّرْيَاقِ وَالْمَرْهَمِ، وَذَلِكَ بِأُمُورٍ:

مِنْهَا: أَنْ يَتَزَوَّجَ أَوْ يَتَسَرَّى؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّمَا مَعَهَا مِثْلُ مَا مَعَهَا**»[1]. وَهَذَا مِمَّا يُنْقِصُ الشَّهْوَةَ وَيُضْعِفُ الْعِشْقَ.

الثَّانِي- أَنْ يُدَاوِمَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَقْتَ السَّحَرِ. وَتَكُونُ صَلَاتُهُ بِحُضُورِ قَلْبٍ وَخُشُوعٍ. وَلْيُكْثِرْ مِنْ الدُّعَاءِ بِقَوْلِهِ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى**

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في كتاب النكاح (١٤٠٣) عن جابر.

دِينِك»[1]. يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قَلْبِي إِلَى طَاعَتِك وَطَاعَةِ رَسُولِك. فَإِنَّهُ مَتَى أَدْمَنَ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ للهِ صَرَفَ قَلْبَهُ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

الثَّالِثُ- أَنْ يَبْعُدَ عَنْ مَسْكَنِ هَذَا الشَّخْصِ وَالِاجْتِمَاعِ بِمَنْ يَجْتَمِعُ بِهِ؛ بِحَيْثُ لَا يَسْمَعُ لَهُ خَبَرًا، وَلَا يَقَعُ لَهُ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ؛ فَإِنَّ الْبُعْدَ جَفَا، وَمَتَى قَلَّ الذِّكْرُ ضَعُفَ الْأَثَرُ فِي الْقَلْبِ، فَلْيَفْعَلْ هَذِهِ الْأُمُورَ وَلْيُطَالِعْ بِمَا تَجَدَّدَ لَهُ مِنْ الْأَحْوَالِ. (٣٢/ ٥).

احذروا مرارة العمر

لَيْسَ لِأَحَدِ الْأَبَوَيْنِ أَنْ يُلْزِمَ الْوَلَدَ بِنِكَاحِ مَنْ لَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ إذَا امْتَنَعَ لَا يَكُونُ عَاقًّا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِ أَنْ يُلْزِمَهُ بِأَكْلِ مَا يَنْفِرُ عَنْهُ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَكْلِ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ؛ كَانَ النِّكَاحُ كَذَلِكَ وَأَوْلَى، فَإِنَّ أَكْلَ الْمَكْرُوهِ مَرَارَةُ سَاعَةٍ، وَعِشْرَةَ الْمَكْرُوهِ مِنْ الزَّوْجَيْنِ عَلَى طُولٍ يُؤْذِي صَاحِبَهُ كَذَلِكَ وَلَا يُمْكِنُ فِرَاقُهُ. (٣٢/ ٣٠).

فائدة جليلة: مصلحة المرأة في الزواج أولًا

أَوْجَبَ اللهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ النِّسَاءِ أَنْ يَنْظُرُوا فِي مَصْلَحَةِ الْمَرْأَةِ، لَا فِي أَهْوَائِهِمْ، كَسَائِرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْوُكَلَاءِ مِمَّنْ تَصَرَّفَ لِغَيْرِهِ، فَإِنَّهُ يَقْصِدُ مَصْلَحَةَ مَنْ تَصَرَّفَ لَهُ، لَا يَقْصِدُ هَوَاهُ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ الْأَمَانَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُؤَدَّى إلَى أَهْلِهَا، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]. وَهَذَا مِنْ النَّصِيحَةِ الْوَاجِبَةِ. (٣٢/ ٥٣).

---

(١) ثبت هذا الدعاء عن النبي ﷺ. أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٢و٣١٥) والترمذي (٣٥٢٢)، وانظر تخريجه في «الصحيحة» (٢٠٩١)، وحسنه لغيره.

التحدث بحكايات مكذوبة ومفتعلة

الْمُتَحَدِّثُ بِأَحَادِيثَ مُفْتَعَلَةٍ لِيُضْحِكَ النَّاسَ أَوْ لِغَرَضٍ آخَرَ: فَإِنَّهُ عَاصٍ للهِ وَرَسُولِهِ وَقَدْ رَوَى بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إنَّ الَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ الْقَوْمَ: وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ**»(١).

وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلُحُ فِي جَدٍّ وَلَا هَزْلٍ وَلَا يَعِدُ أَحَدُكُمْ صَبِيَّهُ شَيْئًا ثُمَّ لَا يُنْجِزُهُ، وأما إن كان في ذلك ما فيه عُدوانٌ على مسلمٍ وضررٌ في الدين: فهو أشدُّ تحريمًا من ذلك، وبكل حالٍ ففاعلُ ذلكَ مستحقٌّ للعقوبةِ الشرعيةِ التي تردعهُ عن ذلك. (٣٢/ ٢٥٦).

وَأَمَّا إنْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَا فِيهِ عُدْوَانٌ عَلَى مُسْلِمٍ وَضَرَرٌ فِي الدِّينِ: فَهُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا مِنْ ذَلِكَ، وَبِكُلِّ حَالٍ فَفَاعِلُ ذَلِكَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تَرْدَعُهُ عَنْ ذَلِكَ. (٣٢/ ٢٥٦).

حق العالم

وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَّبِعَ زَلَّاتِ الْعُلَمَاءِ، كَمَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ إلَّا بِمَا هُمْ لَهُ أَهْلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى عَفَا لِلْمُؤْمِنِينَ عَمَّا أَخْطَئُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ. وَأَمَرَنَا أَنْ نَتَّبِعَ مَا أُنْزِلَ إلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا وَلَا نَتَّبِعَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، وَأَمَرَنَا أَلَّا نُطِيعَ مَخْلُوقًا فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَنَسْتَغْفِرَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، فَنَقُولَ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠] الْآيَةَ. وَهَذَا أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَا كَانَ يُشْبِهُ هَذَا مِنْ الْأُمُورِ، وَنُعَظِّمُ أَمْرَهُ تَعَالَى بِالطَّاعَةِ للهِ وَرَسُولِهِ، وَنَرْعَى حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ،

---

(١) حسن. أخرجه أحمد، وأبو داود (٤٩٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٣٦).

لَاسِيَّمَا أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْهُمْ، كَمَا أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ. وَمَنْ عَدَلَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحُجَّةِ إِلَى اتِّبَاعِ الْهَوَى فِي التَّقْلِيدِ، وَآذَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا؛ فَهُوَ مِنْ الظَّالِمِينَ. وَمَنْ عَظَّمَ حُرُمَاتِ اللهِ وَأَحْسَنَ إِلَى عِبَادِ اللهِ كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ. (٣٢/ ٢٣٩).

زواج السر

(نِكَاحُ السِّرِّ) الَّذِي يَتَوَاصَوْنَ بِكِتْمَانِهِ، وَلَا يُشْهِدُونَ عَلَيْهِ أَحَدًا؛ فَهُوَ بَاطِلٌ عِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ السِّفَاحِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤]. (٣٣/ ١٥٨).

الشريعة كاملة

إِنَّ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَجْمَعُ مَصَالِحَ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ؛ فَإِنَّهُ ﷺ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ فِي شَرِيعَتِهِ مَا فَرَّقَهُ شَرَائِعُ مَنْ قَبْلَهُ مِنْ الْكَمَالِ؛ إِذْ لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ، فَكَمُلَ بِهِ الْأَمْرُ كَمَا كَمُلَ بِهِ الدِّينُ، فَكِتَابُهُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَشَرْعُهُ أَفْضَلُ الشَّرَائِعِ، وَمِنْهَاجُهُ أَفْضَلُ الْمَنَاهِجِ، وَأُمَّتُهُ خَيْرُ الْأُمَمِ، وَقَدْ عَصَمَهَا اللهُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ؛ وَلَكِنْ يَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ بَعْضٍ. (٣٣/ ١٥٩).

اليمين في الإسلام

وَالْيَمِينُ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ (نَوْعَانِ):

نَوْعٌ مُحْتَرَمٌ مُنْعَقِدٌ مُكَفِّرٌ، كَالْحَلِفِ بِاللَّهِ.

وَنَوْعٌ غَيْرُ مُحْتَرَمٍ؛ وَلَا مُنْعَقِدٍ وَلَا مُكَفِّرٍ، وَهُوَ الْحَلِفُ بِالْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْيَمِينُ مِنْ أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ، فَفِيهَا الْكَفَّارَةُ، وَهِيَ مِنْ النَّوْعِ الْأَوَّلِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ

أَيْمَانِ الْمُسْلِمِينَ فَهِيَ مِنْ الثَّانِي. وَأَمَّا إثْبَاتُ يَمِينٍ مُنْعَقِدَةٍ؛ غَيْرِ مُكَفَّرَةٍ فَهَذَا لَا أَصْلَ لَهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. (٣٣/ ٢٢٢).

أنواع الخارجين على ولي الأمر

أَهْلُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالْفَضْلِ لَا يُرَخِّصُونَ لِأَحَدِ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ وُلَاةِ الْأُمُورِ وَغِشِّهِمْ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ، كَمَا قَدْ عُرِفَ مِنْ عَادَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالدِّينِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَمِنْ سِيرَةِ غَيْرِهِمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[١] عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرِهِ»، قَالَ: وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْغَدْرِ -يَعْنِي بِإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ- وَهَذَا حَدَّثَ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ؛ لَمَّا قَامَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَخْرُجُونَ عَنْ طَاعَةِ وَلِيِّ أَمْرِهِمْ؛ يَنْقُضُونَ بَيْعَتَهُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ نَافِعٍ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ عُمَرَ إلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيعٍ، حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ؛ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً. فَقَالَ: إنِّي لَمْ آتِك لِأَجْلِسَ، أَتَيْتُك لِأُحَدِّثَك حَدِيثًا؛ سَمِعْت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ؛ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٢]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ يَخْرُجُ مِنْ السُّلْطَانِ شِبْرًا فَمَاتَ عَلَيْهِ إلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٣]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٧١١١) في كتاب الفتن بنحوه.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥١) في كتاب الإمارة.

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥٤) في كتاب الفتن، ومسلم (١٨٤٩) في كتاب الإمارة.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٤٨) في كتاب الإمارة.

خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحتَ رَايَةٍ عِمِيَّةٍ؛ يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»، وَفِي لَفْظٍ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي؛ يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يُوفِي لِذِي عَهْدِهَا؛ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ».

فَالْأَوَّلُ- هُوَ الَّذِي يَخْرُجُ عَنْ طَاعَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، وَيُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ.

وَالثَّانِي- هُوَ الَّذِي يُقَاتِلُ لِأَجْلِ الْعَصَبِيَّةِ؛ وَالرِّيَاسَةِ؛ لَا فِي سَبِيلِ اللهِ، كَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ، مِثْلِ قَيْسٍ وَيَمَنٍ.

وَالثَّالِثُ- مِثْلُ الَّذِي يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، فَيَقْتُلُ مَنْ لَقِيَهُ مِنْ مُسْلِمٍ وَذِمِّيٍّ، لِيَأْخُذَ مَالَهُ، وكالحرورية[1] الْمَارِقِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ؛ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2]، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَاعَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ؛ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[3]، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي أَنْ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا؛ وَلَوْ كَانَ حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ»[4]، وَعند الْبُخَارِيِّ: «وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[5]، وَفِي صَحِيحِ

---

(١) نسبة إلى مكان يقال له حروراء، انحاز إليه الخوارج.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠) في كتاب المناقب، ومسلم (١٠٦٤) في كتاب الزكاة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٣) في كتاب الأذان.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٣٧) في كتاب الإمارة.

(٥) أخرجه البخاري (٦٩٣) في كتاب الأذان.

مُسْلِمٍ، عَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَبْدًا يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا**»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «**عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ**»(٢)، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ. لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ. أَلَا مَنْ وُلِّيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ [الله] فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**»(٣). (٣٥/ ١٤).

طاعة ولاة الأمر

طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وَطَاعَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ وَاجِبَةٌ؛ لِأَمْرِ اللهِ بِطَاعَتِهِمْ، فَمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ بِطَاعَةِ وُلَاةِ الْأَمْرِ للهِ فَأَجْرُهُ عَلَى الله. وَمَنْ كَانَ لَا يُطِيعُهُمْ إِلَّا لِمَا يَأْخُذُهُ مِنَ الْوِلَايَةِ وَالْمَالِ؛ فَإِنْ أَعْطَوْهُ أَطَاعَهُمْ، وَإِنْ مَنَعُوهُ عَصَاهُمْ: فَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. (٣٥/ ١٧).

وللمسجد دوره

وَكَانَتْ (مَوَاضِعُ الْأَئِمَّةِ وَمَجَامِعُ الْأُمَّةِ) هِيَ الْمَسَاجِدَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسَّسَ مَسْجِدَهُ الْمُبَارَكَ عَلَى التَّقْوَى: فَفِيهِ الصَّلَاةُ، وَالْقِرَاءَةُ، وَالذِّكْرُ، وَتَعْلِيمُ الْعِلْمِ، وَالْخُطَبُ.

وَفِيهِ السِّيَاسَةُ، وَعَقْدُ الْأَلْوِيَةِ وَالرَّايَاتِ، وَتَأْمِيرُ الْأُمَرَاءِ، وَتَعْرِيفُ الْعُرَفَاءِ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٨) في كتاب الإمارة.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣٧) في كاب الإمارة، عن أبي ذر.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٥) في كتاب الإمارة.

وَفِيهِ يَجْتَمِعُ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَهُ لِمَا أَهَمَّهُمْ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَكَذَلِكَ عُمَّالُهُ فِي مِثْلِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَبِلَادِ الْيَمَنِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَمْصَارِ وَالْقُرَى، وَكَذَلِكَ عُمَّالُهُ عَلَى الْبَوَادِي؛ فَإِنَّ لَهُمْ مَجْمَعًا فِيهِ يُصَلُّونَ، وَفِيهِ يُسَاسُونَ. (٣٥/ ٣٥).

على الباغي تدور الدوائر

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:٤٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الشورى:٤٢-٤٣]. فَالْبَاغِي الظَّالِمُ يَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعُهُ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَلَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَجَعَلَ اللهُ الْبَاغِيَ مِنْهُمَا دَكًّا[1].

وَمِنْ حِكْمَةِ الشِّعْرِ:

قَضَى اللهُ أَنَّ الْبَغْيَ يَصْرَعُ أَهْلَهُ ... وَأَنَّ عَلَى الْبَاغِي تَدُورُ الدَّوَائِرُ

وَيَشْهَدُ لِهَذَا قَوْله تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ﴾ [يونس:٢٣] الْآيَةَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَحْرَى أَنْ يُعَجَّلَ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْبَغْيِ، وَمَا حَسَنَةٌ أَحْرَى أَنْ يُعَجَّلَ لِصَاحِبِهَا الثَّوَابُ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ**»[2]. فَمَنْ كَانَ مِنْ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ بَاغِيًا ظَالِمًا فَلْيَتَّقِ اللهَ وَلْيَتُبْ، وَمَنْ كَانَ مَظْلُومًا مَبْغِيًّا عَلَيْهِ، وَصَبَرَ؛ كَانَ لَهُ الْبُشْرَى مِنْ اللهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥]، قَالَ عَمْرُو بْنُ أَوْسٍ: هُمْ

---

(١) لم أقف عليه عن ابن مسعود، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٨)، وابن أبي الدنيا في «ذم البغي» (٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٢٦٦) عن ابن عباس، وأخرجه غيره عن أنس وابن عمر موقوفًا، وانظر تخريجه «الضعيفة» (١٩٤٨) للألباني، وحاشية «شعب الإيمان» (١٢/ ٨٢) لمختار أحمد الندوي، وقال الألباني عن سند ابن عباس: وهذا إسناد صحيح، فالصواب في الحديث الوقف.

(٢) انظر نحوه في كتاب «صحيح الأدب المفرد» (١/ ٢٨)، و«تخريج مشكاة المصابيح» (٤٩٣٢) للألباني.

الَّذِينَ لَا يَظْلِمُونَ إِذَا ظُلِمُوا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي حَقِّ عَدُوِّهِمْ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا فَعَلَ بِهِ إِخْوَتُهُ مَا فَعَلُوا، فَصَبَرَ وَاتَّقَى، حَتَّى نَصَرَهُ اللهُ، وَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي عِزِّهِ: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، فَمَنْ اتَّقَى اللهَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ بِصَدْقٍ وَعَدْلٍ، وَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ، وَصَبَرَ عَلَى أَذَى الْآخَرِ وَظُلْمِهِ؛ لَمْ يَضُرَّهُ كَيْدُ الْآخَرِ، بَلْ يَنْصُرُهُ اللهُ عَلَيْهِ. (٣٥/ ٨٢).

الدين الخالص

وَكُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ النَّصَارَى أَعْظَمُ الْمَلَلِ جَهْلًا وَضَلَالَةً، وَأَبْعَدُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ، وَأَكْثَرُ اشْتِغَالًا بِالْمَلَاهِي وَتَعَبُّدًا بِهَا. وَالْفَلَاسِفَةُ مُتَّفِقُونَ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّهُ مَا قَرَعَ الْعَالَمَ نَامُوسٌ أَعْظَمُ مِنْ النَّامُوسِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُمَّتُهُ أَكْمَلُ عَقْلًا وَدِينًا وَعِلْمًا، بِاتِّفَاقِ الْفَلَاسِفَةِ، حَتَّى فَلَاسِفَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتَابُونَ فِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ عَقْلًا وَدِينًا. وَإِنَّمَا يَمْكُثُ أَحَدُهُمْ عَلَى دِينِهِ؛ إمَّا اتِّبَاعًا لِهَوَاهُ وَرِعَايَةً لِمَصْلَحَةِ دُنْيَاهُ فِي زَعْمِهِ، وَإِمَّا ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَجُوزُ التَّمَسُّكُ بِأَيِّ مِلَّةٍ كَانَتْ. (٣٥/ ١٨٧).

تزيين الباطل

وَلَا يُنْفَقُ الْبَاطِلُ فِي الْوُجُودِ إلَّا بِشَوْبٍ مِنْ الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ أَهْل الْكِتَابِ لَبَّسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ بِسَبَبِ الْحَقِّ الْيَسِيرِ الَّذِي مَعَهُمْ؛ يُضِلُّونَ خَلْقًا كَثِيرًا عَنْ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَيَدَّعُونَهُ إلَى الْبَاطِلِ الْكَثِيرِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ. وَكَثِيرًا مَا يُعَارِضُهُمْ مِنْ

أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يُحْسِنُ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يُقِيمُ الْحُجَّةَ الَّتِي تُدَحِّضُ بَاطِلَهُمْ، وَلَا يُبَيِّنُ حُجَّةَ اللهِ الَّتِي أَقَامَهَا بِرُسُلِهِ، فَيَحْصُلُ بِسَبَبِ ذَلِكَ فِتْنَةٌ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي هَذَا الْبَاطِلِ وَنَحْوَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٣٥/ ١٩٠).

الشرع المنزل والمؤول والمبدل

لَفْظُ الشَّرْعِ فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ (ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ):

أَحَدُهَا- الشَّرْعُ الْمُنَزَّلُ، وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَاتِّبَاعُهُ وَاجِبٌ، مَنْ خَرَجَ عَنْهُ وَجَبَ قَتْلُهُ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أُصُولُ الدِّينِ وَفُرُوعُهُ، وَسِيَاسَةُ الْأُمَرَاءِ وَوُلَاةِ الْمَالِ، وَحُكْمُ الْحُكَّامِ، وَمَشْيَخَةُ الشُّيُوخِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَوَّلِينَ والآخرين خُرُوجٌ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

والثَّانِي- الشَّرْعُ الْمُؤَوَّلُ، وَهُوَ مَوَارِدُ النِّزَاعِ وَالِاجْتِهَادِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، فَمَنْ أَخَذَ فِيمَا يَسُوغُ فِيهِ الِاجْتِهَادُ أُقِرَّ عَلَيْهِ، وَلَمْ تَجِبْ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ مُوَافَقَتُهُ إِلَّا بِحُجَّةٍ لَا مَرَدَّ لَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

والثَّالِثُ- الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ مِثْلَ مَا يَثْبُتُ مِنْ شَهَادَاتِ الزُّورِ، أَوْ يُحْكَمُ فِيهِ بِالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ بِغَيْرِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ، حُكْمًا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، أَوْ يُؤْمَرُ فِيهِ بِإِقْرَارِ بَاطِلٍ لِإِضَاعَةِ حَقٍّ: مِثْلَ أَمْرِ الْمَرِيضِ أَنْ يُقِرَّ لِوَارِثٍ بِمَا لَيْسَ بِحَقٍّ، لِيُبْطِلَ بِهِ حَقَّ بَقِيَّةِ الْوَرَثَةِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِذَلِكَ وَالشَّهَادَةَ عَلَيْهِ مُحَرَّمَةٌ، وَإِنْ كَانَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ بَاطِنَ الْأَمْرِ إِذَا حَكَمَ بِمَا ظَهَرَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ لَمْ يَأْثَمْ، فَقَدْ قَالَ سَيِّدُ الْحُكَّامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا**

أَقْضِي بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْت لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[1]. (٣٥/ ٣٩٥).

الدرر والجواهر

❁ وَالسَّعَادَةُ فِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ: أَنْ تُعَامِلَهُمْ لله فَتَرْجُوَ اللهَ فِيهِمْ وَلَا تَرْجُوَهُمْ فِي الله وَتَخَافَهُ فِيهِمْ وَلَا تَخَافَهُمْ فِي الله، وَتُحْسِنَ إِلَيْهِمْ رَجَاءَ ثَوَابِ اللهِ لَا لِمُكَافَأَتِهِمْ وَتَكُفَّ عَنْ ظُلْمِهِمْ خَوْفًا مِنَ الله لَا مِنْهُمْ. (١/ ٥١).

❁ الإِيمَانِ بالله وَعِبَادَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَإِجْلَالَهُ هُوَ غِذَاءُ الْإِنْسَانِ وَقُوتُهُ وَصَلَاحُهُ وَقِوَامُهُ كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَكَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ؛ لَا كَمَا يَقُولُ مَنْ يَعْتَقِدُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ: أَنَّ عِبَادَتَهُ تَكْلِيفٌ وَمَشَقَّةٌ (٢/ ٢٥).

❁ وَيَجِبُ عُقُوبَةُ كُلِّ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهِمْ (أي: أهل البدع والأهواء)، أَوْ ذَبَّ عَنْهُمْ، أَوْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ، أَوْ عَظَّمَ كُتُبَهُمْ، أَوْ عُرِفَ بِمُسَاعَدَتِهِمْ وَمُعَاوَنَتِهِمْ، أَوْ كَرِهَ الْكَلَامَ فِيهِمْ، أَوْ أَخَذَ يَعْتَذِرُ لَهُمْ بِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَدْرِي مَا هُوَ، أَوْ مَنْ قَالَ إِنَّهُ صَنَّفَ هَذَا الْكِتَابَ، وَأَمْثَالَ هَذِهِ الْمَعَاذِيرِ الَّتِي لَا يَقُولُهَا إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُنَافِقٌ؛ بَلْ تَجِبُ عُقُوبَةُ كُلِّ مَنْ عَرَفَ حَالَهُمْ، وَلَمْ يُعَاوِنْ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْقِيَامَ عَلَى هَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ الْوَاجِبَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ أَفْسَدُوا الْعُقُولَ وَالْأَدْيَانَ عَلَى خَلْقٍ مِنَ الْمَشَايِخِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ وَهُمْ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله، فَضَرَرُهُمْ فِي الدِّينِ: أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ مَنْ يُفْسِدُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دُنْيَاهُمْ وَيَتْرُكُ دِينَهُمْ. (٢/ ١٣٢).

❁ وَأَنَا فِي سِعَةِ صَدْرٍ لِمَنْ يُخَالِفُنِي فَإِنَّهُ وَإِنْ تَعَدَّى حُدُودَ الله فِيَّ بِتَكْفِيرٍ أَوْ تَفْسِيقٍ أَوْ افْتِرَاءٍ أَوْ عَصَبِيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ. فَأَنَا لَا أَتَعَدَّى حُدُودَ الله فِيهِ. (٣/ ٢٤٥).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) عن أم سلمة.

❁ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَهُ تَحَنُّثُهُ لِشَخْصٍ وَمُوَالَاتُهُ لَهُ عَلَى أَنْ يَتَعَصَّبَ مَعَهُ بِالْبَاطِلِ أَوْ يُعَطِّلَ لِأَجْلِهِ حُدُودَ الله تَعَالَى. (٣/ ٢٧١).

❁ أَهْلُ الْيَقِينِ إِذَا ابْتُلُوا ثَبَتُوا؛ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ فَإِنَّ الِابْتِلَاءَ قَدْ يُذْهِبُ إِيمَانَهُ أَوْ يُنْقِصُهُ. (٣/ ٣٣٠).

❁ وَحُصُولُ الْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ كَحُصُولِ الطَّعَامِ فِي الْجِسْمِ، فَالْجِسْمُ يُحِسُّ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ وَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ تُحِسُّ بِمَا يَتَنَزَّلُ إِلَيْهَا مِنْ الْعُلُومِ الَّتِي هِيَ طَعَامُهَا وَشَرَابُهَا (٤/ ٩٦).

❁ الَّذِينَ يَعِيبُونَ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَيَعْدِلُونَ عَنْ مَذْهَبِهِمْ جَهَلَةٌ زَنَادِقَةٌ مُنَافِقُونَ بِلَا رَيْبٍ. (٤/ ٩٦).

❁ أَمَّا أَنْ يَكُونَ انْتِحَالُ السَّلَفِ مِنْ شَعَائِرِ أَهْلِ الْبِدَعِ: فَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا. فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ إِلَّا حَيْثُ يَكْثُرُ الْجَهْلُ وَيَقِلُّ الْعِلْمُ. (٤/ ١٥٦).

❁ كَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ أَهْلَ الْبِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ - الْمُخَالِفِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - أَهْلَ الْأَهْوَاءِ. (٤/ ١٩٠)

❁ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخَالِفُونَ أَعْلَمَ مِنْ السَّالِفِينَ كَمَا قَدْ يَقُولُهُ بَعْضُ الْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُقَدِّرْ قَدْرَ السَّلَفِ؛ بَلْ وَلَا عَرَفَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ الْمَعْرِفَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا: مِنْ أَنَّ «طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ، وَطَرِيقَةَ الْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ» (٥/ ٨).

❁ وَالنَّاسُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ التَّوَجُّهِ وَالتَّقَرُّبِ وَالرِّقَّةِ مَا لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْوَقْتِ. (٥/ ١٣٠ و ٢٤١).

❁ وَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِي اتِّبَاعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ مَعْرِفَةِ حَدِيثِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ الله، وَمُلَازَمَةِ مَا يَدْعُو إِلَى الْجَمَاعَةِ

وَالْأُلْفَةِ، وَمُجَانَبَةِ مَا يَدْعُو إِلَى الْخِلَافِ وَالْفُرْقَةِ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَمْرًا بَيِّنًا قَدْ أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِيهِ بِأَمْرٍ مِنْ الْمُجَانَبَةِ فَعَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ (٦/ ٥٠٥).

❁ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»، فَمَنْ صَلَحَ قَلْبُهُ صَلَحَ جَسَدُهُ قَطْعًا بِخِلَافِ الْعَكْسِ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة: كَانَ الْعُلَمَاءُ فِيمَا مَضَى يَكْتُبُ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلَانِيَتَهُ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ عَمِلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي (كِتَابِ الْإِخْلَاصِ).

فَعُلِمَ أَنَّ الْقَلْبَ إذَا صَلَحَ بِالْإِيمَانِ؛ صَلَحَ الْجَسَدُ بِالْإِسْلَامِ وَهُوَ مِنْ الْإِيمَانِ. (٧/ ٩).

❁ مَنْ كَانَ دَاعِيَةً إلَى بِدْعَةٍ فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ لِدَفْعِ ضَرَرِهِ عَنْ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ فِي الْبَاطِنِ مُجْتَهِدًا وَأَقَلُّ عُقُوبَتِهِ أَنْ يُهْجَرَ فَلَا يَكُونُ لَهُ مَرْتَبَةٌ فِي الدِّينِ لَا يُؤْخَذُ عَنْهُ الْعِلْمُ وَلَا يُسْتَقْضَى وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ. (٧/ ٣٨٥).

❁ فَكُلُّ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يُحِبُّ الله وَلَمْ يَتَّبِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ كَذَبَ (٨/ ٣٦٠).

❁ وَلْيَكُنْ هَجِيرَاهُ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بالله) فَإِنَّهَا بِهَا تُحْمَلُ الْأَثْقَالُ، وَتُكَابَدُ الْأَهْوَالُ، وَيُنَالُ رَفِيعُ الْأَحْوَالِ (١٠/ ١٣٧).

❁ فَمَنْ بَنَى الْكَلَامَ فِي الْعِلْمِ: الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ السَّابِقِينَ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَنَى الْإِرَادَةَ وَالْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ

وَالسَّمَاعَ الْمُتَعَلِّقَ بِأُصُولِ الْأَعْمَالِ وَفُرُوعِهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ وَالْهَدْيِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ وَهَذِهِ طَرِيقُ أَئِمَّةِ الْهُدَى (١٠/ ٣٦٣).

❁ وَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ أَوْقَاتٍ يَنْفَرِدُ بِهَا بِنَفْسِهِ فِي دُعَائِهِ وَذِكْرِهِ وَصَلَاتِهِ وَتَفَكُّرِهِ وَمُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَإِصْلَاحِ قَلْبِهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، فَهَذِهِ يَحْتَاجُ فِيهَا إلَى انْفِرَادِهِ بِنَفْسِهِ؛ إمَّا فِي بَيْتِهِ، كَمَا قَالَ طاوس: «نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ يَكُفُّ فِيهَا بَصَرَهُ وَلِسَانَهُ»، وَإِمَّا فِي غَيْرِ بَيْتِهِ.

فَاخْتِيَارُ الْمُخَالَطَةِ مُطْلَقًا خَطَأٌ، وَاخْتِيَارُ الِانْفِرَادِ مُطْلَقًا خَطَأٌ، وَأَمَّا مِقْدَارُ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ كُلُّ إنْسَانٍ مِنْ هَذَا وَهَذَا وَمَا هُوَ الْأَصْلَحُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ فَهَذَا يَحْتَاجُ إلَى نَظَرٍ خَاصٍّ. (١٠/ ٤٢٦).

❁ فَلَا بُدَّ لِلسَّالِكِ فِيهَا مِنْ تَقْصِيرٍ وَغَفْلَةٍ فَيَسْتَغْفِرُ الله وَيَتُوبُ إلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَوْ اجْتَهَدَ مَهْمَا اجْتَهَدَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ لله بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْهِ فَمَا يَسَعُهُ إلَّا الِاسْتِغْفَارُ وَالتَّوْبَةُ عَقِيبَ كُلِّ طَاعَةٍ. (١٠/ ٥٨٠).

❁ وَأَمَّا (رَأْسُ الْحِزْبِ) فَإِنَّهُ رَأْسُ الطَّائِفَةِ الَّتِي تَتَحَزَّبُ أَيْ تَصِيرُ حِزْبًا فَإِنْ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ فَهُمْ مُؤْمِنُونَ لَهُمْ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ زَادُوا فِي ذَلِكَ وَنَقَصُوا مِثْلَ التَّعَصُّبِ لِمَنْ دَخَلَ فِي حِزْبِهِمْ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي حِزْبِهِمْ سَوَاءٌ كَانَ عَلَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَهَذَا مِنْ التَّفَرُّقِ الَّذِي ذَمَّهُ اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ الله وَرَسُولَهُ أَمَرَا بِالْجَمَاعَةِ والائتلاف وَنَهَيَا عَنْ التَّفْرِقَةِ وَالِاخْتِلَافِ، وَأَمَرَا بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَنَهَيَا عَنْ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ. (١١/ ٩٢).

❁ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ الْآيَةَ [الإنسان:٩]، وَمَنْ طَلَبَ مِنْ الْفُقَرَاءِ الدُّعَاءَ، أَوْ الثَّنَاءَ خَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ؛ ..، وَلِهَذَا كَانَتْ عَائِشَةُ إذَا أَرْسَلَتْ إلَى قَوْمٍ بِهَدِيَّةٍ تَقُولُ لِلرَّسُولِ: اسْمَعْ مَا دَعَوْا بِهِ لَنَا؛ حَتَّى نَدْعُوَ لَهُمْ بِمِثْلِ مَا دَعَوْا وَيَبْقَى أَجْرُنَا عَلَى الله. (١١/ ١١١).

❁ فَالتَّكَلُّمُ بِالْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ السُّكُوتِ عَنْهُ، وَالصَّمْتُ عَنْ الشَّرِّ خَيْرٌ مِنْ التَّكَلُّمِ بِهِ، فَأَمَّا الصَّمْتُ الدَّائِمُ فَبِدْعَةٌ مَنْهِيٌّ عَنْهَا. (١١/ ٢٠٠).

❁ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ تَصْدِيقُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ، وَطَاعَتُهُ فِي جَمِيعِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يُعَارِضَهُ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ، وَلَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ، وَكُلُّ مَا عَارَضَهُ فَهُوَ خَطَأٌ وَضَلَالٌ.(١١/ ٤٣١).

❁ فَأَمَّا الِانْتِسَابُ الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَفِيهِ خُرُوجٌ عَنْ الْجَمَاعَةِ والائتلاف إلَى الْفُرْقَةِ وَسُلُوكِ طَرِيقِ الِابْتِدَاعِ وَمُفَارَقَةِ السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ، فَهَذَا مِمَّا يُنْهَى عَنْهُ، وَيَأْثَمُ فَاعِلُهُ، وَيَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ طَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (١١/ ٥١٤).

❁ مَنْ أَحَبَّ شَيْخًا مُخَالِفًا لِلشَّرِيعَةِ كَانَ مَعَهُ؛ فَإِذَا دَخَلَ الشَّيْخُ النَّارَ كَانَ مَعَهُ. (١١/ ٥١٩ و١٨/ ٣١٥).

❁ التَّوْحِيدُ يُذْهِبُ أَصْلَ الشِّرْكِ، وَالِاسْتِغْفَارُ يَمْحُو فُرُوعَهُ، فَأَبْلَغُ الثَّنَاءِ قَوْلُ: لَا إلَهَ إلَّا الله، وَأَبْلَغُ الدُّعَاءِ قَوْلُ: أَسْتَغْفِرُ الله. (١١/ ٦٩٧).

❁ إذَا وَجَدَ الْعَبْدُ تَقْصِيرًا فِي حُقُوقِ الْقَرَابَةِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ وَالْجِيرَانِ وَالْإِخْوَانِ، فَعَلَيْهِ بِالدُّعَـــاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِغْفَارِ. (١١/ ٦٩٨).

❁ إنَّ الله تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا صِفَاتِهِ وَلَا أَفْعَالِهِ. (١٢/ ٦٥).

❁ النُّورُ الَّذِي يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا عَلَى حُسْنِ عَمَلِهِ وَاعْتِقَادِهِ يَظْهَرُ فِي الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم:٨]. (١٥/ ٢٨٥).

❁ وَكَمَائِنُ الْقُلُوبِ تَظْهَرُ عِنْدَ الْمِحَنِ. (٢٠/ ٩).

❁ وَاحْذَرْ أَنْ تَغْتَرَّ بِزُهْدِ الْكَافِرِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ؛ فَإِنَّ الْفَاسِقَ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَيُرِيدُ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ زُهَّادِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَزُهَّادِ الْكُفَّارِ، إِمَّا لِفَسَادِ عَقَدِهِمْ، وَإِمَّا لِفَسَادِ قَصْدِهِمْ، وَإِمَّا لِفَسَادِهِمَا جَمِيعًا. (٢٠/ ١٥٢).

❁ وُجُودُ الْجِنِّ ثَابِتٌ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَاتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَكَذَلِكَ دُخُولُ الْجِنِّيِّ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ ثَابِتٌ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ (٢٤/ ٢٧٦).

❁ الْمَنَازِلُ الْعَالِيَةُ لَا تُنَالُ إِلَّا بِالْبَلَاءِ. (٢٥/ ٣٠٢).

❁ إِذَا ازْدَحَمَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ وَتَعَارَضَتْ الْمَصَالِحُ وَالْمَفَاسِدُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةٍ وَدَفْعِ مَفْسَدَةٍ فَيُنْظَرُ فِي الْمُعَارِضِ لَهُ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَفُوتُ مِنْ الْمَصَالِحِ أَوْ يَحْصُلُ مِنْ الْمَفَاسِدِ أَكْثَرَ لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِهِ؛ بَلْ يَكُونُ مُحَرَّمًا إِذَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ؛ لَكِنَّ اعْتِبَارَ مَقَادِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ هُوَ بِمِيزَانِ الشَّرِيعَةِ فَمَتَى قَدَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى اتِّبَاعِ النُّصُوصِ لَمْ يَعْدِلْ عَنْهَا وَإِلَّا اجْتَهَدَ بِرَأْيِهِ لِمَعْرِفَةِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ وَقُلْ إِنْ تعوز النُّصُوصَ مَنْ يَكُونُ خَبِيرًا بِهَا وَبِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأَحْكَامِ. (٢٨/ ١٢٩).

❁ فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: الْعِلْمُ؛ وَالرِّفْقُ؛ وَالصَّبْرُ؛ الْعِلْمُ قَبْلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ وَالرِّفْقُ مَعَهُ وَالصَّبْرُ بَعْدَهُ. (٢٨/ ١٣٧).

❁ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ تَجِبُ مُوَالَاتُهُ وَإِنْ ظَلَمَك وَاعْتَدَى عَلَيْك، وَالْكَافِرُ تَجِبُ مُعَادَاتُهُ وَإِنْ أَعْطَاك وَأَحْسَنَ إلَيْك (٢٨/ ٢٠٩).

❁ فَبِالْقِيَامِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّبْرِ يَصْلُحُ حَالُ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ. (٢٨/ ٣٦٢).

❁ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ غَيْرِهِ وَمَعَ هَذَا يَجْحَدُ ذَلِكَ لِحَسَدِهِ إيَّاهُ أَوْ لِطَلَبِ عُلُوِّهِ عَلَيْهِ أَوْ لِهَوَى النَّفْسِ (٧/ ١٩١).

❁ وَالْعَالِمُ يَعْرِفُ الْجَاهِلَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ جَاهِلًا وَالْجَاهِلُ لَا يَعْرِفُ الْعَالِمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا (١٣/ ٢٣٥).

كلمات نورانية

❁ كَتَبْت قَدِيمًا فِي بَعْضِ كُتُبِي لِبَعْضِ الْأَكَابِرِ: إنَّ الْعِلْمَ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَالشَّأْنُ فِي أَنْ نَقُولَ عِلْمًا وَهُوَ النَّقْلُ الْمُصَدَّقُ، وَالْبَحْثُ الْمُحَقَّقُ، فَإِنَّ مَا سِوَى ذَلِكَ - وَإِنَّ زَخْرَفَ مِثْلَهُ بَعْضُ النَّاسِ - خَزَفٌ مُزَوَّقٌ، وَإِلَّا فَبَاطِلٌ مُطْلَقٌ. (٦/ ٣٨٨).

❁ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ فَهْمُ مَعَانِيهِ دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ، فَالْقُرْآنُ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنْ الْعِلْمِ، كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يستشرحوه، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟ (١٣/ ٣٣٢).

❁ فَالْإِنْسَانُ إذَا كَانَ مُقِيمًا عَلَى طَاعَةِ اللهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَانَ فِي نَعِيمِ الْإِيمَانِ، وَالْعِلْمُ وَارِدٌ عَلَيْهِ مِنْ جِهَاتِهِ وَهُوَ فِي جَنَّةِ الدُّنْيَا. (١٤/ ١٦٠).

❁ الدُّنْيَا كُلُّهَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَأُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَيْهَا، وَلَا بَقَاءَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا مَا دَامَتْ آثَارُ الرُّسُلِ مَوْجُودَةً فِيهِمْ، فَإِذَا دَرَسَتْ آثَارُ الرُّسُلِ مِنْ الْأَرْضِ، وانمحت بِالْكُلِّيَّةِ خَرَّبَ اللهُ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَالسُّفْلِيَّ، وَأَقَامَ الْقِيَامَةَ. (١٩/ ١٠١).

❁ لْيَتَدَبَّرْ الْعَاقِلُ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ خَرَجَ عَنْ الْقَانُونِ النَّبَوِيِّ الشَّرْعِيِّ الْمُحَمَّدِيِّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا احْتَاجَ إلَى أَنْ يَضَعَ قَانُونًا آخَرَ مُتَنَاقِضًا يَرُدُّهُ الْعَقْلُ وَالدِّينُ. (٢٩/ ٣٢٩).

أهل الحديث والثبات على الحق

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ فَمَا يُعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَلَا صَالِحِ عَامَّتِهِمْ رَجَعَ قَطُّ عَنْ قَوْلِهِ وَاعْتِقَادِهِ، بَلْ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ صَبْرًا عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ أُمْتُحِنُوا بِأَنْوَاعِ الْمِحَنِ وَفُتِنُوا بِأَنْوَاعِ الْفِتَنِ، وَهَذِهِ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ..، وَبِالْجُمْلَةِ: فَالثَّبَاتُ وَالِاسْتِقْرَارُ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ أَضْعَافِ مَا هُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ. (٤/ ٥٠).

والحمد لله رب العالمين[1]

(١) انتهى الانتقاء والتعليق في سنة ١٤٣٤هـ، الموافق ٢٠١٢م، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وسبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، وكتبه خالد بن جمعة بن عثمان الخراز، غفر الله له، ووالديه، وأهله، وذريته، ومشايخه وللمسلمين والمسلمات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

الفهارس العامة

١. فهرس أطراف الحديث النبوي.

٢. فهرس الأعلام.

٣. فهرس موضوعي.

٤. فهرس محتويات الكتاب.

١ - فهـرس
أطـراف الحـديث

أجعلتني لله ندًّا؟ ٢٢
أدوا إليهم الذي لهم ٢٤٦
إذا أحب أحدكم أن يعلم كيف منزلته عند الله ٤٧
إذا أذنب عبد ذنبًا ٩٠
إذا أعيتكم الأمور فعليكم ١٤٣
إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ١٢٩
إذا حضرت الصلاة فأذنا ٢٤٤
إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ١٨٢
إذا سألتم الله فأسألوه بجاهي ١٤٤
إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله ١٤٤
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ١٤٩
إذا نظر أحدكم إلى محاسن امرأة ٢٥٥
أربعوا على أنفسكم ١٦٢
ارتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه شيطان ١٨٣
اسمعوا وأطيعوا ٢٦٠
اعرضوا عليَّ رقاكم ١٨٨
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ٧٦
أفضل الدعاء يوم عرفة لا إله إلا الله ١٢٢
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ٤٩

أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة..... ٢٢٧
اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي..... ٥٣
اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد..... ٢٢، ٢٧٧
أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا..... ٢٥
أميركم زيد فإن قتل فجعفر..... ٢٠٦
إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر..... ١٩٦
إن الروح إذا قبض تبعه البصر..... ١٠٢
إن الشيطان أتى بلالًا..... ١٨٣
إن الذي يحدث فيكذب ليضحك القوم..... ٢٥٧
إن الله حرم على الأرض أن تأكل..... ٢٢٧
إن الله خلق خلقه في ظلمة..... ٧٦
إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام..... ٧٧
إن الله يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني..... ٤٨
إن المؤمنين إذا نجوا من النار..... ١٥٤
إن في الجسد مضغة..... ٢٦٧
إن كدتم آنفًا لتفعلون فعل فارس والروم..... ٣٥
إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد..... ٢٢، ١٨٢
أنت منهم..... ٢٠٦
انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا..... ٢٣٥
إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم..... ٢٦٤
إنكم ستلقون بعدي أثره..... ٢٤٦
إنما الأعمال بالنيات..... ٢٥

إني حرمت الظلم على نفسي (حديث قدسي) ١٨٤
إني خلقت عبادي حنفاء ٦٠
إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت ٢٥
إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ٢١٧
إنه ليغان على قلبي ٥٣
أوجدتموه ذلك صريح الإيمان ٢١٢
أوصاني خليلي أن اسمعوا وأطيعوا ٢٦٠
ألا ليبلغ الشاهد الغائب ١٤
أيها الناس سلوا الله اليقين والعافية ٤٨
بلغوا عني ولا آية ١٣
البيعان بالخيار ٢٣
تركتكم على البيضاء ١٦٧
تنام عيناي ولا ينام قلبي ٢٠٨
الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة ٢١٣
الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا ٢٠
خط رسول الله خطًا ١٦٧
خلافة النبوة ثلاثون سنة ٦١
خيار أئمتكم الذين تحبونهم ٢٦١
خير القرون قرني ٦٢
دعوة أخي ذي النون ٥٤
رأيت عمرو بن لحي بن قمعة ١٧٨

رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ١٤٤
الريح من روح الله ١٠٢
سبوح قدوس رب الملائكة والروح ٧١
السلطان ظل الله في الأرض ٣٣
شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ٩٢
صلى النبي يوم الفتح خمس صلوات بوضوء واحد ٢٠٩
الصلوات الخمس والجمعة ٩١
عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ١٠٤
عليكم بسنتي وسنة الخلفاء ..... ٢٦، ٦١
فأخذته فذعته حتى سأل لعابه ١٤١
فتنة الرجل في أهله وماله وولده ٩١
فحج آدم موسى ..... ٤٥، ٥٥
قال الله يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ٥٠
قوموا إلى سيدكم ٣٤
كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا ٥٤
كان يتوضأ عند كل صلاة ٢٠٩
كان يأتي قباء كل سبت ١٧٩
كان يعالج من التنزيل شدة ١٣٧
كان يقول إذا رفعت مائدته: الحمد لله حمدًا كثيرًا ٢٠
كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله ٢٦
كان يقول في ركوعه وسجوده سبوح قدوس ٧١

كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجود: سبحانك اللهم ربنا..... ٥٥
كفى بالمرء إثمًا أن يضيع ٢٣٥
كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد ٢١٢
كلوا الزيت وادهنوا به ٢٠٥
الكلب الأسود شيطان..... ١٨٨
لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ٢٢٧
لم يكن شخص أحب إليهم من النبي وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ٣٤
لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به ١٤٤
لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا..... ١٧٥
لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ٩١
لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية ٢٢١
ليس الغنى عن كثرة العرض..... ١١٩
ليس ذنب أسرع عقوبة ٢٤١
ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل ٨٨
ما أرى بأسًا من استطاع منكم ١٨٨
ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم ٢١٩
ما بال أقوام يتنزهون ٥٨
ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة..... ١٤٩
ما من ذنب أحرى أن يعجل لصاحبه العقوبة..... ٢٦٢
ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته ٩٢
ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا ٢١٩

ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين ٩٢
ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ٩٣
ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف..... ١٢٣
مثل المؤمنين في توادهم ١٣٠
مروه فليتكلم وليجلس وليستظل ١٣٣
من استطاع منكم أن ينفع أخاه..... ١٨٨
من بدل دينه فاقتلوه ٩٠
من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ١٦٠
من بنى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا ١٨٢
من تقرب إلي شبرًا..... ٤٩
من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء ١٨١
من حج هذا البيت فلم يرفث ٩١
من خرج من الطاعة ..... ٢٥٩، ٢٦٠
من خلع يدًا لقي الله يوم القيامة ولا حجة له..... ٢٥٩
من رأى من أميره شيئًا يكرهه ..... ٢٤٦، ٢٥٩
من رأى منكم منكرًا فليغيره ..... ٨٨، ٢٥٤
من زارني بعد مماتي..... ٢٢٩
من زارني وزار أبي إبراهيم ..... ٢٢٨، ٢٢٩
من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا ٣٥
من سعادة ابن آدم استخارته الله..... ٢٣٩
من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا..... ٩١

من عشق فعف وكتم ١٥٠
من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا ٩١
من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ٢٥
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا ٨٢
من كذب علي متعمدًا ١٣
من مات وعليه صيام ٩٢
من نام عن صلاة أو نسيها ١٨٣
من نذر أن يطيع الله فليطعه ١٨١
من هذا؟ ١٣٣
من هم بحسنه فلم يعملها ٢١٠
من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين ٢٤٠
من يستعفف يعفه الله ١٢٣
المؤمن للمؤمن كالبنيان ١٣٠
المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ٢٣
نضر الله امرأ سمع منا حديثًا ١٤
هذا سبيل الله وهذه السبل ١٦٧
هذا مسجدي هذا ١٨٠
والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه ٢٣٠
وزنت الأمة فرجحت ثم وزن أبو بكر ٤٨
ولو استعمل عبدًا يقودكم بكتاب الله ٢٦١
ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ ١٨٩

لا تتخذوا قبري عيدًا ٢٢
لا تجعلوا قبري عيدًا ٢٢٧
لا تجلسوا على القبور ٢٢٧
لا حسد إلا في اثنتين ١٠٩
لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ٢٥٣
لا تسبوا أصحابي ٦١
لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد ١٨١
لا تطروني كما أطرت النصارى ٢١
لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ..... ٢٢، ٥٢
لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ٩٠
لا يحل لثلاثة يكونون في سفر إلا أمروا عليهم ٢٤٤
لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ٢١٩
يا أيها الناس توبوا إلى ربكم ٥٣
يا مقلب القلوب ثبت قلبي ٢٥٥
يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ٢٦٠
يخلص المؤمنون من النار ١٥٤
يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ٨٩
ينصب لكل غادر لواء ٢٥٩

❁ ❁ ❁

٢ - فهرس الأعلام

آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٣٦، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥٥، ٨٤، ٩٦، ١١٢، ١٣٦، ١٥٥، ١٦٠، ٢١١، ٢٤٢، ٢٤٤

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٤٠، ٤٩، ١٤١، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠٩، ٢٢١، ٢٢٩

ابن جدعان ١٢٢

ابن سبعين ٣٨

ابن سينا ..... ١٠٠، ١٢٦

ابن عباس ..... ٢٨، ٤٣، ٦٩، ٧٣، ٧٨، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٥٠، ٢٠٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٥٩

ابن عربي ..... ٣٧، ١٢١

ابن عمر ..... ١٥، ١٠٩، ١٤٧، ٢٠٧، ٢٥٩

ابن الفارض ..... ٣٩، ٤٣، ٦٦

ابن القشيري ١٠٠

ابن مريم= عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ابن مسعود= عبد الله بن مسعود.

أبو أمامة ٢٠

أبو بكر بن عياش ٧٩

أبو بكر الصديق ..... ٤٨، ٥١، ٦١، ٧١، ١٣٦، ١٨٨، ٢٠٥
أبو حامد الغزالي ٦٤
أبو الحسن الأشعري ٦٤
أبو حنيفة ٢١٠
أبو حيان التيمي ٩٣
أبو الدرداء ..... ٦٩، ٢٣٣، ٢٤٥
أبو سعيد الخدري ١٥٤
أبو سعيد الخراز ١٥٥
أبو طالب ٨٦
أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ٦٤
أبو علي الجوزجاني ١٣١
أبو مرثد الغنوي ٢٢٧
أبو المعالي الجويني ٦٥
أبو موسى الأشعري ٧٧
أبو هريرة ..... ١٠٩، ٢٥٩
أبو يحيى القتات ١٥٠
أبي بن كعب ٢٤٥
أحمد بن تيمية ٢٣٨
أحمد بن حنبل ٧٢، ٧٩، ١١٨، ١٦٦، ١٨١، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢
أحمد بن القاسم ٢٠٨

إسحاق بن راهوية ٧٩
أسماء بنت عميس ١٣٦
أم حرام بنت ملحان ٢٠٦
أمية بن أبي الصلت ١٢٢
أنس بن مالك ..... ٣٤، ٩٢، ٢٠٧
أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٢٢
بريدة ٢٠٩
بقي بن مخلد الأندلسي ٧٩
بلال ٨٥
بهز بن حكيم ٢٥٧
التلمساني ..... ٣٨، ٤٣
ثمود ٤٤
الثوري ١٥٨
جابر بن عبد الله ٤٧
جبريل ١٣٨
الجعد بن درهم ١٤١
جعفر بن أبي طالب ..... ١٣٦، ٢٠٦
الجهم بن صفوان ..... ٤٢، ١٨٧
حاتم الأصم ١٨
الحارث المحاسبي ١٢٥

حذيفة بن اليمان ١٩٦
الحسن البصري..... ١٤٤، ١٦١، ٢٢٥
خباب بن الأرت ٨٥
الخرائطي..... ١١٣
الخضر ..... ٤٢، ٤٣
خيثمة بن عبد الرحمن..... ٨٧
داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٤٠، ١٤١، ٢١٤
رقبة بن مصقلة ٤٨
زيد بن ثابت ٢٠٦
السري السقطي ٢٢٢
سعد بن أبي العاص..... ٨٥
سعد بن معاذ..... ٣٤
سعيد بن جبير..... ١٠٣، ١٠٦
سفيان بن عُيَيْنَة..... ١٤، ١١٧، ١٢٢، ١٥٨
سلمان الفارسي ٢٣٣
سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٤١
السهروردي..... ١٣١
سهل بن عبد الله التستري..... ٨٣
سيبويه ١٢١
الشافعي ..... ١٤، ١٨١، ٢١٠

شاه بن شجاع الكرماني ٢٠٣
الشعبي ..... ٤٨، ٥٨
شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٨٦، ١١٧
صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ١١٧
صبيغ بن عسل التميمي ٢٢٠
طاوس بن كيسان ..... ١١٨، ٢٢٢
عائشة أم المؤمنين ..... ٩٢، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٧
عاد ٤٤
عبد الله بن إباض ٨٩
عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الشامي ٧٩
عبد الرحمن بن ملجم المرادي ٨٩
عبد الله بن رواحة ٢٠٦
عبد الله بن الزبير ٢٣٢
عبد الله بن عمرو ..... ٧٦، ١٦٠
عبد الله بن مسعود ..... ٢٤، ٤٨، ٦٩، ٧٣، ٧٦، ٨٥، ١٠٤، ١٠٩، ١١٦، ١٦٧، ٢١٠، ٢٤٥، ٢٥٧، ٢٦٢
عبد الله بن مطيع ٢٥٩
عبد الملك بن مروان ٢٣٢
عبد بن حميد الكشي ٧٩

عثمان بن عفان ..... ٥١، ٦١، ٨٩، ١٨٨، ٢١٠، ٢٣٢
العرباض بن سارية ٢٦
عزير ٢٤
عكرمة ٣٤
علي بن أبي طالب ..... ٥١، ٦١، ٨٩، ١٣٠، ١٣٦، ١٨٨، ٢٠٨، ٢٣٢، ٢٦٠
عمار بن ياسر ٨٥
عمر بن الخطاب ..... ٥١، ٦١، ١١٨، ١٣٦، ١٨٨، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٢
عمر بن عبد العزيز ..... ٢٢٧، ٢٥٢
عمران القصير ٤٨
عمرو بن حزم ١٨٨
عمرو بن لحيى ١٧٨
عوف بن مالك الأشجعي ..... ١٨٨، ٢٦١
عياض بن حمار ٦٠
عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٢١، ٢٤، ٥٠، ٧١، ١٤١، ١٤٧
الغزالي ١٢٥
فرعون ..... ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٨٥، ٨٦، ٩٧
الفضيل بن عياض ..... ٣٠، ٢٢٩
قابيل ١١٢

قارون ٩٧
القونوي ٣٨
كعب بن مالك ٢٢٠
الكلبي (محمد بن السائب) ٧٩
لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ٤٠
مالك بن أنس ..... ٦٨، ١٨١، ٢١٠، ٢٢٠
مالك بن الحويرث ٢٤٤
مالك بن دينار ٨٧
مجاهد ..... ١٣٩، ١٥٠
محمد بن جرير الطبري ٧٨
مروان بن الحكم ٢٣٢
المسيح = عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
معاذ بن جبل ١٠٦
معاوية ..... ٢١٩، ٢٣٢
مقاتل بن سليمان ٧٩
موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٥٥، ٨٧، ١٢١، ١٢٢، ١٤١
نافع بن الأزرق ٨٩
نجدة الحروري ٨٩
نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٤٤، ٦٨، ١٥٥، ١٧٨
هابيل ١١٢

هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٩
هود عَلَيْهِ السَّلَامُ ١١٧
الوليد بن عبد الملك ٢٢٧
يحيى بن عمار ١١٦
يزيد بن معاوية ..... ٢٣٢، ٢٥٩
يعقوب بن إسحاق الكندي ٩٩
يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ١١٨، ١٦٣
يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٥٣، ١٢٣، ١٤١، ١٦٣، ١٦٦، ٢٠٣
يوسف بن إسباط ١٠٤
يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ..... ٥٤، ١١١

❁❁❁

٣ - فهرس موضوعي

المقدمة ٥

المبحث الأول: العلم والعلماء:

جهود علماء الحديث ١٣

سبب الاجتماع والافتراق ١٤

العلم نوعان ٥٨

لكل مقام مقال ٧٢

حقيقة العلم والخوف ٨١

أصناف العلماء ٨٣

العلم والكبر ٩٤

العلوم والحياة ١١٦

حقيقة العلم ١٤٢

لذة العلم ١٥٠

العلماء والأمراء ١٥٨

احذروا زلة العالم ٢٠١

طلب العلم الشرعي ٢٤٠

فساد المصلحة ظلم عظيم ٢٤٦

حق العالم ٢٥٧

المبحث الثاني: العقيدة والتوحيد:

الفرق بين الحاجتين ١٨
الانحراف والغلو ٢١
الدعاء ٢٤
أصول العبادة ٢٦
أعمال شيطانية ٢٧
لله الأمر من قبل ومن بعد ٣٠
الأسباب ٣٣
تفاضل الكفار في كفرهم ٣٤
مفاسد سؤال المخلوقين ٣٤
ليس في القدر حجة لابن آدم ولا عذر ٤٤
لا تسبوا الدهر ٤٩
عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٥٠
الأمر والقدر ٥٣
في معنى العلو والمعية ٥٦
بيان التأويل والتحريف ٥٧
الكلمة أصل العقيدة ٦٧
بأي لغة يتكلم أهل الجنة؟ ٧٠
عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الثانية ٧١
هل سجد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ملائكة السماء والأرض؟ أم ملائكة الأرض خاصة؟ ٧١

إن الله قد أحاط بكل شيء علمًا ٧٢
الفرق بين الدعاء والخبر عن الله تعالى ٧٣
الله نور السموات والأرض ٧٦
تفاضل الإيمان ٨٠
المراد بقول من قال من السلف: الإيمان قول وعمل ٨٢
الإيمان يزيد بالعلم النافع والعمل الصالح ٨٧
الإنكار القلبي آخر حدود الإيمان ٨٨
الأسباب التي يقوى بها الإيمان ٩٤
الاستغفار والاعتلال ٩٧
أدب الدعاء ١٢٢
الكرامة والحاجة ١٣١
الصفات لها ثلاث اعتبارات مطلقة أو مضافة للرب أو مضافة للعبد ١٣٦
أسباب صرع الجن للأنس ١٤٠
جذور الشرك ١٥٤
إخفاء الدعاء ١٦٠
أهمية العقيدة الصحيحة وحاجة الناس إليها ١٧٦
أصل الشرك في العالم ١٧٨
استحالة الظلم على الله تعالى ١٨٤
الجنة والنار والعرش لا تفنى ١٨٧
من شروط الرقى ١٨٨

سبب تشكل شياطين الجن بالكلاب والقطط السود ١٨٨
الخرور للسجود أول الخضوع المنافي للكبر ٢١٤
حكم الدعاء عند استقبال الحجرة النبوية ٢٢٦
زيارة القبور بين المشروع والممنوع ٢٢٨
قبة الصخرة ٢٣٢
المؤمن لا يسأل غير الله تعالى ٢٣٤
لفظ السنة في كلام السلف ٢٤٥
عزة المسلم ٢٥٣

المبحث الثالث: القرآن والتفسير:

عبر من قصة الخضر ٤٢
الله نور السموات والأرض ٧٦
وسوسة الشيطان عند قراءة القرآن ٨٨
هم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٢٣
ضبط المصاحف بالشكل ١٣٧
لفظ الاختلاف في القرآن ١٣٨
تفسير النصوص بالهوى ١٤١
حاجة الأمة إلى فهم القرآن ١٤٣
الكلمتان الجامعتان ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٤٤
نكاح الكتابية وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ ١٤٧

بطلان حجة إبليس من خمسة وجوه في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ١٥٩
عبرة غالية في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ١٦٦
تدبر القرآن ١٧٠
المقصود (بأسفل سافلين) ١٧٢
لمحات من سورة الكوثر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ ١٧٣
فضل سورة الإخلاص ١٧٤
حكمة التكرار في القرآن ١٩٣
حفظ القرآن الكريم ٢١٤
موجبات التلاوة ٢١٦
لذة الورد اليومي ٢١٦

المبحث الرابع- الحديث الشريف، والهدي النبوي:

جهود علماء الحديث ١٣
دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الحديث ١٣
الفرقة الناجية ٥٩
أهل السعادتين ٦٢
السنة مثل سفينة نوح ٦٨
طريق النبوة ١٠٧

ليس الخبر كالمعاين ٨٧
عاقبة التخلي عن نور النبوة ١٧٦
أحاديث غير ثابتة ١٣٠
أحاديث مكذوبة ١٤٣
السنة تابعة للقرآن ومفسرة له ١٧٧
قاعدة الاعتصام بالرسالة ١٩١
حقوق الله سبحانه وحقوق رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢٣٠
التقليد والاتباع ٢٠١

المبحث الخامس- أصول الفقه:

بيان التأويل والتحريف ٥٧
متعلقات الأمر والنهي ٨٣
فعل المباح على وجة التعبد ١٣٢
الشرع المنزل والمؤول والمبدل ٢٦٤

المبحث السادس- الملل والفرق والنحل والبدع:

سبب الاجتماع والافتراق ١٤
فضائح القائلين بوحدة الوجود ٣٧
عاقبة المبتدعة ٤٣
الخارجون عن منهج السلف ٦٤
أغلاط المرجئة ٨٤

ضرر أئمة أهل البدع ٨٨
تاريخ الخوارج ٨٨
رأي الكندي بالمناطقة ٩٩
عبرة لكل معتبر نهاية أتباع المنطق ١٠٠
القول في كتب المنطق ١٠٠
أهواء وأذكار (يا هو يا هو) ١٢١
لا حدود لما يفسده المبتدعون ١٥٥
من خصائص المبتدعة ١٨٩
ضابط هجر المبتدع ومرتكب الكبائر ٢١٩
الدين الخالص ٢٦٣
تزيين الباطل ٢٦٣
اتباع الهوى ٢٤٠
الكلام في أهل البدع جهاد في سبيل الله ٢٤٨
بيان عوار المبتدع ٢٤٨
التحذير من البدع والمبتدعة ٢٤٩

المبحث السابع- الأخلاق والسلوك:

أهل السعادتين ٦٢
الفطرة والشريعة ٦٤
الصمت والكلام ٨٢

أسباب جحود الحق ٨٦
آفة الاطمئنان إلى النفس ٩٨
كل نفس بما كسبت رهينة ١٠٣
الصدق والإخلاص ١٠٤
فضل الصبر ١٠٥
آفة الحسد ١٠٨
صبر الكرام ١١١
الحسد بين المتشاركين ١١٢
الأهواء تعصف بأهلها ١١٧
زينة الأخلاق ١١٨
الاستغناء والاستعفاف ١٢٣
الذكر المشروع ١٢٦
كلمة الحق عند المؤمن والرئيس ١٢٧
الاستقامة مطلوب الصالحين ١٣١
إخفاء الدعاء ١٦٠
الخلة لغير الله عداوة ١٦٥
شروط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ١٦٨
كتمان النصوص عند المبتدع ٢٠١
حق المظلوم وتوبة الظالم ١٨٦
السلوك ١٩٤

جذر الخير ومعدن الشر ١٩٩
الجعالة للشفاء ٢٠٢
ثلاث فوائد جليلة في غض البصر ٢٠٢
لا ينهي عن خير ولو كان رياء ٢١٧
أدب المناظرة عند السلف ٢١٨
تفضيل قوم على قوم لا يعني تفضيل الأفراد ٢٣٣
لا تعصب ولا تحزب إلا لله ورسوله ٢٣٤
رسالة من سجن الإسكندرية ٢٣٦
نعمة في نظر شاكر صابر ٢٣٧
دروس تربوية من رسالة شيخ الإسلام إلى أمه ٢٣٨
التخشين في النصيحة مع المحبين ٢٣٩
العدل أساس الملك ٢٤١
أثر الجود والإحسان ٢٤٣
أصناف الناس في الغيبة ٢٤٩
حضور أماكن المنكر ٢٥١
صورة من صور الظلم الشديد ٢٥١
المؤمن لا يخادع ٢٥٣
هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ٢٥٣
احذروا مرارة العمر ٢٥٦
على الباغي تدور الدوائر ٢٦٢

المبحث الثامن- الرقائق والمواعظ:

احرص على ما ينفعك ١٨
الموعظة الحسنة ٣٧
نفائس ٦٣
ثمرة الافتقار إلى الله تعالى ٧٢
روائع الكلم ٧٩
عشرة أسباب تزيل عقوبة الذنوب ٩٠
الأسباب التي يقوى بها الإيمان ٩٤
فائدة جليلة للتائبين ٩٦
الدنيا والعمل الصالح ٩٧
دعاء يجمع صلاح الدنيا والآخرة ٩٨
عبرة لكل معتبر نهاية أتباع المنطق ١٠٠
وصايا وعظات ١٠١
الحسنة والسيئة ١٠٦
عقوبات عشق الصور ١١٩
الناس أربعة أصناف في محبة الله ١٢٤
بصائر وعبر ١٢٧
حاجتنا إلى التوبة ١٣٥
العبودية لله أشرف مرتبة ١٤١
بصيرة ١٤١

حاجتنا إلى الهداية ١٤٥
رياض الجنة ١٤٩
الجنة طيبة ولها أهلها ١٥٣
من أعظم الظلم ١٦٤
عبرة غالية ١٦٦
للنفع وجهان ١٧٢
النسيان يوجب النسيان ١٧٣
إنما يتقبل الله من المتقين ١٧٥
المؤمن لا يجزع ١٨٦
روائع الكلمات ١٩١
لا يأمر الله إلا بالإصلاح ٢٢٦
حكم هادية ٢٣٠
شقاء الدنيا ٢٤٠
أعظم ما عبد الله به ٢٤٥
كلمات رائعة ٢٤٥
حكم التحدث بحكايات مكذوبة ومفتعلة ٢٥٧

المبحث التاسع- فضائل ومواقف وأقوال من تراث السلف:

حكم القيام للقادم وغيره ٣٤
من أقوال السلف ٣٦

عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٥٠
الخيرية في القرون الثلاثة ٦٩
منزلة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٧١
لفظ السنة في كلام السلف ٢٤٥

المبحث العاشر- القلوب، وأحوالها:

محركات القلوب ٣٠
ما في قلبي إلا الله ٤٧
كيف تتحصل على اليقين؟ ٥٧
الروح والنفس ١٠٢
وللقلوب أعمالها ١٠٢
دواء العشق ١٠٧
آفة الحسد ١٠٨
العشق ١١٢
من أمراض النفوس الغريبة ١١٣
اللذة العالية ١١٣
الحمية والتقوى ١١٥
الذوق الشرعي ١٢٠
الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين ١٢٤
عقوبات عشق الصور ١١٩

أقسام القلوب ١٤٢
علاج العشق ١٥٠
كل على شاكلته ١٥٢
الذنب الذي يضر صاحبه ١٦٤
الدواء الناجع ١٦٨
السرور العظيم ١٧٠
فوائد جليلة ١٧٤
بصيرة المؤمن ١٩٦
القلب مفطور على محبة الخير ١٩٩
النية المجردة ٢١٠
من بركة الثناء والدعاء ٢١١
علاج الوسواس ٢١٢
تدفع المضرة وتستجلب المنفعة بما يرضي الله ٢٢٢
إنما يقدس الرجل عمله ٢٣٣
فائدة عظيمة: دواء العشق ٢٥٥

المبحث الحادي عشر- السائرون إلى الله تعالى:

المجاهدون ٢٣
أولياء الله تعالى ٥١
أهل السنة والجماعة ٥٧

مقام الصحابة ٦٠
أتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا ٦٧
إظهار مذهب السلف والانتساب إليه ٦٨
صفة المحبين المحبوبين ١٠٦
الطريق الأقوم ١٢٨
صفات جند الله تعالى ١٣٤
كلنا للكتاب والسنة تبع ليس غير ١٣٩
الاحتراز من التكفير ١٤٠
الأذى في طاعة الله كرامة ١٦٦
عمارة المساجد ١٨١
الاتباع أصل من أصول الدين ١٩٥
مراعاة الحال ١٩٧
حسن الاتباع ٢١٠
لذة الورد اليومي ٢١٦
المصلحة ترجح فعل المستحب وتركه ٢٢١
الشكوى لله وحده ٢٢٢

المبحث الثاني عشر- متفرقات:

درر ذات عبر ٣١
سر الجمع ٥١

حرف الواو وحرف ثم ٥٢
حكم مرتكب الكبيرة ٥٢
قاعدة: مجاوزة الحد ٥٩
استعمال اللين والشدة كل في موضعه في الرد على المخالف ٥٦
الروح والبدن ٦٩
فيما يفسد الدنيا ٧٢
قاعدة شريفة: دليل المبطل حجة عليه ٧٥
الحرية المظلمة ٨١
وللحزن جانب إيجابي ١٠٥
العبادة ١١٦
الصلاة نور ١٢٠
كتاب الإحياء في الميزان ١٢٥
التحزب المحمود والمذموم ١٢٩
سبب ضعف المسلمين ١٣٤
الاستغفار دواء التقصير ١٣٦
أكاذيب ١٣٦
الاعتبار ١٣٩
تنبيهات ١٥٨
صلاح العالم وفساده ١٦٣

ليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ١٦٤
من أصول الإسلام ١٦٦
العبادة حب وذل لله تعالى ١٦٧
الشيطان والإسراف ١٦٩
للسان دلالة وللفاجر علامة ١٧١
زيارة غار حراء وثور ١٧٩
هل يشرع التمسح بحيطان الكعبة؟ ١٧٩
مسجد قباء ١٧٩
النسيان والخطأ من الشيطان ١٨٣
التداوي ١٨٣
العدل واجب في كل مجال ١٨٥
المرء مع من أحب ١٨٧
هدف الشرع الحقيقي ١٩٢
العاقل ١٩٧
ليلة واحدة بلا سلطان ١٩٧
البر والتقوى ٢٠١
فائدة جليلة في الأشياء التي لم تكن على عهد النبي ﷺ ٢٠٤
تجديد الوضوء لا يستحب ٢٠٧
أنواع المغالبات ٢٠٩

اجتماع الكلمة ٢٠٩
افتتاح خطبة العيد ٢١٢
موضع دعاء الاستخارة ٢١٦
فرش السجادة في الروضة الشريفة ٢٢١
مسألة عجيبة ٢٢٣
للتحريف والجهل نصيب عند بعض المسلمين ٢٢٣
تسمية الهلال هلالًا ٢٢٤
الأمية في الدين ٢٢٤
الأجر على قدر منفعة العمل ٢٢٦
سبب إدخال الحجرة إلى المسجد ٢٢٧
قاعدة شريفة: الدين مبني على أصلين ٢٢٩
قبة الصخرة ٢٣٢
تفضيل قوم على قوم لا يعني الأفراد ٢٣٣
تعليق الدين بما لم يأت به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضلال ٢٣٤
وللسفر حكمة ٢٣٥
الناس ثلاثة ٢٤٢
الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ٢٤٣
الصبر على ظلم الأئمة ٢٤٦
تولية الأبرار ٢٥١

آفة الحيل ٢٥٢
التورق ٢٥٢
السفتجة ٢٥٢
السماع والاستماع ٢٥٣
تعدد المساجد وخراب بعضها ٢٥٥
مصلحة المرأة في الزواج أولاً ٢٥٦
زواج السر ٢٥٨
الشريعة كاملة ٢٥٨
اليمين في الإسلام ٢٥٨
أنواع الخارجين على ولي الأمر ٢٥٩
طاعة ولاة الأمر ٢٦١
وللمسجد دوره ٢٦١
الدرر والجواهر ٢٦٥
كلمات نورانية ٢٧١
أهل الحديث والثبات على الحق ٢٧١

٤- فهرس محتويات الكتاب

المقدمة ٥
جهود علماء الحديث ١٣
دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الحديث ١٣
فائدة: سبب الاجتماع والافتراق ١٤
احرص على ما ينفعك ١٨
فائدة: الفرق بين الحاجتين ١٨
الانحراف والغلو ٢١
المجاهدون ٢٣
فائدة: الدعاء ٢٤
فائدة: أصول العبادة ٢٦
أعمال شيطانية ٢٧
لله الأمر من قبل ومن بعد ٣٠
فائدة: محركات القلوب ٣٠
درر ذات عبر ٣١
الأسباب ٣٣
تفاضل الكفار في كفرهم ٣٤

مفاسد سؤال المخلوقين ٣٤
فائدة: حكم القيام للقادم وغيره ٣٤
فوائد جليلة من أقوال السلف ٣٦
الموعظة الحسنة ٣٧
فضائح القائلين بوحدة الوجود ٣٧
فائدة: عبر من قصة الخضر ٤٢
عاقبة المبتدعة ٤٣
فائدة: ليس في القدر حجَّة لابن آدم ولا عذر ٤٤
فائدة: ما في قلبي إلا الله ٤٧
فائدة: لا تسبوا الدهر ٤٩
عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ٥٠
أولياء الله تعالى ٥١
فائدة: سر الجمع ٥١
فائدة: حرف الواو وحرف ثم ٥٢
حكم مرتكب الكبيرة ٥٢
فائدة: الأمر والقدر ٥٣
فائدة: في معنى العلو والمعية ٥٦

استعمال اللين والشدة كل موضعه في الرد على المخالف ٥٦
فائدة: بيان التأويل والتحريف ٥٧
أهل السنة والجماعة ٥٧
كيف تتحصل على اليقين؟ ٥٧
فائدة: العلم نوعان ٥٨
الفرقة الناجية ٥٩
قاعدة: مجاوزة الحد ٥٩
فائدة: مقام الصحابة ٦٠
فائدة: أهل السعادتين ٦٢
نفائس ٦٣
فائدة: الفطرة والشريعة ٦٤
الخارجون عن منهج السلف ٦٤
فائدة: الكلمة أصل العقيدة ٦٧
أتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا ٦٧
السنة مثل سفينة نوح ٦٨
إظهار مذهب السلف والانتساب إليه ٦٨
الخيرية في القرون الثلاثة ٦٩

الروح والبدن ٦٩
بأي لغة يتكلم أهل الجنة؟ ٧٠
عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الثانية ٧١
هل سجد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ملائكة السماء والأرض؟ أم ملائكة الأرض خاصة؟ ... ٧١
منزلة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٧١
فائدة: ثمرة الافتقار إلى الله تعالى ٧٢
فائدة: فيما يفسد الدنيا ٧٢
فائدة: إن الله قد أحاط بكل شيء علما ٧٢
فائدة: لكل مقام مقال ٧٢
فائدة: الفرق بين الدعاء والخبر عن الله تعالى ٧٣
قاعدة شريفة: دليل المبطل حجة عليه ٧٥
الله نور السموات والأرض ٧٦
روائع الكلم ٧٩
تفاضل الإيمان ٨٠
الحرية المظلمة ٨١
حقيقة العلم والخوف ٨١
فائدة: الصمت والكلام ٨٢

المراد بقول من قال من السلف: الإيمان قول وعمل ٨٢
متعلقات الأمر والنهي..... ٨٣
أسباب جحود الحق ٨٦
فائدة: الإيمان يزيد بالعلم النافع والعمل الصالح ٨٧
ليس الخبر كالمعاين ٨٧
وسوسه الشيطان عند قراءة القرآن ٨٨
ضرر أئمة أهل البدع ٨٨
الانكار القلبي آخر حدود الإيمان ٨٨
تاريخ الخوارج ٨٨
عشرة أسباب تزيل عقوبة الذنوب ٩٠
أصناف العلماء ٩٣
العلم والكبر ٩٤
فائدة: الأسباب التي يقوى بها الإيمان ٩٤
فائدة جليلة للتائبين..... ٩٦
الدنيا والعمل الصالح ٩٧
الاستغفار والاعتلال..... ٩٧
آفة الاطمئنان إلى النفس ٩٨

دعاء يجمع صلاح الدنيا والآخرة ٩٨
ليس للبدعة حد ٩٨
رأي الكندي بالمناطقة ٩٩
الرد على أهل الباطل ٩٩
عبرة لكل معتبر نهاية أتباع المنطق ١٠٠
القول في كتب المنطق ١٠٠
وصايا وعظات ١٠١
الروح والنفس ١٠٢
وللقلوب أعمالها ١٠٢
كل نفس بما كسبت رهينة ١٠٣
فائدة: الصدق والإخلاص ١٠٤
وللحزن جانب إيجابي ١٠٥
فضل الصبر ١٠٥
الحسنة والسيئة ١٠٦
صفة المحبين المحبوبين ١٠٦
دواء العشق ١٠٧
آفة الحسد ١٠٨

صبر الكرام ١١١
الحسد بين المتشاركين ١١٢
العشق ١١٢
من أمراض النفوس الغريبة ١١٣
اللذة العالية ١١٣
الحمية والتقوى ١١٥
العلوم والحياة ١١٦
فائدة: العبادة ١١٦
الأهواء تعصف بأهلها ١١٧
زينة الأخلاق ١١٨
عقوبات عشق الصور ١١٩
الصلاة نور ١٢٠
الذوق الشرعي ١٢٠
أهواء وأذكار (يا هو يا هو) ١٢١
أدب الدعاء ١٢٢
الاستغناء والاستعفاف ١٢٣
هم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٢٣

الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين ١٢٤
الناس أربعة أصناف في محبة الله ١٢٤
كتاب الإحياء في الميزان ١٢٥
الذكر المشروع ١٢٦
كلمة الحق عند المؤمن والرئيس ١٢٦
علاج ميل النفس إلى الحرام ١٢٧
بصائر وعبر ١٢٧
الطريق الأقوم ١٢٨
التحزب المحمود والمذموم ١٢٩
أحاديث غير ثابتة ١٣٠
الكرامة والحاجة ١٣١
الاستقامة مطلوب الصالحين ١٣١
فعل المباح على وجه التعبد ١٣٢
سبب ضعف المسلمين ١٣٤
صفات جند الله تعالى ١٣٤
فائدة حاجتنا إلى التوبة ١٣٥
الاستغفار دواء التقصير ١٣٦

أكاذيب ١٣٦
الصفات لها ثلاث اعتبارات مطلقة أو مضافة للرب أو للعبد. ١٣٦
ضبط المصاحف بالشكل ١٣٧
لفظ الاختلاف في القرآن ١٣٨
الاعتبار ١٣٩
كلنا للكتاب والسنة تبع ليس غير ١٣٩
أسباب صرع الجن للأنس ١٤٠
الاحتراز من التكفير ١٤٠
العبودية لله أشرف مرتبة ١٤١
بصيرة ١٤١
تفسير النصوص بالهوى ١٤١
أقسام القلوب ١٤٢
حقيقة العلم ١٤٢
حاجة الأمة إلى فهم القرآن ١٤٣
أحاديث مكذوبة ١٤٣
الكلمتان الجامعتان ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٤٤
حاجتنا إلى الهداية ١٤٥

نكاح الكتابية وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ١٤٧
رياض الجنة ١٤٩
لذة العلم ١٥٠
علاج العشق ١٥٠
كل على شاكلته ١٥٢
الجنة طيبة ولها أهلها ١٥٣
جذور الشرك ١٥٤
لا حدود لما يفسده المبتدعون ١٥٥
فوائد عظيمة في آية كريمة ١٥٧
العلماء والأمراء ١٥٨
تنبيهات غالية ١٥٨
بطلان حجة إبليس من خمسة وجوه ١٥٩
فائدة شريفة نافعة في إخفاء الدعاء ١٦٠
فائدة صلاح العالم وفساده ١٦٣
الذنب الذي يضر صاحبه ١٦٤
ليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ١٦٤
من أعظم الظلم ١٦٤

الخلة لغير الله عداوة ١٦٥
عبرة غالية ١٦٦
الأذى في طاعة الله كرامة ١٦٦
من أصول الإسلام ١٦٦
العبادة حب وذل لله تعالى ١٦٧
شروط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ١٦٨
الدواء الناجع ١٦٨
الشيطان والإسراف ١٦٩
السرور العظيم ١٧٠
تدبر القرآن ١٧٠
للسان دلالة وللفاجر علامة ١٧١
للنفع وجهان ١٧٢
المقصود بأسفل سافلين ١٧٢
النسيان يوجب النسيان ١٧٣
لمحات من سورة الكوثر في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ ١٧٣
فوائد جليلة ١٧٤
فضل سورة الإخلاص ١٧٤

فائدة عجيبة: إنما يتقبل الله من المتقين ١٧٥
عاقبة التخلي عن نور النبوة ١٧٦
أهمية العقيدة الصحيحة وحاجة الناس إليها ١٧٦
السنة تابعة للقرآن ومفسره له ١٧٧
أصل الشرك في العالم ١٧٨
زيارة غار حراء وثور ١٧٩
هل يشرع التمسح بحيطان الكعبة؟ ١٧٩
مسجد قباء ١٧٩
عمارة المساجد ١٨١
النسيان والخطأ من الشيطان ١٨٣
التداوي ١٨٣
استحالة الظلم على الله تعالى ١٨٤
العدل واجب في كل مجال ١٨٥
حق المظلوم وتوبة الظالم ١٨٦
المؤمن لا يجزع ١٨٦
الجنة والنار والعرش لا تفنى ١٨٧
المرء مع من أحب ١٨٧

من شروط الرقى ١٨٨
سبب تشكل شياطين الجن بالكلاب والقطط السود ١٨٨
من خصائص المبتدعة..... ١٨٩
روائع الكلمات ١٩١
قاعدة الاعتصام بالرسالة ١٩١
هدف الشرع الحقيقي ١٩٢
حكمة التكرار في القرآن ١٩٣
السلوك ١٩٤
الاتباع أصل من أصول الدين..... ١٩٥
بصيرة المؤمن..... ١٩٦
العاقل ١٩٧
ليلة واحدة بلا سلطان..... ١٩٧
مراعاة الحال ١٩٧
جذر الخير ومعدن الشر..... ١٩٩
القلب مفطور على محبة الخير ١٩٩
البر والتقوى ٢٠١
كتمان النصوص عند المبتدع ٢٠١

التقليد والاتباع ٢٠١
احذروا زلة العالم ٢٠١
الجعالة للشفاء ٢٠٢
ثلاث فوائد جليلة في غض البصر ٢٠٢
فائدة جليلة في الأشياء التي لم تكن على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٢٠٤
تجديد الوضوء لا يستحب ٢٠٧
أنواع المغالبات ٢٠٩
اجتماع الكلمة ٢٠٩
النية المجردة ٢١٠
حسن الاتباع ٢١٠
من بركة الثناء والدعاء ٢١١
افتتاح خطبة العيد ٢١٢
علاج الوسواس ٢١٢
حفظ القرآن الكريم ٢١٤
الخرور للسجود أول الخضوع المنافي للكبر ٢١٤
موجبات التلاوة ٢١٦
لذة الورد اليومي ٢١٦

موضع دعاء الاستخارة ٢١٦
لا ينهي عن خير ولو كان رياء ٢١٧
أدب المناظرة عند السلف ٢١٨
ضابط هجر المبتدع ومرتكب الكبائر ٢١٩
فرش السجادة في الرَّوضة الشريفة ٢٢١
المصلحة ترجح فعل المستحب وتركه ٢٢١
تدفع المضرة وتستجلب المنفعة بما يرضي الله ٢٢٢
الشكوى لله وحدة ٢٢٢
مسألة عجيبة ٢٢٣
للتحريف والجهل نصيب عند بعض المسلمين ٢٢٣
تسمية الهلال هلالًا ٢٢٤
الأمية في الدين ٢٢٤
الأجر على قدر منفعة العمل ٢٢٦
لا يأمر الله إلا بالإصلاح ٢٢٦
حكم الدعاء عند استقبال الحجرة النبوية ٢٢٦
سبب إدخال الحجرة إلى المسجد ٢٢٧
زيارة القبور بين المشروع والممنوع ٢٢٨

قاعدة شريفة: الدين مبني على أصلين ٢٢٩
حقوق الله سبحانه وحقوق رسوله ﷺ ٢٣٠
حكم هادية ٢٣٠
قبة الصخرة ٢٣٢
إنما يقدس الرجل عمله ٢٣٣
تفضيل قوم على قوم لا يعني تفضيل الأفراد ٢٣٣
تعليق الدين بما لم يأت به النبي ﷺ ضلال ٢٣٤
المؤمن لا يسأل غير الله تعالى ٢٣٤
لا تعصب ولا تحزب إلا لله ورسوله ٢٣٤
وللسفر حكمة ٢٣٥
رسالة من سجن الإسكندرية ٢٣٦
نعمة في نظر شاكر صابر ٢٣٧
دروس تربوية من رسالة شيخ الإسلام إلى أمه ٢٣٨
التخشين في النصيحة مع المحبين ٢٣٩
طلب العلم الشرعي ٢٤٠
اتباع الهوى ٢٤٠
شقاء الدنيا ٢٤٠

العدل أساس الملك ٢٤١
فائدة جليلة الناس ثلاثة ٢٤٢
أثر الجود والإحسان ٢٤٣
الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ٢٤٣
أعظم ما عبد الله به ٢٤٥
كلمات رائعة ٢٤٥
لفظ السنة في كلام السلف ٢٤٥
الصبر على ظلم الأئمة ٢٤٦
فساد المصلحة ظلم عظيم ٢٤٦
فائدة: بيان عوار البدع والمبتدعة ٢٤٨
الكلام في أهل البدع جهاد في سبيل الله ٢٤٨
التحذير من البدع والمبتدعة ٢٤٩
أصناف الناس في الغيبة ٢٤٩
حضور أماكن المنكر ٢٥١
تولية الأبرار ٢٥١
صورة من صور الظلم الشديد ٢٥١
آفة الحيل ٢٥٢

التورق ٢٥٢
السفتجة ٢٥٢
المؤمن لا يخادع ٢٥٣
عزة المسلم ٢٥٣
فائدة عظيمة السماع والاستماع ٢٥٣
هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ٢٥٤
فائدة تعدد المساجد وخراب بعضها ٢٥٥
فائدة عظيمة دواء العشق ٢٥٥
احذروا مرارة العمر ٢٥٦
فائدة جليلة: مصلحة المرأة في الزواج أولًا ٢٥٦
حكم التحدث بحكايات مكذوبة ومفتعلة ٢٥٧
حق العالم ٢٥٧
زواج السر ٢٥٨
الشريعة كاملة ٢٥٨
اليمين في الإسلام ٢٥٨
أنواع الخارجين على ولي الأمر ٢٥٩
طاعة ولاة الأمر ٢٦١

وللمسجد دوره ٢٦١
على الباغي تدور الدوائر ٢٦٢
الدين الخالص..... ٢٦٣
تزيين الباطل ٢٦٣
الشرع المنزل والمؤول والمبدل..... ٢٦٤
الدرر والجواهر ٢٦٥
كلمات نورانية ٢٧١
أهل الحديث والثبات على الحق ٢٧٢
الفهارس العامة ٢٧٣
١- فهرس أطراف الحديث النبوي ٢٧٥
٢- فهرس الأعلام ٢٨٣
٣- فهرس موضوعي..... ٢٩١
٤- فهرس محتويات الكتاب ٣٠٩

تم بحمد الله